جائزة حنّا مينه للرواية
1
العام 2017

وصايا من مشفى المجانين

صفوان إبراهيم



رواية

وصايا من

مشفى المجانين

تصميم الغلاف

عبد العزيز محمد

جائزة حنّا مينه للرواية
1
العام 2017

وصايا من مشفى المجانين

رواية

صفوان إبراهيم

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٨م

وصايا من مشفى المجانين: رواية / صفوان ابراهيم.- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٨.- ٢٩٦ص؛ ٢٠سم. — (جائزة حنا مينه للرواية ؛١).

١- ٨١٣,٠٣ إ ب ر و ٢- ٨١٣,٠٠٩٥٦١ إ ب ر و
٣- العنوان ٤- إبراهيم ٥- السلسلة
مكتبة الأسد

الإهداء

- إلى أرواح الشهداء جميعا ممن ضحوا بأغلى ما لديهم.
- إلى روح حبيبي وأخي حيان.
- إلى أبطال الجيش العربي السوري الجرحى منهم والسالمين المجاهدين الحقيقيين.
- إلى كلّ من ترفَّع عن صغائر الدنيا ونظر إلى سورية بالعين التي يجب أن ينظر إليها كلّ مواطن سوري شريف.
- إلى المغتربين السوريين الذين أدركوا بحسهم الوطني ما معنى كلمة (وطن) وما تضيفه كلمة سورية من بهاء وعزٍ وإباءٍ لهذا المعنى حتى يصبح (سورية الوطن).

مُقدِّمة

قد يُبالِغُ البعضُ، فيرى أنّ الجوائز الأدبيّة المهمّة تُخلقُ المبدعينَ في مجالاتِ الكتابةِ المختلفة، لكننا لسنا من هؤلاءِ الواهمين بالتأكيد، ونحنُ لا نبخسُ الجوائزَ الأدبيّة والفنيّةَ الوطنيّة حقّها ودورها ولا سيّما حين تكونُ نابعةً من حاجةِ البلاد ورغبتها الصادقة في الأخذ بيدِ المبدعين والوقوف إلى جانبهم، ودعمهم في رحلةِ الإبداع المضنية..

الأديب؛ شاعراً، روائياً، قاصاً، مسرحيّاً يولَدُ – وجيناتُ الإبداع في دمِهِ – ويتكوّنُ في بيئةٍ أدبيّة مُعافاة، ثُمّ تأتي الجوائزُ بعد ذلك لتقوم بدورها، فكم من جائزةٍ كان من شأنِها أن تَدْفَعَ اسماً خجولاً إلى النور، أو أن تَطْرَحَ عملاً أدبيّاً راقياً كان من شأنِهِ أن يظلَّ حبيسَ عتمةِ الأدراج...

وهي بهذهِ الطريقةِ البسيطة تَعْمَلُ على تطوير المشهد الثقافي الوطني، ورفده بدماءٍ جديدة، وتُعلي من شأن الإبداعِ أمامَ وجوهِ النشاط البشري الأخرى...

وهي في المطاف الأخير قد تُساعِدُ مبدعاً في جانبها المالي على الحياةِ ولو لأشهرٍ مَعدودات...

انطلاقاً من كل ذلك أعدنا في الهيئة العامةِ السوريّة للكتاب إطلاق َجائزتي حنّا مينه للروايةِ العربيّة، وسامي الدروبي للترجمة بعد أن توقفتا عام ٢٠٠٩، وجاءَ الأمرُ بدعمٍ ومباركةٍ من الأستاذ محمّد الأحمد وزير الثقافة، وبرعايةٍ مستمرةٍ تكللت بحفلِ تكريم الفائزين في شهر تشرين الثاني من العام الماضي..

ثُمّ أطلقنا مجموعةً من الجوائزِ الأخرى:

جائزة عُمر أبو ريشة للشعر، وجائزة ممتاز البحرة للوحةِ المخصصةِ للطفل، وجائزة القصة القصيرة المكتوبةِ للطفل، وجائزة حفظ الشعر العربي رغبةً في التمكين للغةِ العربيّةِ...

قد يبدو الأمرُ مُغامرةً في لحظةٍ تاريخيّة تشهدُ فيها البلاد ما تشهدُ من حربٍ مُدمّرةٍ استهدفت كل شيءٍ جميلٍ فيها...

وفي لحظةٍ ضَعُفت فيها مواردُ وزارة الثقافة وتقلّصت، ودُمّرَ كثيرٌ من منشآتها على يد الظلاميّين...

لكنها بالمقابل خطوة مفعمة بالحياةِ والأمل.. خطوة نحو النور، تُعلنُ فيها هذهِ المؤسسةُ الثقافيّة الرائدة: أنَّ الشعبَ السوري عصيٌّ على الموت والاندثار.. عصيٌّ على ثقافةِ الانغلاقِ والتكفير والحَجْرِ والظُّلْمة...

وهكذا... بين أيديكم أيّها القراءُ الأعزّاء ثلاثةُ أعمالٍ روائيّة متميّزة، لعلّها من أهمِّ ما كُتبَ في الوطن العربي خلال هاتين السنتين (٢٠١٧- ٢٠١٨)، وتنبعُ أهميتها من الجانبين الفنّيّ والمعنوي معاً، وهذا ما أعلنتهُ لجنةُ تحكيم الرواية في حفلِ تكريم الروائيين والمترجمين الفائزين...

يسعدنا في الهيئة العامة السوريّة للكتاب أن نَطرَحَ بين أيديكم الروايات الثلاث الفائزة في هذهِ الدورة وهي على ترتيب فوزها:

- وصايا من مشفى المجانين، للروائي صفوان إبراهيم.
- كنتُ هناك / للروائي حسن حميد.
- مطرٌ أسود، للروائي سليم عبّود...

إن «وصايا من مشفى المجانين»، هي العمل الروائي الثاني للروائي صفوان إبراهيم، وهو ما يؤكدُ كلامي في بدايةِ مقدمتي هذهِ: أن وزارة الثقافة تفخرُ أنها تقدّمُ اسماً جديداً للمشهد الثقافي في سورية، إنها هنا تبرهن على دورها الرائد في دعم هذا المشهد بالدماءِ الجديدة.

الروايةُ تحكي قصّة طالبٍ سوريٍّ متميّز، يدرسُ الطبَّ في ألمانيا، ويحصلُ على درجة الدكتوراه، ولقب بروفيسور (أستاذ) في الطب النفسي، وينالُ أيضاً الجنسيّةَ الألمانيّةَ،

ويقترنُ بفتاةٍ من تلكَ البلاد، فينجبان ابنةً، ويعودُ إلى سورية لخدمةِ العلمِ، فيكلّفُ العملَ في مصحٍّ نفسيٍّ مُطلٍّ على سهل الغاب، ويحدثُ ذلك خلال سنوات الحربِ الراهنةِ هذهِ.. فإذا بمجموعات إرهابيّة تُحدِقُ بالمصح، وتحاولُ اقتحامَه واحتلاله، وتدور عندئذٍ معارك شرسة تتجلّى فيها وطنيّةُ الطبيب العائد من ألمانيا وزملائه، مما لا يتسعُ المقامُ للإبحار فيه..

جاءَ مستوى العمل على صعيد البنيةِ الروائيّةِ ممتازاً، مع أن الرواية بدت في البداية مذكراتٍ شخصيةً عاديّةً، لقد تمكن الروائي من التحكّم بمادتِهِ الروائية تحكّماً مُدهِشاً، وأدار الأحداث بحرفيّةٍ تقنيّةٍ اتسمت بالمهارةِ والجاذبيّةِ وقوّةِ التأثير، وجاءت لغةُ السرد والحوار متميّزة أيضاً رغم بساطتها السلسة، وعفويتها الغامرة.

وقد تمكَّنَ العملُ من خلال الأحداث التي تجري في المصح وحوله، ولاسيّما المعارك البطوليّة أن يُبْرِزَ وطنيّة الإنسان السوري، وأن يُعَرِّيَ مظاهر الفساد المختلفة،

المنتشرة بقوّة بأسلوبٍ روائيٍّ بالغ الجاذبيّة والإحكام، وقوي التأثير في القارئ...

أما في رواية «كنتُ هناك» للروائي حسن حميد فنحنُ أمامَ رواية تتناوَلَ حياةَ شابٍ من يهود الفلاشا الأثيوبيين الذين أغواهم حاخامات محليّون موظّفونَ من قبل الحركة الصهيونيّة، بالقدوم إلى أرض فلسطين؛ الجنة الموعودة، التي منحهم الله إياها إلى الأبد، حتى إذا ما وصَلَ إلى الكيان وعاشَ فيه تكشّفت له الأكاذيب وعالم العنصريّة المخيف الذي يميّزُ بين اليهود البيض والسود، وانعكاسات هذا العالم على مجمل وقائع الحياة اليوميّة، وعلى سلوك المتنفّذين في مختلف القطاعات. كل ذلك يدفَعُ هذا الشاب إلى التحوّل من كارهٍ للعرب إلى ظهيرٍ لهم. تصفُ الروايةُ خلال تحوّلات الشاب المذكور أحداثَ حُبٍّ وكراهية وأفعالاً دمويّة، والروايةُ كما عَبّر أحد أعضاء لجنةِ التحكيم: «ترتقي إلى مصاف الروايات العالمية الناجحة. بسبب مافيها من حفرٍ عميقٍ في ثقافات الشعوب وهويّاتها التي لا

يمكن أن تتلاشى وتذوب أمام ظاهرة طارئة وفاقعة كالظاهرة الصهيونيّة».

وفي رواية «مطر أسود» للروائي سليم عبود نجد أنفسنا أمام عملٍ يصوّرُ بفنيَّة عالية وبكثير من الموضوعيّة أحوال سوريّة منذ منتصف الستينيات حتى عام ٢٠١٥ «تصويراً جيّداً وقريباً من الدقّة، وذلك من خلال أشخاص وأحداث يكادُ القارئُ يقولُ إنَّه يعرفها أو مَرّ بها أو سمعَ عنها في الواقع الحقيقي حيث يظلُّ الراوي شاهداً على مايوردُهُ من موقعٍ وطنيٍّ متميز».

لن أُسهبَ في الحديث أكثر عن هذه الرواية أو زميلاتها... مفسِحاً في المجال للقارئ الكريم أن يدخُلَ فضاءَ العملِ حُرّاً غيرَ مُقَيَّدٍ بالآراءِ القَبْليّة.

د. ثائر زين الدين

المدير العام للهيئة العامة السورية للكتاب

ليس شرطاً أنْ يعيش الإنسان طويلاً حتى يتعلم كثيراً، قد تمرّ بعض الظروف القصيرة المدة، السحرية التأثير، والتي تطبع في ذاكرة المرء أكثر مما تطبعه حياةٌ كاملة، صحيحٌ أنّ الدراسة تفتح لك بعضاً من أبواب الحياة، وتعلمك الكثير من أساليب البقاء، لكن من المؤكد أنها لا تمنحك عصا موسى السحرية حيث تستطيع إزالة أيّ عائق من العوائق الكثيرة التي ولابد أنها تظهر في طريقك، وكم من مغترٍ بشهاداتٍ علقها على جدران البيت أو المكان الذي يعمل به! لفظته الحياة كجسمٍ غريب عنها، فكونت لديه قناعة بأنه أكبر من الحياة برمتها! وأنّ هذا الكون وكلّ ما في هذا الكون غير جديرٍ حتى بخدمته أو رؤية شهاداته! الغرور ضيّع الكثيرين من هؤلاء، ولولا لطف الله لكان مصيري كمصير هؤلاء الحمقى الذين لا همَّ لهم إلا التحلي بذكائهم العلمي، رغم أنهم نادراً ما يلاقون أذاناً تُصغي لأحاديثهم، وإنْ لقوا، فهي أذانٌ مجبرةٌ على السماع، وعلى إدخال الكلام من جهة، ليخرج -على الفور- من الجهة الأخرى، كأنه لم يُسمع!.

أنا كنت واحداً منهم، أعترف بذلك، ولا أجد أيّ عيبٍ في اعترافي، بل إنني لا أخجل إذا ما قلت إنني ربما كنت الأكثر حمقاً بينهم، والأكثر غروراً، ولا أعتقد بأنني أُلام بذلك إلى الحد الذي يدور في خلد كلّ قارئٍ منكم! وإذا ما سألتموني لمَ؟ فأنا سأجيب على الفور: لأنني حصلت بزمنٍ قصير ـ قضيته في أرقى جامعات أوربا - على أعلى شهادة يمكن أن تُمنح لطالب، سواء كان هذا الطالب أجنبياً مثلي أم من أهل البلد.

ست سنوات من الدراسة المتواصلة، نلت بعدها شهادة البروفسور كسابقة لم تشهدها جامعتي أو أيّة جامعة أخرى من الجامعات المعترف بعراقتها، وقدرتها العلمية والإبداعية، لم أكن طالباً استثنائياً في التعامل الاجتماعي، كما هو معروف عن المتفوقين ممن يضعون نظارات طبية على عيونهم، ويرتدون لباسهم دون مراعاة لأيّ قواعد الذوق والموضة، وينسون حلاقة ذقونهم التي تنبت كلّ مرة كلحى بدائية زغبية مقززة! ويتحدثون دائماً بلغة أشبه ما تكون بلغة (ربوت) مختص بجمع المعلومات عن الدروس، وإحصاء العلامات، ويحلمون حلماً واحداً لا غير وهو حلم رميهم للقبعات المربعة الشكل التي

تُوضع على الرأس كتكملة للباس حفلة التخرج، وعندما يأتي موعد تنفيذ هذا الحلم يتصرفون بكلّ تهذيب! فيحتفظون بها مضمومة إلى أحضانهم، وينظرون إلى رفاقهم الذين لم (يصدقوا على الله) أنْ وصلوا إلى هذه اللحظة، فرموا قبعاتهم، وأقلامهم، وشهاداتهم، وسارعوا إلى حفلات الصخب، والسهر ليرفهوا عن أنفسهم بعض ما حمّلتهم إيّاه الدراسة من الكدر، والهم، والقرف.

أنا كنت ككلّ هؤلاء الذين يجدون في التسلية مرتعاً للهرب من مسؤولية حمّلني إيّاها الفقر المتفشي بعائلتنا أباً عن جد. وعندما قدمت إلى ألمانيا لم يكن وارداً في ذهني أبداً أنْ أنافس على المركز الأول أو أنْ أتعبَ نفسي إلى الدرجة التي أنسى بها حلاقة ذقني، كلّ همي كان تعويض ما ينقصني، وانتشال أهلي من بؤرة الفقر التي وضعوا أنفسهم فيها بإكثارهم لعدد الأولاد، حيث لا طاقة مادية كافية لإطعامهم، ولولا أنّ الله أفقد أمي بعض الأجنة فماتوا قبل ولادتهم، لكوّن بيتنا وحده قبيلة! ولكانت حالتنا بالويل مثلنا مثل الكثيرين من أهل القرية.

سفري - وإنْ لم أرسل لأهلي بعض المال - مهم، على الأقل ارتاحوا من مصروفي أو من همّ مصروفي الذي لا أناله بالأصل!.

في ألمانيا فتحت عيوني، رأيت عالماً غير الذي عشته! حتى تهيّأ لي أنني انتقلت إلى كوكبٍ غير كوكبنا الذي نحياه في قريتنا! كوكبٌ مُقربٌ من الله! لأن سكانه يضبطون إيقاع حياتهم كما يضبطون ساعتهم، العمل عمل، والتسلية تسلية، الموهبة يجب أنْ تُصقل، والنفس يجب أنْ تحصل على ما تشتهي، والحرام يبدأ عندما تتسبب بإزعاج الآخرين، ولا حدود للحلال، ولا حدود للحرام، طالما صحبته الموافقة والمباركة، الدين أقرب ما يكون من الهواية منه إلى العبادة، لا جبر فيه ولا جبارين، وقد ترى في شارعٍ واحد كنيسة وملهى ليلياً! وأحياناً قد تصادف في بناية واحدة مكتباً لمنشد ديني (يُستخدم عادةً كالمأذون في حالات الزواج، وكالشيخ في حالات الوفاة) وإلى جانبه محل تصوير إباحي (صور، فيديو) الكل يدخل مكتبه، ويُمارس عمله دون أيّ فضول زائد أو (معلاق كبير) لما يفعله الأخر في مكتبه، لك أنْ تعرف كلّ

شيء عن أيّ واحد، طالما أنك لا تقترب من الخطوط الحمراء المرسومة، وقد تكون خطوطاً عامة كالتدّخل في صلب عمله، واختصاصه كـ (هنا أفعل كذا، وهنا لا تفعل كذا) أو خاصة (فلانة لا تناسبك، وألزم بيتك، والمعاشرة لغير امرأتك حرام) كما نحب نحن العرب في توجيهاتنا، ونصائحنا لأيّ عابر سبيل، وإن لم يطلبها منا! حتى شكّلنا نظرة غير مريحة بأعين الألمان، وغيرهم من شعوب العالم، وألحقنا صفة (غير المرغوب بهم، و بتواجدهم، وكلامهم على أقل تقدير).

بمجرد وصولي إلى مطار فرانكفورت، رميت بنصائح أبي أمامي على مدرج الهبوط وقلت في نفسي: (أنا لم أهرب من أجواء القرية، والفقر لأحياها هنا، ولم أعش ماقتاً لنصائحه لألتزم بها هنا! أنا رجل، وشاب، وعندي المقدرة الكافية لأعيش كما يحلو لي، وبنفس الوقت محافظاً على شخصيتي، وهويتي الوطنية، وديني، أيام الفقر سأنساها، وأمثلة أبي (خبئ قرشك الأبيض ليومك الأسود، حطّ رأسك بين الرؤوس وقل يا قطّاع الرؤوس) سأتقيؤها مع أول تقيّؤٍ لي، تقيءٌ سأحْدثه غصباً عن نفسي بالتهامي الكثير من السندويش (الهمبرغر، الكنتاكي، مشروب الطاقة).

هكذا بدأتُ حياتي، وانخرطت بقوة في المجتمع الألماني، وباستثناء ساعات الدوام المحددة لي لتعلم اللغة الألمانية، فإن أحداً لن يراني في الجامعة مطلقاً، استأجرت غرفة صغيرة في بيتٍ يتبع لإحدى السيدات التي عرفت فيما بعد أنّ زوجها يعمل في أعالي البحار (قبطان) وأنّه لم يأتِ منذ حوالي ستة أشهر! وأنها لم تؤجرني رغبةً في حصولها على مالي، وإنما لتغيير الجو المحيط بها فقط لا غير! ابنتاها الصغيرتان (ايفا ستة عشر عاماً، و ريتا أربعة عشر عاماً) شكلا كلّ اهتمامات حياتها، طبعاً أنا لم أستأجر لدى السيدة هكذا كما يقولون عندنا في سورية (من الباب إلى الطاقة) بمعنى آخر لم أقرع الأبواب، ولم أسأل: هل تؤجرينني غرفة؟ لا، هذا لا يحدث في ألمانيا البتة، وإنما ذهبت إلى مكتبٍ مختصٍ في الجامعة يُدعى (مكتب السكن الخارجي للطلبة الأجانب) وهناك سجلت اسمي، واسم الحي الذي أود السكن فيه، وفي اليوم التالي عُرِضَ عليّ ثلاثة خياراتٍ، كان أفضلها الاستئجار لدى السيدة، وإنْ كان مسكنهم أقرب إلى السكن الريفي منه إلى سكن المدينة، وهذا المشروع برمته يُدعى (مشروع مساعدة الطلبة الأجانب في

الانخراط بالمجتمع الألماني وتعلم لغته) ما لفت انتباهي، أنهم كانوا يعرفون كلّ شيء عني قبل وصولي (اسمي، عمري، جنسيتي، وحالتي المادية) وكم كانت سعادتهم عارمة! عندما فاجأتهم بتقديم هدايا صغيرة لكلّ واحدةٍ منهن (الأم والابنتين) هدايا عبارة عن شال، وقُبعة، وقفازات من الصوف الخالص، ولقد لُصق عليها لصاقة مكتوبٌ فيها باللغة الألمانية لتحديد كمية الصوف الداخل في صناعتها، وطريقة الغسل، وبلد المنشأ المعروف طبعاً من خلال العلم الصغير المدروز بمتانة عالية، للجمهورية العربية السورية! اشتريت هذه الهدايا قبل مغادرتي المدينة، وذلك من أرقى المحلات التي تبيع مستوردات المصنوعات السورية المكونة من (القطن والصوف) تأسفت كثيراً! إذ لا وجود في بلادنا لمثل هذه الهدايا المتوفرة هنا بكثرة، وبأسعار مضاهية للكثير من مستوردات الدول الكبرى، دهشة العائلة كانت أكبر مما تصورتْ، ولقد قال لي ترجمةً أحد الطلبة السوريين ممن رافقني زيارتي الأولى هذه: أنهم يعتبرون هذه الهدايا بمثابة فأل خيرٍ، وبأنني اكتسحت على الفور نصف العلامات المقرر وضعها في إضبارتي!.

شيءٌ غريب هذا التنظيم الموجود، فأنت خاضعٌ في كلّ لحظة من اللحظات التي تحياها في ألمانيا لاختباراتٍ، ولعلامات توضع في إضبارتك المخصصة، وفي حال لم تستوفِ العلامات المقرر حصولك عليها، فأنت بحكم الراسب! وبالتالي تخرج من المسابقة، وفي مثل حالتي فأنا أمام اختبارٍ تُرفع علاماته بشكلٍ شهري، ودوري إلى إدارة المكتب الذي حدثتكم عنه، وفي المرّة التي سأرسب بها فسأعتبر نفسي خارج البيت، وربما خارج السكن الجامعي، هذه المعرفة بوجود هكذا اختبارات لم تكن لتغيّر من طبعي شيئاً، فأنا لم آتِ إلى هنا لأعيش سنوات الدراسة ممثلاً أو مرتدياً عدداً غير منتاهٍ من الأقنعة.

شهرٌ واحد لم يكن لي القدرة فيه لمعرفة ما يدور من نقاشاتٍ بين الأم وابنتيها أو بين الابنتين على انفراد، وعلى الرغم من أني كنت أبدو كالأطرش في الزفة، إلا أنّ عيوني كانت ترصد، وتتفحص بدقة عالية حركات شفاههم، واصطكاك أسنانهم، وتوتر أصابعهم، واتجاه نظراتهم، ولقد تبين لي أنّ علاقة الأم بالصغيرة كانت مريحة جداً مقارنةً بعلاقتها مع ايفا! ومع أنني لم أتمكن من معرفة السبب إلا أنني ألمح في الكثير من نقاشاتهم

زج اسمي أو توجيه أصابع السبابة باتجاهي**!** دون أنْ تُفسر لي أحداهن ما خصني في مواضيعهم**!** أو كيف تسلل اسمي إلى نقاشاتهم الحادة**!**؟ كان عليّ أن أتقيد بمواعيد طعامهم، وبطريقة أكلهم، وبالكمية غير المشبعة بالنسبة لشاب عربي، وحركي، ولا يسعى لعمل **(**ريجيم**)** لخصره، وهذا ما كان يضطرني في كلّ يوم لشراء سندويشة همبرغر أو أكثر، والتزود بالكثير من المعلبات البقولية في الغرفة المخصصة لي حيث ألتهمها أيام الآحاد، والعطل الرسمية**.** على كلّ حال ستة أشهر كانت كافية لمهتمٍ مثلي أنْ يُتقن اللغة الألمانية نطقاً، وكتابةً، وحفظاً لقواعد الكلام ولتصاريف اللغة، وأكثر من ذلك فلقد بدوت، وكأنني ألماني الولادة، وذلك من خلال إتباعي لموضة اللباس، ولحلاقة شعر الرأس، ولتقيدي بالكثير من عاداتهم، اللهم باستثناء عادة الحرص حيث بهرت –بكرمي **-** العائلة التي أغدقتْ عليّ الكثير من الحب، والود، والثقة التي وصلت إلى حد مناقشتهم أمامي لأمورٍ نعتبرها نحن العرب أموراً خطيرة، ومحظورٌ خروجها خارج جدران البيت العائلي**!** أمورٌ قد توصل إلى **(**سكين الشرف**).**

لبرهةٍ صغيرة، هالني الموضوع المفتوح أمامي على بساطٍ أحمدي**!** ولكنني بحرفيةٍ عالية المستوى، أظهرت على ملامحي مظاهر تقبّله، وكأنه شبه عادي، وأني قابلٌ لأكون طرفاً مشاركاً، وأساسياً في متابعة الحديث أو الحدث، واسميه كذلك، لأنّ ما سمعته من كِلا الطرفين كان غريباً إلى درجةٍ لم أكن أتصور حدوثه إلا في الأفلام المصرية كأفلام الفنان الكبير **(**عادل إمام**).**

واختصاراً للنقاشات الطويلة، فأنا أوجز ما فهمته الآن، وكنت سابقاً لا أفهم مقصدهم رغم فهمي بأن اسمي زُجَّ فيه عن قصد أو عن غير قصد، وملخصه أنّ السيدة كانت تعاني من العقلية شبه الشرقية لابنتها الكبيرة ايفا، وذلك لأنها لم تتمكن من زج نفسها كبقية بنات جيلها في صخب المراهقة، فلا صديقَ خاصاً تنفرد معه في أيّ مكانٍ يؤجج فيهما ثورة الهيجان والغريزة، ولا أصحاب تجتمع معهم في حفلات الصخب مدرسيّة المنشأ أو اجتماعية كحفلات **(**أعياد الميلاد الشخصية أو عيد الكرسميس**)** وبعد محاولات كثيرة لجذبها إلى هذا الخطّ المعتاد لدى جميع الفتيات الأوربيات، خشيتْ الأم

أنْ تكون ابنتها مُصابة بمرضٍ نفسي ما، أو عقدة ما من العقد الكثيرة التي تُصاب بها فتيات الشرق، ولما أبتْ ايفا عرضها على طبيبٍ نفساني لم تجد الأم أمامها من حلٍ إلا بجلب شابٍ شرقي متحضر، وما من وسيلة بأفضل من تسجيل بيتها ضمن البيوت المستعدة لاستقبال طالبٍ أجنبي شرقي عموماً وسوري حصرياً، لما يمتاز به السوريون من حضارةٍ، وعلمانية، وجاذبية على مستوى العالم، وحتمت المصادفة أنْ أكون أنا ذلك الشاب، ولأنني لم أكن في البدء متفهماً للغة الألمانية، فلقد تركت السيدة الأمر للخلطة الطبيعية، ولمسار الشهوة العارمة التي تحكم أعمارنا، وتسوقها كما تريد السيدة بل وأكثر.

المشكلة كانت أنني انخرطت في هذه العائلة إلى درجةٍ بدوت فيها كأخٍ لا كمستغلٍ! وايفا على وجه الخصوص احترمتني، وتعاملت معي على هذا الأساس، فكانت تتقصد اصطحابي إلى بعض المواقع القريبة بهدف تعليمي أكبر قدرٍ ممكن من المصطلحات، وأنا لم يخطر في بالي مبادلتها بما يدور في رأس الأم أبداً، ومع ذلك فهي لم تضع في تقريرها الشهري أيّ تقدير سيء! لأنها ارتاحت نوعاً ما للتغيير الإيجابي في الحالة

النفسية لابنتها، وإنْ لم تكن وصلت بأي شكلٍ للمرحلة التي كانت تحياها ريتا الصغيرة، والمشاغبة، والتي لم تكن بحاجة لأيّ من نصائح أمها بما يخص علاقاتها الخارجية.

الأب الذي تعرّفت عليه بعد ستة أشهر من قدومي، منظره الخارجي لم يدل في أي حالٍ على الصورة الموقرة التي رسمتها له في ذهني كقبطانٍ في أعالي البحار! والأسوأ من ذلك طريقة تفكيره السخيفة، والتي ظهرت من خلال أسئلته الوقحة لي عن زائري البيت (أسمائهم، صفاتهم، مونتهم، بقائهم أو مدة بقائهم) في البداية منحني شعوراً ودياً، ولكن إجاباتي التي لم تعطه حقاً أو باطلاً، غيرّتْ رويداً رويداً من هذا الود حتى وصلنا إلى مرحلةٍ اعتبر فيها كلّ واحد الآخر غريباً، وهذا الأمر لم يخفف أو يُدني من مستوى الرسمية التي يتعامل بها الشعب الألماني بشكلٍ عام فيما بينهم، وبشكلٍ خاص مع الأجانب.

شهرٌ واحد قضاه معنا، تبين لي فيه عمق الهوة في علاقته مع زوجته، وبالمقابل كانت أبويته الممتلئة حناناً، وعطفاً مثالاً ليقتدي بها أيّ أبٍ في العالم! وأنا أصدقكم القول بأنه عوّض في هذا الشهر غياباً عن سنةٍ كاملة لا عن ستة أشهر فقط، وما

حزَّ في قلبي يوم مغادرته أنه استأذنني لخمس دقائق مشيناها في حديقة المنزل، تأبط كتفيّ بذراعه كما لو كنت ولده وراح يوصيني بأهل بيته ويتوسطني لدى زوجته لتعفو عنه للمّ شمل العائلة من جديد ثم أخبرني بسرٍّ فاجأني وأدهشني! وبالحرف الواحد، قال لي:

- تبدو لي أنك شابٌ جذّاب إلى درجةٍ استطعت فيها جذب ابنتنا ايفا إليك، انتبه إليها جيداً، وإلى علاقتها معك، لن أسامحك إذا ما حدث لها شيء سيّئ، حتى لو لم تكن أنت سببه، ايفا أمانتي لديك، هي أكثر شيءٍ يجعلني أتمسك بالحياة، ولولاها لكنت الآن منتحراً، أنا أعرف طبائع أغلب شعوب العالم، وأنتم كسوريين تنفردون بطبعٍ لم آلفه لدى غيركم، أتعرف ما هو؟ إنه الأمانة، وأقصد على الجنس اللطيف، لن أوصيك أن تعاملها كأخٍ، ولكن لا تكسر مشاعرها، وحاول ألا تُخيّب إحساسها بك وبصدقك، إنها فتاةٌ طيبة، وحنون، وذكية، وفوق كلّ ذلك، أعتقد أنها تحبك أو تحب معاملتك لها، يوماً ما سأعود، فإن كان ذلك، سأعدّك ولداً لي، وإن كان العكس، فسأنتقم منك مهما حاولت الاختباء والفرار، اسمع

يا صديقي هناك مثل عربي يقول: (القبطان صديق العفاريت) أنت تفهم عليّ ما أقصده، صحيح؟.

نظرت إلى عينيه المحدقتين بحزمٍ، وأجبته:

- تبدو لي يا حضرة القبطان واسع الاطلاع، ومحيطاً بكل الأحداث التي تجري في البيت وخارجه، وأعتقد أنه فاتك شيءٌ واحد فقط لا غير أننا، نحن السوريين، نعمل بما يُمليه علينا ضميرنا، وشعورنا الإنساني، ولا نخضع لأي ضغوطٍ خارجية، وما تراني عليه لم يكن بسبب وجودك، وإنما طبعٌ لا أغيّره، ولا يعنيني بذلك سواء كنتَ مقيماً هنا أم على سفينتك، مع أصدقائك العفاريت.

أوقفني قُبالته، ثمّ ألقى كفيّه على كتفيّ، وشدّ عليهما بقوة، وقال:

- أنت سوري حقيقي، ووجودك هنا دلالة قاطعة على حسن اختيار زوجتي، وعلى حسن قراري بالرجوع إلى أجواء العائلة، أنا أعتمد عليك.. اتفقنا؟.

قلت له: اتفقنا، فشدني إلى حضنه بقوة، ومسح شعري ليعبر لي عن متانة صداقته المستقبلية لي، مع أنّ هذا التصرف

غير مستحب بين الألمان، ولكنني أعتقده فعل ذلك لأنني أدخلته وأدخلت عقله الباطن في الأجواء العربية السورية.

على سيرة عقله الباطن، سُمحَ لي بعد إجرائي اختبار اللغة السابق لأوانه المداومة في قاعة الكلية الطبية حيث يدرس الطالب سنة الطالب سنة كاملة، وبعدها يُحدد له إذا ما كان سيدرس الطب البشري باختصاصاته أو طب الأسنان أو الصيدلة. وكان عليّ أن استجمع كلّ المعلومات المأخوذة قبل مداومتي بستة أشهر، ولا أنكر ما فعلته ايفا لي في هذه المرحلة إذ إنها وجدت لي حلاً سريعاً باستخدام الانترنيت، وانشغلت بسحب كلّ الدروس، وطبعها على الورق، لأنني لم أكن معتاداً على الدراسة الحاسوبية، وعلى الرغم من الدراسة المتراكمة عليها فعلت ذلك كله من أجلي! إذ إنها في الصف الذي يمنح الشهادة الثانوية المؤهلة لدخولها الجامعة، الجميل في الأمر أنّ كلينا حصل على تفوق مقرون بشهادةٍ امتياز، وهذا الأمر كان كفيلاً بإسعاد الأم إلى الدرجة التي جعلتها تُقبّلني وعلى مرأى من جميع الحضور في حفلة أقامتها خصيصاً لهذه المناسبة! رقصت معي، وشربت كأسها معي، وفي النهاية قبّلتني وسط

تصفيق منقطع النظير للجميع! وكأننا عروسان، حتى ايفا ضحكت من كلّ قلبها، وهي تضع يدها الناعمة على فمها لأنها الوحيدة التي عرفت تفسير نظرتي التي جالت على المصفقين، ومفادها أو تفسيرها (صفقوا أيها البلهاء السكارى...).

مع بداية السنة الدراسية الجديدة، ذهبت مع ايفا إلى الجامعة، هي كانت تحلم أن تدرس قسم الصحافة في كلية الإعلام، وأنا إلى كلية الأمراض النفسية في كلية الطب البشري، طبعا اختياري كان صاعقاً لكلّ من حولي، أهلي في سورية أرسلوا الكثير من الرسائل التي يرجونني من خلالها تغيير هذا الاختصاص، وحاول أبي ببعض مكالماته الضغط عليّ بحجة أنه أرسلني لأكون له عوناً طبياً في آخر أيامه، وضرب لي أمثلة كثيرة، وخاطبني بنبرةٍ شرقية ملؤها التهديد، والوعيد، والتبرؤ! ولكنني لم أنصع لأيّ من هذه الضغوطات، وتابعت دراستي بهمةٍ عالية، لم تكن الكتب الجامعية مهمة بالنسبة لي بذات القدر الذي كانت عليه المراجع الطبية المهتمة بهذا الاختصاص، والمتواجدة بوفرة في مكتبة الكلية أو على شبكة الانترنيت، وأود أن أذكر إنّ هذا الاهتمام لم يكن

ليسرقني من جويّ العائلي الجديد، فما زال لجلسة الصباح الشرقية مع فنجان القهوة ذات البريق، وما زال لمشواري الريفي مع ايفا ذات القداسة، وطبعاً علاقتي مع ريتا هي هي لم تتغير، قريبان في الود والمحبة إلى درجةٍ خياليّة، وبعيدان في الفكر والتصرّف إلى أبعد درجة! أما علاقتي مع الأم ففي ذات الدائرة، أعرف الكثير من أسرارها وأكتمها، وتسمع الكثير من نصائحي وترفضها، بكت أمامي كثيراً من كثرة ما كان ضميرها يُعذبها، وعادت مراراً وتكراراً إلى تنفيذ خطاياها ضاحكةً ساخرةً من الأيام التي تحاول سرقة شبابها، أما الأب الذي تعامل معي ـ كما وعد ـ كولدٍ من أولاده أو على الأقل رجلاً لرجل، فلقد سرقته عفاريت البحر، وبالكاد يزور بيته في كلّ ثلاثة أشهر أو أربعة لمدّة أسبوعٍ واحد، ويرحل!.

لم تصارحني ايفا بحبها ولا مرة! حياؤها كان أقوى من تربيتها! وقيود عواطفها كانت أمتن من مطرقة العادات الألمانية المنفتحة على كلّ شيء! وأنا أدركت ذلك، وتعاملت معه وكأنه أمرٌ اعتيادي، لم يخطر في بالي أبداً استغلال رجفة أصابعها عندما أمسك يدها، ونحن ذاهبان صباحاً إلى الجامعة

أو استغلال نبضات قلبها المتسارعة عندما أقبّل وجنتيها في لقائنا بعد الانتهاء من يوم دراسي شاق.

الطلبة العرب، -وخاصة الذكور- ظنوا أني أساكنها، وعلى هذا تراكم حسدهم، متناسين تفوقيّ، متجاهلين شيئاً ما اسمه الغيرة الدراسية، أما الطلبة الألمان -وخاصة الإناث- فلقد حسدوا ايفا على هذه العلاقة الرومانسية الرائعة، والتي تحلم بها كلّ فتاةٍ غربية، وكأنني الفارس النبيل الذي ينتظر حبيبته على حصانٍ أبيض لينقلها إلى كوكبٍ لا يسكنه أحدٌ غيرهما! مع أنّ تصرفاتي أمامهن لم تقفز الحدود الرومانسية الخفيفة أبداً، ولكنهم على ما يبدو كانوا أكثر ذكاءً من كلّ الطلبة فلاحظوا اللهفة في عيني للقائها، ولاحظوا اهتمامي بها من خلال الهدايا شبه اليومية من الألعاب الصغيرة أو الورود أو قطع الحلوى (الشوكلا) التي كنتُ أفاجئها بها في كلّ لقاءٍ مسائي، ونحن عائدان من الجامعة.

ايفا كانت فخورة جداً بهذه العلاقة، وأعتقد أنها أسرّت بها لكثير من صديقاتها على عكسي أنا، حيث لم أسمح بذكر سيرتها،

ربما هي غيرتي الشرقية، وربما لأن افتخاري لم يكن على النحو الكلامي، وإنما كان افتخاراً بقدرتي على التعايش مع أصعب الحالات النفسية في المجتمع الأوربي أو لافتخاري بتحقيق السعادة المتجددة لأقرب المقربين إلى قلبي.

مع اقتراب نهاية السنة الدراسية الثانية، وكنت قد حققت شهرة عارمة في القسم، أدرك فيها الكادر التدريسي سعة مطالعاتي من خلال النقاشات الممتلئة بالنظريات، والأمثلة، والأسماء غير المعروفة حتى بالنسبة لطلاب السنة الرابعة، وهذا ما دعا أحد رؤساء القسم لاستدعائي إلى مكتبه، ولإجراء مقابلة ظاهرها تكريمي، وباطنها اختبار وكشف لكمية المعلومات المُستوعبة في الذهن، ومدى رسوخها وثباتها، وهل هي ناتجة فعلاً كما يعتقدون عن اهتمامٍ شخصي أم عن حب التفوق، والحصول على شهادة! والفرق واضح كما قال في نهاية لقائنا بمثل صغير: (إن كنت تريد اجتياز جبلٍ للوصول إلى الجهة الثانية وحسب فلن تتذكر عند وصولك إلا التعب والعذاب، أما إذا أردت قطعه كنزهة جبلية وهواية تسلق، فسيبقى في ذهنك منظر كلّ حبة تراب، وكلّ شكل لأيّة حصاة أو صخرة أو زهرة، وأول ما ستنساه هو التعب والعذاب).

صافحني في نهاية اللقاء، وقال لي: (أمامك عطلة جيدة استمتع بها كما تشاء لأنك ستدرس في السنة القادمة بشكلٍ مضاعف، سأرشح اسمك لجمع سنتين بسنة واحدة).

وبالفعل حدث ذلك على الرغم من مقاومة كثير من أعضاء الكادر التدريسي! ولاسيما الدكتور الأكثر شهرة في الجامعة وهو (د. ديفيد كيم لو) يهودي متطرّف، ألماني الولادة، إسرائيلي الهوى، ولقد كتب في اعتراضه ما آلمني حتى اضطرني للإجابة العفوية، والتي أفحمته بها فخرج من قاعة الترشيح وسط إعجاب البقية بردّي الذي جعلهم يتسابقون للتوقيع على هذا القرار الذي أصبحت بموجبه طالباً في السنة الثانية والثالثة معاً، وكيلا يستغرب أحدٌ من عائلتي الألمانية وجهي الغريب الملامح، فلقد فسّرتُ لهم هذه التعابير، وقصصت عليهم ما حدث معي بالحرف الواحد، وكيف وقف «الدكتور ديفيد» ليقرأ اعتراضه أمام جميع أعضاء اللجنة المُقرر حضورهم اختبار الترشيح، وقال:

- أيها السادة، كم سيبدو غريباً ومُعيباً، أنْ توافق اللجنة على منح طالبٍ عربي بوجهٍ عام، وسوري بوجهٍ خاص وتعلن

موافقتها على دراسة سنتين بسنة واحدة، نحن بذلك نَشِمُ أنفسنا بوشم الغباء! إذ إنّ التاريخ والحاضر حافلان بآلاف القصص التي ترسم لنا العربي على أنه شخصٌ مادي لا يحفل بحاجات النفس وآلامها، ولو كان مرشحاً عن كلية الاقتصاد أو كلية هندسة البترول لكنت ربما وافقت، إنما وهو مرشحٌ عن كليةٍ تُدرس علم النفس فموافقتي هذه ستكون بمنزلة نقطة سوداء أرتكبها بحق جامعتي، وبلدي، وعلمي، ونفسي، ولذلك أنا أعترض، وشكراً.

بنهاية كلامه رفعت كفي بإشارة الاعتراض والمُداخلة كردٍ، فأومأ رئيس اللجنة لي سامحاً بالرد، فقلت بلغة الواثق المتهكم:

- أيها السادة، أنا أحترم ما قاله «الدكتور ديفيد» هذا رأيه وعليّ أنْ أتقبّله وإنْ كان ثقيل الوقع على نفسي، ولكن أحب أنْ أذكّره ببعض الأشياء التي تناساها عامداً متعمداً، وأول هذه الأشياء أنه مدرس لمادة تاريخ علم النفس هذه المادة المعتمدة بشكلٍ أساسي على ما ألفه الشيخ الرئيس(ابن سينا) وهو عربيٌ ابن عربي ولقد ولد في «بخارى» عندما كانت الدولة العربية تمتد من الأندلس في اسبانيا إلى الصين، وعلى سيرة الأندلس

العربية أود تذكيره بأنّ أجدادي العرب بنوا فيها أول (بيمارستان) للعناية بالمرضى المصابين بالأمراض النفسية، والعقلية، وحينها كان أجداده الأوربيون -إنْ كان يعترف بهم- يعتقدون بوجود شياطين شريرة تسكن رؤوسهم، وكانت قمة التدواي ضربهم بالعصيّ الغليظة ضرباً مبرحاً على رؤوسهم مباشرةً حتى يفقد المريض وعيه! ويقع مغشيّاً عليه، ليظنّ أطباؤه أنهم بذلك طردوا الشيطان، هذا تاريخياً أمّا في العصر الذي سبق التاريخ المعروف لديه فأحبُّ أنْ أضيف له معلومةً هي في غاية الأهمية، ويعتمد عليها الكثير من أشهر أطباء الأمراض النفسية في العالم، وهي التداوي بالموسيقا، وأود لو يستطيع إجابتي هل يعرف من اخترع أول نوتةٍ موسيقيةٍ في العالم؟ أنهم أجدادي يا دكتور... أجدادي السوريون والذي تجد حضرتك عيباً وغباءً في منح حفيدهم موافقتك! وآخر شيءٍ أتمنى أنْ أسألك إياه ألا تعتقد أنّ الشعب السوري الحالي _ والذي أنا منه _ أصحّ الناس نفسياً حتى أنّ المناعة النفسية لدينا أقوى من مثيلاتها عند الشعب الأوربي وإن أردت مثالاً فهو جاهز، نحن لم تسيطر علينا أيّ فوبيا من

فوبيات الاعتراف! ولو ناقشت أيّ مواطن سوري لا على التعيين، ما رأيك في التواجد الأمريكي على أرض العراق لأجابك: أنهم محتلون وغاصبون وعلينا قتالهم حتى إجلائهم وإجلاء هيمنتهم السياسة والاقتصادية عن كلّ أرض عربية أو غير عربية، هو يقول هذا والتواجد الأمريكي على مرمى حجر! فهل أستطيع أن أجد أي أوربي لا تسيطر عليه هذه الفوبيا الأمريكية!؟ وكيلا أضغط كثيراً إذ سيفتح الأوربي فمه ويقول (أمريكيا) أنا أطلب أن يجيبني أي أوربي عن حقيقة مشاعره، وعن حقيقة حالته النفسية تُجاه ما يرى على شاشات التلفاز من قيام الإسرائيليين باعتقالاتٍ كثيرة تتضمنها تكسير العظام بالحجارة، وجرّ المعتقل على الأرض، وقتل الأطفال، وإنْ كانت الذاكرة لا تساعد فصورة (محمد الدرة) المختبئ خلف أبيه ربما تساهم في إحياء ذاكرة المرهوبين نفسياً والمصابين بفوبيا إسرائيل، وهي على بعد مئات الكيلو مترات أو ربما آلاف من حدودهم، وشكراً.

نال حديثي ضمن العائلة الإعجاب الذي ناله في قاعة الترشيح، ولقد علمت تبعاً أنّ ايفا كتبت في اختبار مادة المقالة

الأدبية مقالاً طويلاً تحدثت فيه عن اعتراضي، وأنها نالت على ذلك أعلى علامة بين كلّ منافسيها.

لم يفرض عليّ هذا التحدي أيّ تغيّر جذري في طريقة عيشي أو تغيير أولوياتي، ربما زادت ساعات الدراسة أو المطالعة ساعة واحدة، ولكنها لم تكن على حساب الجو العائلي أو على حساب مشواري مع ايفا الذي غدا مشواراً شبه يومي! ولأيّة حجةٍ كانت، المهم ألا يراقب أحد نظراتنا المليئة عشقاً، وولهاً وحباً، وألفةً. وعلى الرغم من أنني لا أزيد ايفا في العمر أكثر من سنتين إلا أنني أشعر، وأنا أتمشى معها بأني أزيدها ما لا يقل عن عشرين عاماً! وأنها مقارنةً بي ليست أكثر من طفلة مُحببة إلى قلبي، وعليّ دائماً إرضاؤها، وإنْ كان هذا الإرضاء على حسابي، وحساب دراستي، وحساب كلّ شيءٍ في هذا الكون.

- عليّ أنْ أعترف أني أحبكِّ يا ايفا.

هكذا قلت لها من دون مقدمات! ولحظتها شدّت أصابع يدها الممسكة بأصابعي، نظرت إلى عينيّ مباشرةً، مرّت أجزاءٌ

من الثانية لم أعرف فيه أيّة ترجمة أو تفسير لهذه النظرة ثمّ انجلى كلّ شيء عندما ابتسمت، وردتْ عليّ:

- طبيعي أنْ أكون سعيدة بهذا الاعتراف، ولكن هذا لن يضيف شيئاً! أنا أعرف ذلك لأنني أسأل قلبي دائماً عن مدى حبّه لك ثم أنّ الجميع يعرف أيضاً في الجامعة، وفي البيت، ألم تلاحظ هدوء أمي النسبي قياساً بالأيام الأولى لمجيئك؟.

- نعم، وهل تعتقد أمك أنّ شيئاً ما قد حصل بيننا؟ أنتِ تفهمين قصدي؟.

- ومن قال لك أنّ غايتها الأولى حدوث ذلك؟ أمي تريد أنْ تصرف نظرنا عنها، لا شيء يشعرها بعذاب الضمير أكثر من نظراتي المزرية لها عندما تعود من سهراتها وهي تترنح من السكرِ، واللذة.

- نعم نعم هذا يُسمى في علم النفس(تعويم الخطيئة) وذلك ليصبح فعلها عادياً جداً فلا تشعر معه بأيّ تأنيبٍ أو حرجٍ سواء منكِ أم من غيرك.. دعينا من ذلك؟ قلت لك أنا أحبكِ فبمَ تجيبين؟.

- سأجيبك كما تجيب أيّة فتاة شرقية: **(وأنا أموت فيك).**

نجحت في التحدي الكبير وكنت عند حسن ظن الدكتور الذي رشحني ونلت المركز الأول على طلاب السنة الثانية والمركز الأول على طلاب السنة الثالثة وذلك بحصولي على أعلى العلامات في جميع المقررات حتى المُقرر الذي يُدرسه الدكتور ديفيد كان لي فيه العلامة العليا وأذكر أنه أوقفني مرّة في الممر وقال لي:

- أحسنت أيها السوري لقد تفوقت على ذاتك ولكن اذكر مني هذه الجملة جولة واحدة لا تعني معركة كاملة، الميدان الحقيقي سيكون في السنة الرابعة فهل تقبل أن تتحداني لأكون مشرفاً عليك فيها؟.

فأجبته دون خوف مع علمي المسبق أنها سنة الممارسة العملية، والتي تقرر كلّ شيءٍ بعدها:

- أنا احترم منك هذا الطلب، وإنْ كنتَ ستتصرف معي بأخلاقيات العمل التدريسي كما فعلت في السنة الماضية، فليكن هذا التحدي.

عندما أخبرتُ ايفا تبسمت، ومازحتني ناصحةً لي:

- حبيبي، يقولون في ألمانيا: تعامل مع اليهودي كيفما تشاء، ولأيّة مدّة تشاء، ولكن تذكر في كلّ لحظة أنه يهودي، ويقولون أيضاً: إنّ الفرق بين اليهودي الجيد واليهودي السيئ أنّ الأول يكرهنا كثيراً، أما الثاني فيكرهنا أكثر منه.

- ربما يكون هذا صحيحاً عند كلّ شعوب العالم، ولكن ما يهمني هو أخلاقيات العلم، ولقد تعامل بها معي في مقررات السنة الثانية والثالثة.

- أتمنى أنْ يتابع، وتذكر دائماً أنك من قبلت التحدي، وتذكر المثل القائل:(قبل أنْ تدوس في الوحل تأكد أنك ترتدي الجزمة أو الحذاء المتين).

بدأت السنة، وبناءً على موافقتي وموافقة الدكتور (ديفيد) تمّ فرزي إلى مشفى قريب من الجامعة، خُصص فيه جناح لمداواة الجنود القادمين من حرب العراق، لم أكن أعرف أنّ ألمانيا أرسلت جنوداً إلى العراق! لأنني أظن أنّ الحكومة الألمانية لم توافق على هذا التدّخل السافر، قلت في نفسي هذه

عوالم السياسة، ولا دخل لي فيها، ما أمامي هو مرضى، ولا يهمني إذا ما كانوا جنوداً أو مرتزقة (ألمان) أو غير ذلك، المهم أن أقوم بواجبي المهني ُتجاه نفسي وتُجاههم.

ألزمتني إدارة المشفى بالمبيت أربعة أيام متتالية كلّ أسبوع، وكتابة تقرير مُفصل عن تطور كل حالة من الحالات المُسلمة لي بشكل أسبوعي، يوم واحد فقط من هذه الأيام، كنت أقضي نهاره وأنا أشرح للدكتور ديفيد عن كلّ حالة، لا أعرف ما كان يسجله في مفكرته الصغيرة، عشر حالاتٍ لم يكن بالسهل دراستها، والتماهي معها، ولذلك اعتبرت نفسي الحالة الحادية عشرة، وتعاملت معهم في البدء على أنني واحد منهم مع فارقٍ وحيد هو أنني كنت ارتدي (الروب الأبيض).

ثلاث من هذه الحالات كانت مستعصية، والباقي بين المألوفة والمتوسطة، وهم المجموعة التي أكلتُ معهم، وجالستهم وحاورتهم كثيراً، وتجاسرت على النوم في مهاجعهم، كنت أتوقع أنْ أتمكن من إعانة أهلي في هذه المرحلة، ولكن الذي حدث كان عكس ذلك حتى أنني كنت أضطر للاستدانة، وذلك لأنني

ارتأيت أن أشغل مرضاي بأيّ شكل، فاشتريت لأحدهم الأدوات الرياضية الخاصة بلاعبي الأثقال، واشتريت للثاني كثيراً من الكرات الرياضية (كرات السلة) وللثالث كثيراً من الروايات، وللرابع - وهو المريض الذي شكّل العبء الأكبر من المصاريف - فلقد اشتريت له كلّ ما يلزم ليكون فناناً تشكيلاً، الألوان والريشات المتعددة القياسات، واللوحات الكرتونية مع الطاولة الخاصة لذلك، حتى «الروب» والقبعة، والأكمام التي تحمي ما تحتها من الاتساخ لم أبخل بها، والمشكلة أنه كان يرسم، ويرسم وقبل نهاية اللوحة يُمزق ويسكب الألوان فوق بعضها، ويكسر الطاولة، ويجلس ليبكي طويلاً! أما الخامس فقد اشتريت له مسجلة مع سماعات(ويك مان) وأكثر من مئة قرص (cd) لأشهر أوركسترات العالم، وأشهر الملحنين، والعازفين والأوبراليين، والسادس اشتريت له العديد من الألعاب التي يتحكم بها بالكنترول، وأهم هذه الألعاب كانت الطائرة التي أرهقتني من شراء البطاريات، أما السابع فقد اشتريت له كاميرا عالية الدّقة للتصوير الفوتوغرافي، وهذا أيضاً أرهق طاقتي المادية من كثرة ما كان

يرسل معي الأفلام أو (كروت) الذاكرة لتحميض الصور الملتقطة، ومع كلّ واحد كنت أمارس هوايته، فتدربت على حمل الأثقال، ولعبت كرة السلة، وقرأت الكثير من الروايات، ورسمتُ بشكلٍ عشوائي مالا أعرف معناه، وقضيتُ وقتاً ممتعاً مع الألعاب، واستمعت لأرقى أنواع الموسيقا، وتعلمت السرّ الجميل في التقاط الصور، ومع كلّ هؤلاء كنت أتحدّث عن الحرب والسلم، عن الصواب والخطأ، عن الحق والباطل، عن الحقيقة والوهم، عن التوبة والمُعاندة، عن العقل والقلب، عن المرض والطب، وعنهم وعني، أمازحهم حتى الدرجة التي يشعرون بها أنني مثلهم! وأخاطبهم كصديق (حوارات ونقاشات وأراء) وأوجههم كطبيبٍ مُتمرسٍ، تقيدوا معه بكلّ نصيحةٍ، والتزموا بتناول الأدوية، وأحبوني إذا لم يكنْ أكثر من محبتهم لزائريهم فمثلهم، وتآلفوا معي، وأسرّوا لي بأسرارهم، وأفرغوا عن أنفسهم ما حاولوا حذفه من ذاكرتهم، وعادوا معي تدريجياً إلى الأعمار التي بدأت فيها ذاكرتهم بالتسجيل والحفظ، وهنا تمكنت من إصابة هدفي، فتعاملت مع كلّ واحدٍ فيهم على حدة، حتى أوصلتهم إلى بر الأمان، وكنت أسجل

كلّ ذلك في مفكرتي الطبية، حيث خصصت لكلّ واحدٍ منهم قسماً، هذا عدا عن تسجيل محادثاتي معهم على أجهزةٍ خاصة من أول حرف إلى أخر حرف، وبقدر حماسي وفرحتي بتسجيل ما أسميته انتصارات، كانت الابتسامة الباهتة للدكتور المشرف تحبطني، وأكثر من ذلك كانت كلماته، وجمله أثناء لقاءاتي المتكررة مع الحالات الثلاث تستفزني بشكلٍ أشعر معه أنه لا يقصد مداواة المريض وإنما يبذل قصارى جهده لاستفزازي! كما حدث في حالة المريض الصامت، والتي أعتبرها أصعب حالةٍ يمكن أنْ تمرّ على طبيبٍ نفساني، إذ إنه قال في إحدى جمله وهو يخاطبه:

- اسمع، أنا أعرف أنّ صمتك هو عبارة عن رد فعلٍ قمتَ به، وأنك تعتبره فعلاً لا يليق بطبعك أو لا يليق بإنسانيتك، ولكن لو سألت نفسك بشكلٍ منطقي هل أفعالك هذه التي قمت بها في العراق غير لائقة أو غير واجبة؟ لحصلت على إجابة منطقية، وهي أنك قمت بكلّ ما يمليه ضميرك، وواجبك العسكري والإنساني، عندما قتلت أيّ عربي إرهابي سواء أكان واحداً أم مجموعة ـ وبغض النظرـ فأنت قتلت،

وانتهى الأمر، فهل تسعى لقتل نفسك؟ أنا هنا لأقول لك أنت لم ترتكب جريمة فلمَ تُعاقب نفسك بهذا الشكل؟.

أدار المريض وجهه عن الدكتور، فجلست قربه، وبدأت بمسح شعر رأسه من الخلف، وأنا أخاطبه، وعيناي لم تبرحا وجه الدكتور، ونظراته:

- اسمع يا صديقي، كلّ إنسان يُخطئ ولا يجوز تصحيح الخطأ بخطأ، فإن كان هذا العربي إرهابياً فأنت تصرفت بما يُرضي الرب والإنسانية جمعاء، أما إنْ كان هذا العربي طيباً مثلك فأنت ارتكبت خطأً غير مقصود، وسوف يسامحك الرب والناس، لأنك قتلته بالظن أو عن غير قصد كما يحدث في حوادث السيارات، وإنْ كنت تعرفه طيباً ومع ذلك قتلته، فهذا هو الخطأ الذي يُصحح بطلب المغفرة والسماح من الرب، ومن الناس، الرب يُسامح دائماً طيبيّ القلوب مثلك، أولئك هم أحباب الله، سامح نفسك، وستجد أنّ الله مُسامحك، فكر جيداً، لسنا هنا لنجعلك تتكلم بل لتعرف قلب الله، وحبه لك، وغفرانه لما فعلت، وطالما أنت بهذه الطيبة التي جعلتك تصمت، فأنت حبيب الله، والله لا يعاقب أحباءه.

شعر الدكتور أنّ كلامي يؤنبه أكثر مما يؤنب المريض، فأمرني بالانتقال إلى المريض الثاني، والذي يخشى اقتراب أيّ أحد منه! ويبدأ على الفور بوضع رأسه بين كفيه والصراخ:

- ابتعد عني.. أنا لا أريد أحداً.. ابتعد أرجوك.. أنا لم أفعل شيئاً.. ابتعد قبل أنْ أقتل نفسي.

نظر الدكتور إليّ نظرةً فسرّتُ معناها وكأنه يسألني (ومع هذا ماذا ستفعل؟) فأجبته: عندما تعود في المرّة القادمة ستعرف دكتور، وأشرتُ له بيدي أنْ تفضل لنتابع حالة المريض الثالث، ولقد وجدناه كما هي كلّ مرة يجلس، وكأنّه على شاطئ بحر، يدخن، يستمع لمن يجالسه لمدّة قليلة لا تتجاوز الدقيقتين أو ثلاث الدقائق ثمّ يضرب بقدميه كلّ شيء أمامه! الطاولة، وعلبة الماء، والسجائر، وهكذا فعل هذه المرة أيضاً، وعندما هدأ خاطبه الدكتور:

- أنت تفعل كما يفعل العربي الأحمق، يُثير الشغب كي يلفت انتباه الجميع إلى وجوده، الرجل لا يُعبّر عن شخصيته بهذه الطريقة عليك أنْ تجلس أمامي، وتناقشني رجلاً لرجل،

هنا ألمانيا، فلا تتصرف فيها كما لو أنك تتصرف في العراق، أشياء كثيرة تكون مقبولة في مكان ما، ولكنك لا تستطيع تعميم قبولها في كلّ الأماكن، عليك أن تتصرف كألماني على أرض ألمانية.

فأجابه المريض:

- وأنت عليك أنْ تتصرف كطبيبٍ مشرف لا كقائدٍ عسكري، أنا هنا أتصرف كما أشاء، أنتم قبلتم بي على أنني مجنون مع أنني غير ذلك، وأنا سأتصرف كالمجانين، أتفهم؟ لا أقبل أوامرك أيها القائد، وعليك الانصراف فوراً من أمامي.

تدخلت على الفور، وقلت له:

- صديقي، لمَ تفترض الأسوأ دائماً؟ لابد وأنك تستطيع تمييز الأمور أكثر من ذلك، لقد تجاوزت من العمر أكثر من خمس وأربعين سنة، ومثلك مؤهلٌ لقيادة أيّ تجمعٍ، لقد قرأت في إضبارتك كيف كنت تتصرف بذكاء مع كافة أصناف البشر الذين التقيت معهم، وخصوصاً في العراق، حتى أنك قبلت كثيراً عزائمهم على الطعام، وتحدثت معهم، وتجاوبت بشكلٍ

طيبٍ ولائقٍ مع أفعالهم الطيبة والحميدة على عكس الكثير من الجنود، ومثلك قادرٌ على أنْ يتجاوب معنا، نحن نريد أنْ نساعدك، وعليك أنْ تبادلنا هذا الفعل إيجابياً، من كان ذكياً في العراق عليه أن يكون ذكياً في ألمانيا، ومن كان حسن التصرّف في العراق عليه أنْ يكون كذلك في ألمانيا، أتمنى أنْ تساعدنا لنساعدك.

مضاعفة عملي في المشفى، ضايق ايفا، وخاصةً بعد أنْ ملأتُ الأيام المخصصة لراحتي بالتفكير بهذه الحالات الثلاث والتي أوصلتني إلى حالةٍ من الشرود، والهوس المتواصل. هذا عدا ما كنت أكابده من زيادةٍ في المصاريف حيث اشتريت شاشةً تلفزيونيةً كبيرة، ووضعتها في غرفة المريض الذي يرفض اقتراب أحدٍ منه، وأوصلتها مع جهاز فيديو ليشاهد الأفلام التي أضعها باستمرار، والتي أقطع إرسالها أو (بثها) بفاصلٍ أحدّثهُ فيه عبر كاميرات تبث صورنا مباشرةً وبالتبادل، ومرةً بعد مرةٍ صار يتجاوب معي ويسألني عبر الشاشة، فأجيبه بهدوء إلى أن سمحَ لي بالاقتراب منه ومحادثته وتسليته، والمريض الصامت يتابعني بنظراته كيفما تحركت، ويحاول أنْ

يخاطبني، ويحرك أصبعه باتجاهي، وأنا ابتسم في وجهه، وأمنحه بعينيّ قوة إضافية لمحاولاته المستمرة، والتي أنتجت بفضل الله وصبري أنْ نطق أخيراً، ونطق كثيراً، لقد كان أكثرهم ألماً! وأنا أعرف سبب ذلك، وتيقنت من حدسي عندما قدمت له مجموعة أقلامٍ، وأوراق ليكتب كما كان يفعل قبل مشاركته الحربية، ولقد قالها لي يوماً: (لقد أفقدتني الحرب القدرة على مسك القلم، وتبعاً أفقدتني البوح بمكنوناتي، وفضّلت الصمت، صور الحرب تصدم مشاعر الإنسان، وتحجزها ضمن أقفاصٍ مقفلة يصعب فتحها، أنا أشكر صبرك الطويل والمرير...).

المهم أنني مع نهاية أشدّ السنوات تعباً في حياتي، حققت ما كنت أظنّه إعجازاً بالنسبة لمعرفتي، ولمقدرتي المادية، ولطاقتي على التحمّل والصبر، فكانت فرحتي بالتفاف مرضاي كبيرة، ولا يعادلها أو يضاهيها فرحة في الدنيا إلا فرحتان الأولى حين أعلن الدكتور «ديفيد» وعلى أعلى منبرٍ في الجامعة أنه لم يمرّ ولن يمرّ على هذه الجامعة، وفي قسم علم النفس طالبٌ أنجب وأذكى مني! وأنه لا يرشحني لمتابعة الدراسة فحسب بل وطلب من رئاسة القسم والكلية والجامعة مراسلة وزارة

التعليم العالي في سورية للسماح لي بالمتابعة حتى نيلي درجة الدكتوراه، والدرجة العليا من التعليم وهي(البروفسور)!!.

والفرحة الثانية هي إعلان زواجي من خريجة كلية الإعلام قسم الصحافة «الآنسة ايفا» في حفلٍ صغير ضم العائلة بالكامل، وعلى رأسهم الأب الذي هرم كما لو صار عمره في هذه السنوات الأربع أكثر من ستين سنة مع الأم التي ما زالت تحاول إقناع نفسها أنها صبيةٌ، ومن في عمرها يمارسنَ النزوات بشكلٍ دوري ودون انقطاع، وحضر هذا الحفل بعض الأصدقاء السوريين، وبعضٌ من الجيران، وقررنا قضاء شهر العسل في مجمل الأماكن السياحية المشهورة على نطاق أوربا بعد أنْ بدّلنا الخطة بالكامل حيث كان من المقرر قضاؤها في المحافظات السورية، وسبب ذلك قيام ما يُسمى «الثورة السورية» ضد النظام، وكانت أن كثرت الاتصالات التي تحذرني من العودة لأن من يسمون أنفسهم بـ «الثوار» يمارسون أبشع جرائم التاريخ بحق الإنسان، والبلد بالتخريب، والحرق، وقطع الطرقات، وغير ذلك من الجرائم التي يندى لها جبين البشرية.

مضت ثلاث سنوات أحرزتُ فيها ما لم يستطع أيّ طالب في ألمانيا أو في أوربا كلها إحرازه**!** ومُنحتُ في نهاية هذه المدّة الجنسية الألمانية لا لكوني متزوجاً من ألمانيّة وأباً لطفلة ولدت على الأرض الألمانية بل لأنني أصبحت أكثر من مشهور بعبقرية منقطعة النظير، وبتأليفي للكثير من الكتب التي تتحدث عن علم النفس، ونظرياته القديمة والحديثة، وأصبح تعريفي كمحاضرٍ كبيرٍ **(**ألماني ومن أصول سوريّة**)** وعلى الرغم من اعتراضي المستمر على هذا التقديم إلا أنهم وكعادة الألمان يفتخرون بحصولي على الجنسية، كأنني ألماني الأصل، وما زاد في شهرتي أنني مع كلّ طلبٍ لأحاضر في أيّة جامعةٍ أوربية، كانت تسبقني حملة إعلامية كبيرة، فيحضرني حشدٌ كبيرٌ من الجمهور بهدف رؤية هذا البروفسور صغير السن، وبعد كلّ محاضرة تنسق لي زوجتي الحبيبة لقاءً تلفزيونياً تابعاً للدولة المتواجد فيها، هذا عدا عن الكثير من المقابلات الصحفية التي مللت من تكرار أسئلتهم البعيدة كلّ البعد عمّا ما أحمله في رأسي من العلم حيث تتركز أغلبها على سرِّ تفوقي الدراسي**!** وعلى أفضال ألمانيا عليّ، وعلى المردود الماديّ الذي أرسل أكثر

من نصفه إلى أهلي في سورية، وعن الأهوال التي تواجه الشعب السوري، وموقفي منها ومن النظام القائم فيها، ومن وضعي العائلي الحاضر، والمستقبل، وعمّا إذا كنت أنوي تعليم ابنتي «مارينا» اللغة العربية، وهل سأنقل العائلة إلى سورية في هذه الظروف الحربية البشعة أم سأبقى في ألمانيا! التي اقترحت عليّ الكثير من المناصب العلمية العليا، وأنا كنت أجيب بكل صراحة بغض النظر عمّا إذا توافقت إجاباتي مع الأهواء السياسية المتبعة في البلد المضيف أم لم تتوافق، واشتهرت الرسالة التي كتبتها، ونلت على أثرها شهادة الدكتوراه «دور الإعلام في الحالة النفسية للشعوب» حتى أنّ بعض الجامعات اعتمدتها مقرراً أساسياً من مقرراتها، اشتريت بيتاً ريفياً رائع الجمال والإطلالة، وشقة كبيرة في قلب المدينة، قسمتها إلى قسمين فجعلت الأول عيادة، والثاني للسكن، وصار من حقي كما هو منصوصٌ في القانون الألماني، تقاضي راتبٍ هو من أعلى الرواتب على المستوى الوظيفي، وذلك لسببين الأول حصولي على أعلى شهادة علمية، والثاني لامتلاكي الجنسية الألمانية، وضبطت حياتي بأفضل ما يمكن ثمّ أخذت إجازة شهرٍ كامل

من كلّ الأعمال والمحاضرات، إجازة للتفكير بهدوء بأفضلية ما يمكن أنْ أفعل في المستقبل القريب، سؤالٌ واحد كان عليّ أنْ أقلّب إجاباته على كلّ الأوجه (الإيجابيات والسلبيات، العائلة والوطن، البقاء مع كلّ هذا الزهو الذي يحيطني من كلّ الجهات أو المغادرة إلى سورية حيث الخدمة الإلزامية بانتظاري على أحرّ من الجمر في مثل هذه الظروف الحربية التي تعيشها البلد).

لم أجد أيّة معاناة في إقناع زوجتي بل على العكس وجدتْ في سفرنا مغامرة ممتعة! ومجالاً رائعاً لممارسة مهنة الصحافة بأحوالها المثبتة بالصور الفوتوغرافية، واللقاءات (المحاورات) المصورة بكاميرا الديجيتال، المشكلة كانت في الكثير من الاتصالات التي أجرتها الجامعة بكلّ كوادرها التدريسية والإدارية، وعندما لم يستطع أيٌّ منهم إقناعي بالبقاء استعانوا بالوزارة، وبالمغريات التي تستطيع تقديمها، وأعطيتُ وعداً بالتفكير المنطقي، ولكن أيّ منطقٍ هذا الذي يرمي الأخلاق جانباً؟! وينكر معروف البلد الذي أرسلني إلى هنا رحمة بي، وخوفاً منه على قدرة الذكاء المتقدة أنْ تضيع، وفوق ذلك

انتشلني بهذه البعثة، وانتشل أهلي معي من فقرٍ غطسنا به إلى الذقون، وجعلنا ننعم بحياةٍ رغيدةٍ ومؤمنة حتى بالسكن لكلّ أخوتي الذكور، والكثير من المنح المالية للإناث منهم، أيّ منطقٍ هذا الذي تكون نتيجته المساواة بين ما أكرمني به وطني في أيام السلم والعز، وما يُسمّيه كلّ المتصلين بي **(**المنطق السليم**)** ونكران هذه الأفضال، ونسيان هذا البلد إنْ أمكن، لا منطق حتى في مجرد التفكير، هذه خيانة للمنطق السليم، وللوجدان، وللبلد. وأرفض أيّ تبرير، الخيانة خيانة وأيّ تصنيف بمشروعيتها أو عدم المشروعية هو قمة الخيانة، وخصوصاً لعلم النفس الذي درسته، وأحرزت فيه أعلى المراتب، تحت أيّ بندٍ أو نظرية نفسية سأضع كذبي على نفسي، من غير المعقول قبولي بذلك، وإلا فأنا إنسانٌ وهمّي النفس، قابلٌ للسوق كيفما شاءت الظروف، وبمعنى آخر أحاضر وأطبق كلّ نظريات علم النفس مع الآخرين وعليهم ولمّا جاء دوري أجد أني رجل **(**ربوت**)** لا يؤثر ولا يتأثر**!** هذه مسخرة، وأنا الآن أعلن انتهاء تفكيري اللا منطقي، والبدء بإجراءات السفر المنطقية.

لا أعرف سبب خوفي! وأنا في الطائرة، هذه ليست أول مرةٍ أكون فيها مع عائلتي على متن طائرة، سافرنا كثيراً قبل ذلك ولكن هذه أول مرة أغمض فيها عيني، وأسمح لخواطرٍ سامة بمداهمتها، وكأنني أحضرها للمرة الثانية، رئيس القسم الذي درستُ فيه يخاطبني متأسفاً:

- ستندم على كلّ ما حصلت عليه، وعلى سنوات عمرك التي أفنيتها في الدراسة والتدريس، لن تلقى في بلدك أيّ اهتمامٍ بهذا العلم، أنت بحرٌ علمي، والجميع يتمنى لو ينهل منك القليل، وستجد نفسك هناك ساقية والجميع يتهرب منك.

وصورة مندوب الوزارة، وهو يحرضني على البقاء.

- أتظن أنك ستلقى في بلدك ما تلقاه هنا؟ ستفقد كلّ هذه المنح في بلدك، حتى الغرور الذي أوصلتك إليه محاضراتك الجامعية في كلّ جامعات أوربا ستفقده، وستتذكرني بأسرع مما تتخيل، طبعاً نحن على استعدادٍ لاستقبالك متى شئت المجيء لكونك ألمانيّاً أولاً، ولكونك خريج جامعاتنا ومدرّساً فيها، ولكن خشيتي ألا تسمح لك بلدك بالمجيء حين تقرر ذلك.

لم تؤلمني هذه الذكريات، والخواطر، بأكثر مما آلمتني كلمات كابتن الطائرة والتي بشرنا بها بأننا نطير فوق أجواء لبنان وأننا بظرف خمس دقائق سنكون على أرض مطار «بيروت».

آه يا بلدي حتى في هذا حاربوك! (رزق الله أيام مطار دمشق الدولي) حيث كانت مُدرجاته تعج بالطيران المُقلع والهابط من وإلى كلّ دول العالم! هذا حصارٌ لا أخلاقي، ليس للحكومة فحسب بل للمواطن السوري البسيط والطيب، ما ذنبي أنا حتى أبدل ثلاث طائرات من أجل الوصول إلى بيتي الذي لم أره حتى الآن؟ بيتي الذي بناه والدي بما أرسلته إليه من مالٍ وفير، لو كنا قبل الأزمة لغادرت فرانكفورت باتجاه اللاذقية (مطار حميميم) مباشرةً أما الآن فعليّ السفر إلى بيروت، ومنها إلى دمشق ثم إلى اللاذقية، ويقولون هذا حصارٌ للنظام، أولاد الثعالب أيها المجتمع الغربي مع كلّ احترامي لعلمكم، ولاستفادتي من هذا العلم، إلا أنكم في نظري ومن الوجهة الإنسانية، والأخلاقية، أولاد ثعالب.

أخبرتني شرطة الهجرة والجوازات امتلاكي مهلة شهرٍ كاملٍ لتسوية وضعي مع وزارة التعليم العالي تجهيزاً لالتحاقي

بالخدمة الإلزامية، ولذلك قررت البقاء هنا حتى أنجز هذه التسوية، وبعدها أخبر أهلي بقدومنا، لا أعرف كيف سأنقل صدمتي التي صُدمتُ بها في الوزارة على الورق!؟ لم يحترمني أحد! وبدوتُ كأنني أيّ شخصٍ يدخل دائرة عقارية لا بروفسوراً يدخل وزارة التعليم العالي! الكلّ يقول: انتظر والكلّ يقول: (بكرا)! والكلّ يهزّ رأسه ساخراً عندما أعلمه أنني بروفسور! وأنشر له شهاداتي لإثبات ذلك، والطامة الكبرى انتظاري في مكتب (مدير مكتب الوزير) لمدّة خمس ساعات، وذلك بعد خمسة أيامٍ من التجوال بين مكاتب الوزارة! وفي النهاية أخبرني بأنّ الوزير غير موجود في المكتب، ولن يعود إلا في صباح اليوم التالي وبكلّ بساطة سألته:

- لقد كان هنا وأنت طلبت مني الانتظار حتى يُنهي اجتماعه؟ فمن أين خرج والمجتمعون معه؟ هل لمكتبه أبواب سرّية؟.

ضحك من قلبه ساخراً وردّ عليّ بكلّ وقاحة مشيراً لأحد الموظفين:

- الأخ، صدّق حاله ألماني.

فهمت قصده، وخرجت لأعود في اليوم التالي، انتظرت كعادتي حتى غفوت على كرسي الانتظار، وحين جاء دوري ودخلت مُحمِّلاً نفسي بالكثير من الغضب، والكثير من الشكاوي، تكلمت كثيراً، وابتسم أكثر! وفي النهاية طلب أوراقي وقعها، وقال لي:

- انتهت معاملتك هنا، بعثتك لصالح وزارة الصحة، وعليك بمتابعة أوراقك فيها، أسرع قبل أن يدركك وقت الدوام وتقديراً لعذابك سأتصل مع زميلي وزير الصحة لتسريع معاملتك، أسرع يا دكتور.

(أسرع يا دكتور) يعني لا قيمة لكل غضبي، ولكلّ كلامي، ولكلّ شهاداتي، وربما إذا لم أسرع سيلغي ما وعدني به من اتصالٍ، وسأعاود الكرّة في وزارة الصحة كتلك التي أشبعتني غضباً وإهانةً في وزارة التعليم العالي!.

كتمت حالتي في الفندق، وتظاهرت بمظهر السعيد، وأخرجت عائلتي في جولاتٍ سياحيةٍ رائعة داخل المدينة المقدسة عندي «دمشق» بجزئيها الحديث والقديم، أنا أعرف أنني لن أستطيع خداع زوجتي، وبأنها تظاهرت بتصديقي

وتصديق سعادتي، وأنها تركتني في تمثيليتي الفاشلة حتى أعترف دون أيّة ضغوط، وهذا ما حدث لدى عودتي من وزارة الصحة كالسكران من قرار وزيرها بتعييني كطبيبٍ عادي في أحد المصحات العقلية البعيدة عن قريتي الساحلية أكثر من مائة وعشرين كيلو متراً بعد أن ظننت أنني سأستلم إدارة مصح عقلي على أقل تقدير!.

هذه الصدمة ألبستني ثوب الصمت والدهشة، وربما ثوب الغباء، بحيث لم أعرف بأيّ ردٍ عليّ أن أرد! وفوق ذلك كلّه أخبرني وكأنّه يتفضّل عليّ وعلى من خلّفني، بأنه سيرفع لي طلباً بقضاء مدة خدمتي الإلزامية في المشفى ذاته، وسيدعم هذا الطلب باتصالاتٍ سريعة مع وزارة الدفاع.

بقي من المهلة المعطاة لي عشرون يوماً، عندما زرت أهلي لم أرّ جميع أخوتي، ثلاثةٌ منهم كانوا يخدمون في الجيش، تعرّفنا على زوجاتهم لأول مرة! وذلك لأنهم تزوجوا بعد آخر مرة زرتهم فيها، لامني الجميع على عودتي على الرغم من شوقهم الملتهب لاحتضاني، الجيران الذين زاروني للتهنئة بالسلامة مدحوا وطنيتي، وأعتقد أنهم وصفوني بالغبي أو بالحمار لأنني

تركت ألمانيا ورُقيّها، وجئت إلى سورية في مثل هكذا ظرف، كان عليّ زيارة المصحّ لمعرفة موقعه، والطرق الآمنة المؤدية إليه، وعليّ أيضاً تأمين خطٍ هاتفي أرضي وخط انترنيت سريع، وكم كان تنفيذ هذه الأعمال البسيطة مدهشاً، ومفاجئاً وصادماً لي إذ اضطرني لدفع رشاوى استطيع بها تركيب مائة خط مع انترنيت في ألمانيا! وفوق كلّ هذه الرشاوى التي كان يتعامل بها أخي منعاً لإحراجي كنت ألاحظ مِنَتَّهم! وكأنّهم أسدوا لي خدمةً كبيرةً! وبكلّ أخلاق ودونما رشوة كانوا يتقاضونها قبل عمل أيّ شيء وحتى قبل السلام!!.

أحمدُ الله على أنّ وزارة الدفاع لم تتأخر بالموافقة على طلب وزير الصحة، الطلب الذي ظننته وهمياً، ومع أنّ هذه الموافقة جاءت مشروطة إلا أنّ الأهل والجيران أخبروني بأنها معجزة! وعليّ أنْ أذبح كبشاً فرحاً بمحبة الله لي، وإلهامه المشرفين على هذه الموافقة الإسراع بتوقيعها، طبعاً الأهل يقررون، والأهل ينفذون، وأنا أطيع، وأدفع، وزوجتي تتمتع بهذه الطقوس، تصوّرما يروق لها وتأخذ لنفسها بعض صور (السلفي)،

وتسمع وتطالبني بالترجمة الفورية، وتكتب على دفتر مذكراتها كلّ شيء.

شُرطَ عليّ في الموافقة أنْ ألتزم ثلاثة أيام بمشفى ميداني تابع للجيش يبعد عشرين كيلومتراً عن المصح، وما بقي من أيام الأسبوع في المصح مع إثبات وجود ومداومة، سلّمت أوراقي إلى قائد الكتيبة الطبية الذي استغرب صيغة القرار! وبعد تقليب الورقة عدّة مرات، وجّه لي أسئلةً عدّة:

- ما اختصاصك؟ أمراضٌ نفسية!؟ يعني مجانين وما شابه ذلك؟

هززت رأسي ممتعضاً من هذا التفسير لمعنى (أمراض نفسية)، وأجبته:

- نعم مجانين... مجانين.

- امسكْ هذه الورقة، أنا لا أقبل في كتيبتي نصف عسكري ونصف مدني، وإنْ كنت عسكرياً كاملاً فأنا لست بحاجة إلى طبيب ما أسميته أمراض نفسية، نحن في حرب يا حبيبي، فيها جروح يجب أنْ تُقطب، ودماء يجب أنْ توقف عن النزف،

عليك أنْ تخيط بغير هذه المسلة (الإبرة) وطالما أنّ القرار موقع من أعلى القيادات، داوم في مصحك العقلي كيفما تشاء، وأثبت تواجدك لدّي كلّ أسبوعين أو اتصل بي، نحن نطلب طبيباً يتعاون معنا ضد الملاعين، وهم يرسلون لنا طبيباً للمجانين!!

احتفظَ بنسخة عن القرار، وأعطاني رقم هاتفه ثمّ أذنَ لي بالانصراف إلى المصح، لم تكن دهشة مديره بأقل من دهشة القائد العسكري إلا أنه تقبّل الوضع بعد أنْ أجرى أمامي عدّة اتصالات مع الوزارة ليتأكد من صحة القرار، وفي النهاية وجّه كلامه بطريقة مرحة:

- لا أعرف ما أقوله لك! هذه أول مرّة يُفرز لنا عسكري! اختر الأيام التي تشاءها من الأسبوع، وداوم في الجناح الذي ترغب به، لك الصلاحية الكاملة في متابعة أيّة حالة نفسية، فقط أعلمني، ما رأيك في أيام السبت والأحد والاثنين؟ أتمنى لو تتجول قليلاً في أجنحة المشفى، يوجد غرفة في الطابق العلوي مُجهزة بكلّ شيء، اعتبرها من هذه اللحظة غرفتك، هي بالأصل مخصصة لكبار الضيوف، هذه نسخة من مفاتيحها، سيأخذك الآذن إليها.

ضغط زراً أمامه، فدخل الآذن العجوز، تلقى التعليمات فحمل حقيبتي الصغيرة، وسار بها أمامي مومئاً لي برأسه لأتبعه.

رائعة هذه الغرفة بإطلالتها على الحديقة وعلى سهلٍ واسعٍ يُسمى«سهل الغاب» ورائعة بلون جدرانها، وبأثاثها الجديد، وبالكمبيوتر الذي يبدو عليه وكأنه جديدٌ لم يمسسه أحدٌ قبلي، شكرته كثيراً لكنه لم يرد بأيّة كلمة، ابتسم في وجهي وانصرف تاركاً إياي لاستمتع بهذا المنظر الخلاب، أنا في الطابق الثالث من المصح الذي يقع على تلة ارتفاعها أكثر من ثلاثين متراً عن كلّ شيء حولها، دقائق معدودة أدخل بعدها الآذن فنجان قهوةٍ وضعه على الطاولة، وهمّ بالانصراف شكرته بسرعة، وأتبعت شكري بسؤالٍ:

- متى بُني هذا المشفى؟ أهو جديد؟

ابتسم أيضاً، ورفع يده ليجيبني عن طريق أصابعه المنفرجة الدّالة على عدد السنوات الخمس، وانصرف.

حديقة هذا المشفى أجمل بكثير مما شاهدته من مشافي أو مصحات في ألمانيا أو في أوربا، فرددت في نفسي سعيداً: (الحمد

لله، إنْ كان مثل هذا المشفى موجود، ونحن في أقسى حربٍ عرفها العالم، فسورية بخير!) تمددت على السرير بثيابي المدنية لأجرب مدى الراحة التي سيقدمها لجسدي الفراش الوثير، وإذا بي أغفو بشكلٍ لا إراديّ، وأستيقظ على صوت انفجارٍ ضخمٍ هزّ المشفى، وهزني، فهرعت إلى الممر ظاناً نفسي في عز النهار، وأنّ إغفاءتي لم تدم أكثر من خمس دقائق، وإذا بالليل قد بدأ يُسدل ستائره، أوقفني أحدهم ليطمئن عن سبب هلعي، فأجبته على الفور، ودونما معرفةٍ مني إذا ما كان مجنوناً أو موظفاً: (انفجار انفجار).

ضحك من كلّ قلبه ثمّ قال مُهدئاً خوفي:

- لا تفزع يا دكتور، لا تفزع هذه فصيلة المدفعية تدك أوكار الإرهابيين القريبين من هنا.

- ماذا قلت؟ فصيلة مدفعية بجانب مصح عقلي! وتدك أوكار الإرهابيين القريبين من هنا! هل جُننت؟.

- دكتور، ما بك؟ أنت طبيب مجانين لا مجنون! هذه الفصيلة تدّك أوكارهم منذ شهرين، هل أنت جديدٌ هنا؟.

- نعم نعم، من أنت؟.

- من أنا!؟ أنا متعهد الطعام... أنام هنا، واستيقظ باكراً، وأذهب إلى سوق الخضار، والفواكه، وأجلب حاجة المشفى، وأعود للنوم، ألم تحصل على وجبتك اليوم؟ حسناً حسناً، اذهب إلى مكتبك، وسأتصل بهم ليرسلوا لك أطيب وجبة تأكلها في مشفى المجانين.

لم أستطع الربط بين المصح وفصيلة المدفعية! كلّ نظريات علم النفس تفرض وضع مرضاها في أماكن مُريحة وبعيدة كلّ البعد عن الأماكن ذاتِ مصادر الضجيج، غريبٌ جداً أن يأمل أيّ طبيبٍ بشفاء مريضه، ولاسيما إذا ما توالى صدور هكذا أصوات!.

لم أنطق الكلمة الأخيرة حتى صدر صوتٌ أقوى من الذي قبله وفرطت مسبحة الأصوات المرعبة، وأنا بين مرعوبٍ وخائفٍ، ومُندهشٍ ومستغرِبٍ، قُرِع الباب، فابتلعت ريقي وسميت باسم الله.

- مساء الخير، هل أخفتك؟

- لا لا، مساء النور، تفضل.

- ستعتاد يا دكتور، هكذا حدث معي بادئ الأمر أما الآن فلا أستطيع النوم من دون هذه الأصوات، أعتقد أنك خريج جامعة تشرين في اللاذقية، أليس كذلك؟ لا تسألني كيف عرفت!؟ فلو كنت خريج جامعة البعث في حمص أو دمشق لكنت معتاداً على مثل هذه الأصوات.

هو كان يتكلم، وأنا أهزُّ رأسي شارداً بأشياء كثيرةٍ أبسطها (كيف سأجد طريقةً لإسكاته عن سيرة الحرب المرعبة؟).

- دكتور، أين وصلت؟ أنت شارد.. يعني أنت متزوج، ولقد اشتقت لزوجتك، دائماً يشتاق المقاتل لزوجته كما يقول نتشيه: (المرأة راحة الجندي بعد الحرب).

- نتشيه!؟ تعرف نتشيه؟

- أعرف نتشيه وغيره، أنا هنا من أول يوم دخل فيها هذا المشفى العمل وأسمع الكثير من الأطباء وأحياناً استعير بعضاً من كتبهم، تخيّل يا دكتور خمس سنواتٍ وأنا هنا ولم يقبلوا توظيفي! ولم يتخلوا عني! لقد ضاع عمري بين المجانين، وأظنني لن يطول الأمر حتى أكون واحداً منهم، في هذا المشفى لا يوجد

عقلاء، الكلّ مجنون بطريقة ما، والأفضل أنْ تتظاهر بالجنون على مبدأ المثل القائل: **(إذا جن قومك عقلك لا يفيدك).**

شعرت أنّ هذا المتعهد دخل قلبي بابتسامته الدائمة، وغمزات عيونه التي لا تزن لأيّ شيء وزناً ودائماً تقول لي: **(لا** تلقِ بالاً لما يحدث خارج حدود شخصيتك**)** أعتقد أنه إنسانٌ ذكي فلقد وضعني في أجواء المصح **(**أطباء، ومعالجين، وموظفين**)** بسهرتين، وأعتقد أنه ذكر نيتشه كمفتاحٍ ليتمكن من خلاله فتح قلبين ودخوله كصديقٍ جيد، وأظنه تمكن من ذلك.

الغريب في حياة فارس **(**المتعهد**)** أنّ بيته قريبٌ جداً من المصح، وهو يملك سيارة نقل بضائع من نوع **(**سوزوكي**)** ويستطيع الوصول إلى بيتهم بظرف خمس دقائق، أنا تفاجأت عندما أخبرني بذلك، توقفت عن تناول العشاء، نظرت في عينيه، وخاطبته بغمزةٍ من عيني كما يفعل هو دائماً، فردّ عليّ ببداهةٍ فائقة:

- تظنني مجنوناً؟ على العكس تماماً، المصح هو المكان الوحيد الذي أشعر فيه أنني عاقل**!** كلّ الناس خارج السور يعتبرون أنفسهم حكماء، وعقلاء، وينظرون لي وللآخرين على أننا

مجانين! الكل راضٍ عن مستوى تفكيره، وعقله، ويأخذ بعين الصغر أفكارك، وكأنّك عالة على المجتمع، هنا يا صديقي أقرب ما أكون إلى الله، أشعر بعظمته، وقدرته على أخذ كلّ ما منحه للإنسان بلحظة، وأشعر بحنانه، ونعمته عليّ إذ لم يجعلني مثل المرضى الموجودين هنا، وأشعر بهالة رحمته، ومغفرته بتوددي الدائم ومعاملتي الحسنة لهم، أنا أستطيع العمل في أيّ مكان يعود عليّ بمردودٍ أكبر مما أتقاضاه هنا، ولكنني أشعر هنا بآلفةٍ إنسانية أفتقدها خارجاً! وفي النهاية اعتدت على ذلك، فلا تغمز ولا تلمز ولا تقل في داخلك عني مجنون، أنا عاقل بقلب مجنون.

أعجبتني تفاصيل إجابته! ثمّ غيرنا مسار الحديث إلى السفر وتأمين السير باتجاه مركز المحافظة، ومنه إلى محافظتي على الساحل السوري.

شكرت له تطوعه بنقلي صباحاً، وبقاءه معي حتى لحظة تحرك (السيارة العامة) باتجاه الساحل، لوحّ لي بيده وذهب ليبتاع بضاعته من سوق الخضار والفواكه.

في الطريق الذي استغرق من الوقت أكثر من ساعة ونصف نتيجة الحواجز الكثيرة لقوات الأمن والجيش، وجميعها تطلب

هويتك، وتفتش أغراضك، أطلت التفكير في حقيقة هذا المصح الذي لم أختلط فيه مع أحدٍ بل بقيت في غرفتي أراقب من نافذتها كلّ ما يجري في حديقته، لم يسأل عني أحد باستثناء فارس، ولم أخبر أحداً بمغادرتي.

هناك شيءٌ ما غير طبيعي لم أجد له تحليلاً مُرضياً، أنْ لا يكترث بي أحد هذه إهانة بحقي وبحق كلّ الشهادات العلمية التي حصدتها بتفوقٍ من ألمانيا، وعليّ معرفة هذا السرّ كعملٍ أولي عند عودتي في الأسبوع القادم.

كما لو صار لي سنة غائباً عن بيتي وزوجتي وابنتي، لم يحصل أن اشتقتُ لهم أو اشتاقوا لي هكذا من قبل رغم أنني غبت عنهم أياماً أكثر من ذلك في أوربا عندما كنت أسافر من دونهم لأحاضر في جامعاتٍ تبعد عن بيتي في ألمانيا أضعافاً مضاعفة عما يبعد المصح عن بيتي الساحلي هنا.

لم يصدق أحدٌ من العائلة ما حدث معي، ووجهوا لي نصائحَ بالجملة للحصول على أيّ مستندٍ من قائد الكتيبة الطبية أو مدير المصح يثبتان فيه مداومتي خشيةً من أيّ طارئٍ قد أقع فيه مستقبلاً وسط هذا الزحام الفظيع من الفوضى، أسررت

لزوجتي بكلّ ما حدث معي وبكلّ شكوكي، هي كانت تسأل وتسجل إجابتي على مفكرةٍ صغيرة تماماً كما أفعل مع مرضاي! وكانت تريني كلّ مقالةٍ ترسلها إلى الصحيفة المتعاقدة معها، بدا لي أنها تكتب مقالاتها من مصادر خيالية ووهمية، تعاطفها الزائد مع الشعب السوري، لم يكن لأنّ زوجها واحدٌ منه أو لأنّه ضابطٌ مجندٌ في جيش هذا الشعب ضد ما يتعرض له من إرهابٍ عالمي، تعاطفها كان مما تراه من صورٍ مُعلقةٍ لشهداء القرية في كلّ حارة وعلى كلّ تقاطع ومما تحس به من حرقةٍ لقلوبٍ تسمعُ آهاتها بإنسانيتها الفائقة الإحساس، وترصدُ لوعتها من دموعٍ دائمةٍ وبنظراتٍ ثاقبةٍ ترى ما خلف هذه الدموع، وفوق كلّ ذلك تتحسس الألم المُتابع مع أيامها من خلال مجالستها لنسوة أخوتي المنضمين للجيش العربي السوري، وما تأثير ذلك عليهن وعلى أولادهن، فتكتب قصصاً عن بطولاتٍ لم ترَ شخصياتها! وتصف مستقبلاً لعائلاتٍ تصلي هي كثيراً كيلا يُصيبها مُصابهم من فقدان رب الأسرة استشهاداً أو أسراً أو خطفاً أو ربما جرحاً يتسبب بإعاقةٍ أو عاهةٍ دائمة.

قضيتُ أيامي الأربعة، تسوقني فيها الأفكارُ من حيرةٍ إلى حيرة! حتى أنّ زوجتي قالت لي:

- ما باله البريق الذي في عينيك خبا؟ ألهذه الدرجة أثّرت فيك الأيام التي غادرتنا بها؟

حاولت كثيراً التظاهر بعكس ما هو دائرٌ في رأسي إلا أنني لم أستطع، التظاهر بعكس ما أنت عليه يحتاج إلى استيعاب الفكرة أولاً! وحقيقةً أنا أشعر أنّ تفكيري غريبٌ عني إلى درجةٍ لم أستطع معها التعرّف على طريقتي في تقبّل الأمور، والتأقلم معها بسرعة فائقة.

سفري الصباحي، ومناظر الطريق الجميلة المتناغمة مع صوت فيروز، أنسياني حالتي، وأخرجاني من مزاجي الُمعكر إلى عالمٍ بهيٍ، يُشبه إلى حدٍ ما أحلى الأجواء التي عشتها في ألمانيا.

عندما ترجلت من السيارة العمومية، تدافع صوبي أربعة أو خمسة رجالٍ غير مُريحيّ المنظر، كلّ واحدٍ منهم يحاول إمساك حقيبتي! وحملها، صارخاً باسم منطقةٍ لا أعرف موقعها! ولأنني تلقيت الكثير من التحذيرات من الأهل والجيران، فقد

أجفلني هذا التدافع، فشددت حقيبتي صوبي رافضاً ذهابي إلى أيّ من المناطق التي يصرخون بأسمائها، لحظاتٌ مقرفةٌ! أوقفها فارس الذي صرخ:

- ابتعدوا... الدكتور معي، الدكتور معي.

انفرجت سرائري، وكأنني عثرت - وفي عزِّ فقري- على كنزٍ كبير، أمسك الحقيبة بيد وباليد الأخرى شدّني من يدي، ساحباً إياي وسط امتعاض الرجال، ونظراتهم اللئيمة.

- الحمد لله الذي أرسلك في هذه اللحظة، لم أعرف كيف أتدارك الموضوع، شعرت أنهم لن يفقهوا ما سأقوله، حتى أنهم لم ينظروا إلى عيني، صرخوا على أنفسهم، وكأنني مُلزمٌ بالركوب مع الأقوى دون مراعاةٍ لوجهة سفري!.

- أنا هنا منذ ساعة تقريباً.

- وماذا تفعل في مثل هذا المكان؟

- ماذا أفعل؟! أنتظرك طبعاً!! نعم لا تستغرب، انتظرك أنت، وكنت أعرف موعد قدومك، ولولا أنّ عيوني كانت

تتفحص كلّ الركاب النازلين لوجدتني أمامك قبل أنْ تطأ قدمك الأرض.

- هل لي أنْ أعرف سبب انتظارك لي، ومعرفتك بموعد وصولي؟.

- اسمح لي أنّ أجيبك على السؤال الثاني أولاً، أنا عرفت موعد وصولك لأنك خريج أوربا كما حدثتني من قبل، ومعنى ذلك أنك تحترم الوقت وتقدسه، ولو كان هناك سيرٌ ينطلق من محافظتك قبل ذلك لأتيت، ومحاكمة عقلية صغيرة لما يستهلكه الطريق، والحواجز من الوقت، تواجدت هنا قبل ساعة أما عن سبب انتظاري لك فلأني أحببتك أولاً، ولأني أحترمك ثانياً، ولأني أعرف كيف سيتناولك هؤلاء السفلة، وأنت جديدٌ على هذه التصرفات، وقد يستغلونك إلى أبعد ما تتصور.

- شكراً لك على هذه المشاعر، شكراً لك لأنك تحملت، وصبرت من أجلي أكثر من ساعة.

- لم يكن صبري مؤلماً! عندما تملأ وقت الانتظار بشغلٍ ما يمر هذا الوقت بسرعة.

- فارس، أتعرف لمن هذه الحكمة؟

- حكمة!! لا أعرف لمن، ولا أتذكر إذا كنت قرأتها من قبل، أنا منذ خمس سنوات أقرأ كلّ ما يقع تحت يدي بنهمٍ شديد، لا أدقق بالأسماء لأنها لا تهمني بالقدر الذي تهمني فيه الحكمة، وحتى الحكمة لا أحفظها، وإنما أخزن ما فهمته في ذاكرتي، وأحاول قدر الإمكان أنْ أتصرّف، وأتكلم بما تُمليه عليّ كلّ المفاهيم التي خزنّتها.

- على كلّ حال هذه الحكمة لـ (جويس ماير) وهي بالحرف الواحد (الصبر ليس القدرة على الانتظار بل هو الطريقة التي نتصرف بها خلال فترة الانتظار) وأعتقد أنّ ما قلته أنت عن التصرّف، والتكلم بما تمليه عليك المفاهيم المُخزنة في ذاكرتك هو قمة الحكمة.

- لا يا دكتور قمة الحكمة ورأسها (مخافة الله) وبعدها تصرف كما تشاء، وستجد نفسك حكيماً.

- يبدو لي أنك ستكون صديقاً رائعاً، صديقاً من النوع الذي لا تتجمد صداقته حتى في الشتاء.

- جميل هذا التشبيه! لمن هذه الحكمة يا دكتور؟.

- هذا مثلٌ ألماني، لا يُعرف قائله.

تابعنا السير، لم نشعر بطول الطريق، فلقد أخذنا الحديث بالحكم والأقوال، وللحق أقول إنه صيدٌ ثمين لم أعثر على أفضل منه مذ وطأت قدمي أرض سورية، وهو مناسبٌ جداً ليكون صديقاً حقيقياً بما يشترك فيه معي بالعقل، والقلب، والضمير، كما يقول الحكيم اللبناني (أمين الريحاني).

ولقد عزز ما قلته في نفسي قوله عند وصولنا، وترجلنا من السوزوكي.

حقاً يا دكتور، كما قال الإمام علي (ع): (من صاحب الأنذال حُقر، ومن صاحب العلماء وُقر) وأنت عالمٌ أرفع قيمتي بمجرد مصافحتي له، فكيف وقد تفضل عليّ بحديثٍ طويلٍ كالذي خضنا فيه؟.

لم يكترث أحد بدخولي! أطباء كانوا أم مجانين، الكلّ توجهوا بأسئلتهم لفارس، وهو يشير لهم بإبهامه كدلالةٍ لتنفيذ طلبهم، أوصل فارس معي الأغراض إلى باب الغرفة، وأعطاني مهلة نصف ساعة لأغير ملابسي ريثما يُجهز الفطور، وكما هي العادة الجديدة.

أنهيت أشغالي الخفيفة، وجلست أراقب من نافذة الحديقة، وما يحدث فيها من أحداثٍ طبيعية، وهادئة، وفجأة سمعت صراخاً! أدركت أنه من تجمع الموظفين وبعض الأطباء، وأنه نابعٌ من غرفةٍ في الطابق الأول، ما لبث أنْ انفرط عقدهم وخمَدَ الصوت، بعد ذلك بخمس دقائق وصل فارس، ألقى سلامه، ووضع من كلتا يديه (صينيةٍ تحمل فطوراً لذيذاً) وبدأ بالكلام سؤالاً:

- لم أرك في الأسفل دكتور!؟

- ولمَ أكون في الأسفل؟ لابد وأنها مشاحنة خاصة لا تعنيني، ومن تدخل فيما لا يعنيه لقي شيئاً لا يُرضيه.

- ولكنه أمرٌ يعنيك بطريقة ما.

- يعنيني أنا!!؟ لا أظن.. فلا أحد هنا يعرفني أو أحبَّ أنْ يعرفني! وما زلت أراقب وأقدّر.

- اعتقدت ذلك، من لا يعرفك يجهل قيمتك، أنت جديد، ولم تلحق أنْ تتعرف على بعض الأحداث الاستثنائية التي تحدث هنا، هذا المصح يا دكتور من أبرز وأشهر المصحات في

سورية، ومعظم نزلائه - أقصد مرضاه **(مجانينه)** - من عائلاتٍ غنية، ومعظم الأطباء المُفرزين إلى هنا بالواسطة، وحتى توزيعهم على الأقسام بالواسطة، قد تقول ما دخلي بهذا الحديث؟ دخلك أنّ ذوي هؤلاء المجانين يرسلون هبات مادية أو نقدية كلّ حين لأطقم المشفى، وفي كلّ مرة تحدث مثل هذه المشاحنات السخيفة، أما بسبب الكمية الموزعة بغير عدلٍ أو على أسبابٍ أتفه من ذلك**!** كالاختلاف على الأحجام والألوان، لأنّ أغلبية الهبات تكون على شكل ألبسة وأحذية**...** انسَ الموضوع، تفضل وافطر**.**

- الهبات تكون للمشفى أو لتطوير أساليب العلاج لا للأطقم**!**؟**.**

- هذا في ألمانيا، هنا درجت العادة هكذا، ولولا ذلك لما رأيت من هذه الأطقم أحداً**.**

- آ**...** أنت تُغير نظرتي عن هذا المشفى كثيراً**!**

- هل لي أن أقول لك كلمة؟

- نعم، ولكن قبل ذلك، هلا تخبرني لمَ لم يكترث بي أحد مذ دخلت هذا المصح.

- سبحان الله هذا ما كنت أريد أنْ أقوله، هذا الموضوع يؤلمك أليس كذلك؟ يعني بصفتك حاملاً لشهاداتٍ طبية عليا في معالجة الأمراض النفسية، ولم يستشرك أحد بأيّ شيء، وأنا أقول لك لن يستشيرك أحد لو بقيت مئة سنة، هنا إما أن تفرض نفسك بالقوة وإما تبقى خارج إطار هذه البوتقة الناعقة، أخر ما يهمهم شهادتك، وضميرك العلمي، دكتور انتبه إلى ما سأقوله أنا أخوك الصغير: أنت هنا أعلى مؤهل علمي، ومجرد سلامك عليهم تواضع كن مثل سلفادور دالي، لا أعرف إذا ما قلت الاسم صحيحاً المهم أنه قال (ليس من عادتي التواضع) افعل مثله، إياك أنْ تناقشهم، هؤلاء مجموعة من الأغبياء الماديين، ومجرد نقاشك معهم سيظن الناس ـ وأولهم المجانين ـ أنك مثلهم وقد يتحيرون من منكم أشد غباءً.

- لقد حيرّتني، أنا هنا لأعمل بشهادتي لا لأبقى أراقب من غرفتي، الحيرة قد توصلني إلى الجنون أو ربما إلى الموت، صحيحٌ لم يكترث بي أحد، وهذا المرض الشرير من أصعب الأمراض التي

تصيب النفس البشرية، لأن العلم لم يجد له علاجاً، ولكن هذا لا يلزمني البقاء بعيداً، أيّ علاجٍ هو الذي استطيع منحه من النافذة لمرضاي؟ سأكون مجنوناً لو فعلتُ ذلك.

- ومن قال لا تعالج مرضاك على كيفك، عالج ولكن ابتعد عن أصحاب الروب الأبيض ولابسي اللباس المدني، أما المرضى فمعروفون باللباس وبالهيئة، اختر ما تشاءه من حالات وعالج بصمت، هم مشغولون بالصغائر، وأيّ اختلاطٍ معهم ستضع نفسك في دائرة الشبهة.

- تبدو لي أنك واثق من كلامك، وتعرف الناس جيداً؟

- ربما يكون الفرق العقلي بين المرضى وهؤلاء الناس أنّ المرضى مجانين، إلا أنني أعتقد أنّ المجانين هنا أرقى بكثير ممن يعتبرون أنفسهم معالجين، صدّقني أنهم لن يستفيدوا من علمك شيئاً، ولن يحاولوا أن يستفيدوا، وسيعتبرون كلامك ونصائحك كبرياء، وستلقي ببذور عملك في مياهٍ آسنة لا هي تستطيع أن تطمر مستنقعها، ولا هي تنبت وتزهر، ولذلك أقول لك: المرضى ثمّ المرضى ثم المرضى.

- أليس من المبكر إعلامي عن هذا الوضع؟ لمَ لا تتركني أكتشف هذه الأمور وحدي؟ أنا أراقب بهدوء لترتسم الصورة في ذهني بوضوح.

- الذكي من تعلم من تجاربه، والسعيد من تعلم من تجارب غيره، قلتها لك وسأقولها للمرة الأخيرة: أنا اعتبرك هنا أخي الكبير، ويعلم الله الذي أنزل محبتك في قلبي كم هي كبيرة تلك المحبة، ومن واجبي أنْ أنصحك، ليس لكوني أعلم منك وأعرف منك - لا سمح الله - فالناس مقامات، ولكن لكونك جديداً على هذه البيئة، الحرب غيرت مفاهيمَ كثيرة! ولكن صدّقني نحو الأسوأ، أنا لا أعرف كيف! لقد سمعت وقرأت الكثير عن أنّ الحروب تُنقي النفوس إلا أنّ ما حدث هنا كان أغرب من الخيال! ربما لأنها حربٌ غريبة عن طبيعة الحروب، على الأقل اسمع كلامي، ومعك معك إلى أنْ ترسو على بر، وأعتقد أنك ستقول كان فارس على حق... أنا شبعت وأستأذن منك، لدّي بعض الأمور لأنجزها... لا تأخذ كلامي على محمل النصيحة... اعتبره تصويراً واقعياً لما يحدث هنا، وأنت حر باختيار الصورة التي تحبها وضمّها إلى ألبومك... أراك مساءً أو قبل المساء إنْ لم تُمانع.

لا أعرف ما الذي اعتراني من كلامه! أظنه صادقاً بكلّ حرفٍ قاله، ارتديت روبي الأبيض ودونما تفكير وجدت نفسي أتجول بين مرتادي الحديقة من المجانين والمعالجين، تجاهلت نظراتهم المتسائلة من أكون! حاولت بكلّ ما أملك من متانة أعصاب الظهور بمظهر المستطلع لا بمظهر الطبيب، جلستُ على مقعدٍ خشبي أستجمع ما أمكن من أشعة الشمس، ألقى أحدهم السلام عليّ وجلس قربي دون استئذان، وبدأ مشاركتي الحديث، وكأنه على معرفةٍ بي منذ زمنٍ بعيد!.

- سمعت أنك خريج ألمانيا وتملك أعلى شهادة علمية يُمكن أنْ تُمنح، ما الذي أتى بك إلى هنا؟ غريب لو كنت مكانك لما فكرت بالعودة مطلقاً... لو أعرف ما يكمن في عقل أمثالك الذين يتركون الحياة الرغيدة في ألمانيا ليعودوا إلى هنا بلد التعاسة، والحرب، والموت؟.

- عندما سافرت من هنا كانت سورية أجمل وآمن بلدٍ في العالم!

- كانت!! رحم الله هذه الأيام لن تعود صدقني، وابحث لك عن أيّة وسيلة وعُدْ إلى ألمانيا، انسَ سورية، شهادتك لن تُقدم ولن تؤخر، وإنْ كثر المجانين وصار أعدادهم بالملايين.

نظرتُ إليه متأففاً، لم أميز إذا ما كان طبيباً أم ممرضاً، ولكنني أجبته بهدوء.

- أتعلم أنّ نصف الراحة في عدم مراقبة الآخرين؟ ونصف الأدب في عدم التدخل فيما لا يعنيك؟ ونصف الحكمة في الصمت؟ فإذا فقدت في جلسة واحدة نصف راحتك ونصف أدبك ونصف حكمتك فهل تأمل العثور على أنصافك الباقية فيما تبقى من حياتك؟.

انتفض كمن لدغه عقرب، وقال:

- صدقَ من قال أنك مُتكبر، ولأجل هذا لا تغادر نافذتك، أنت أناني أكثر مما توقعت، أستأذن يا... بروفسور.

- لَمْ تستأذن بالجلوس! فكيف أمنحك إذناً بالذهاب، تصرف كما هي طبيعتك لا يهمني جلوسك أو مغادرتك.

راقبت تحركه بطرف عيني الوحشي، أعتقد أنه أفرغ الكثير من شحنته في حديثه مع رفاقه، حركاتُ أصابعه ورقبته، أعلماني بأنه تحدث بما كان وبما لم يكن وبما سمع مني وبما لم يسمع فقلت في نفسي: الحمد لله، لقد وفرَ عليّ هذا الأحمق الكثير من العناء في إفهام البقية عن طبيعتي وطبيعة تفكيري وإجاباتي فكانت رمية من غير رامٍ.

لم أستمتع بالقدر الكافي من أشعة الشمس حين حجبها عني رجلٌ بوجه نمس أعوج الفم تتحرك شفته العليا حركاتٍ لا إرادية، تُلفت النظر، تفتح بارتفاعها فتحة أنفه اليُمنى لأوسع ما يمكن، رفع يده مسلما ثم أشار إلى غرفة المدير فهمت ما قصد وما كان معناه.

- صباح الخير يا دكتور، المدير يطلبك إنْ لم يكن لديك عملٌ ضروري، لقد رآك من نافذة مكتبه.

أجبته مبتسماً وأنا انهض:

- حسناً، سأذهب إليه.

سبقني إلى الباب، فتحه ودعاني للدخول، وإذا بالمدير يستنفر من وراء مكتبه ليُرحب بي وكأنني وزير الصحة! جلس قُبالتي على كنبةٍ مخصصةٍ للضيوف، وبدأ حديثه:

- إن شاء الله أعجبتك الغرفة؟ اليوم سيأتي موظف الكهرباء ليمدّ لك زر الجرس، سأخصص لك حاجباً مسؤولاً عن التنظيف، وإحضار الطعام والشاي والقهوة... آ... على سيرة القهوة كيف تحب قهوتك؟ أعتقد أنك تحب النسكافيه؟ هيا يا أبو علي احضر لنا كوبين نسكافيه على ذوقك...

لم أكترث بكلّ ثرثرته وشغلتُ نفسي بقراءة الشهادات العلمية المُعلقة ضمن لوحات زجاجية وإطارات خشبية مُزخرفة بالموزاييك، استنهضته نظراتي، فقام ليشرح لي: هذه شهادة الطب البشري، وهذه شهادة الاختصاص، وهذه شهادة الدبلوم، وهذه شهادة مزاولة المهنة، وهذه صورتي مع وزير الصحة السابق وله الفضل الكبير في تعييني هنا مديراً، وهذه مع الوزير الحالي الذي أدهش بالمستوى العظيم والفخم لمصحنا العقلي... أتعرف من أهداني هذه الإطارات؟ وهذه اللوحة التعريفية على طاولة المكتب؟.

انتقلت عيناي إلى حيث أشار، فإذا باللوحة عدّة ألقاب تسبق اسمه، لزمت الصمت ولم أعلق على أيّة كلمة قالها لي، لقد تعلمت ذلك في ألمانيا، بالصمت تستطيع أن تسمع أكثر، وتحلل أعمق، وتقول الأفضل، وإنّ أرقى المتكلمين من يتقنون فن الصمت، وقف الآذن أو الحاجب لا أعرف ما اسميه بعد ضيافتنا كتمثالٍ متحرك الشفة! حين أخرج المدير من درجه ظرفاً وقدمه لي، تفاجأت بوجود مبلغٍ كبيرٍ في داخله (يبلغ خمسين ألفاً)! وذلك مما كُتب عليه تحت اسمي، أومأت له ليشرح لي عن ماهية هذا المبلغ، فتلعثم قليلاً ثم صرخ بالآذن:

- أما زلت هنا؟ شكراً لك، هيّا اخرج... هذا من الهبات يا دكتور... حصتك من الهبات.

- هذه أول مرة أسمع فيها أنّ الهبات تُقسم على الأطباء!

- هكذا جرت العادة هنا، حتى أهل المرضى يعرفون ذلك، ويغدقون علينا لنضاعف عنايتنا بأولادهم.

- من أول طبيب استلم إدارة هذا المصح؟

- نعم؟ آ... أنا استلمته من لحظة افتتاحه.

- يعني أنت من اخترعت هذه البدعة؟ وحولت الهبات لصالح الأطقم الطبية من السنة الأولى حتى أصبحتْ شيئاً مألوفاً فيما يليها من السنوات؟ ومن أجل ذلك تشاحن اثنان على اقتسام بعضها منذ ساعة... أنا يا دكتور لم آتِ إلى هنا لأتقاضى من الهبات، وذلك لسببين، أولهما أنني لا أتقاضى مقابل عملي إلا حقي من الراتب، وثانياً أنا غني عن هذه الأموال، وهبتكم تلك التي أعدها من حق المرضى لا تعادل أجر خمس كلماتٍ كنت ألقيها في أيّة محاضرة من محاضراتي في جامعات أوربا! وإنْ كنت لا تعرف من أنا فلأبأس لو أخبرتك بأنني بروفسور... بروفسور يا دكتور.

أعاد الظرف إلى مكانه منمقاً تصرفه بحججٍ واهية:

- أنت تعرف وتقدر بل أنت سيد العارفين بما يجري في هذه البلاد من غلاء المعيشة، وأجور النقل، ومعظم الأطقم الطبية من خارج المشفى ولذلك يجب إعانتهم، والوقوف معهم، صدّقني الأهالي يدركون ذلك، ويعرفون طريقة توزيع هذه الأموال، على كلّ حال بارك الله بك، وأتمنى لو تمنّ علينا جميعاً ببعض

إرشاداتك، ونصائحك الطبية، ولاسيما بعض الحالات المستعصية، وأنا جاهز لفعل أيّ شيءٍ يخدم ذلك المجال.

- أريد أضابير المرضى، وخصوصاً تلك الحالات.

- آ... نعم نعم، لم أتوقع تلك الجهوزية العالية لديك، كلّ شيءٍ سيكون في مكتبك، ربع ساعةٍ وحسب، ربع ساعة.

هززت رأسي، ورشفت آخر رشفة من فنجان القهوة، ثم استأذنت لأسمح له بالتنهد العميق نتيجة هذا اللقاء القاسي المندوم عليه – طبعاً - من قِبله، تابعت جولتي متفحصاً الأوجه، ثمّ صعدت إلى مكتبي، لأجد أضابيرَ يفوق عددها العشرة، فألهيت نفسي بنقل معلوماتها على مجلدٍ خاصٍ في الحاسوب الذي افتح لأول مرة، ويبدو أنني أول من أضغط على زر (التشغيل) وأفتتح مجلداً فيه، ومن حسن حظي فقد عثرت على شبكة انترنيت مفتوحة! ساعدتني جداً بإنزال برنامج خاص يُستخدم عادة في المصحات الكبرى، وكان لي في التعامل معه باعٌ طويل، ولا يتطلب منك سوى تحميل المعلومة الخاصة بكلّ مريض، ويكفي لإظهارها أن تذكر أيّ

شيء يخصه (اسمه، عمره، مرضه، دواؤه) أخذ مني نسخها وقتاً وتعباً، أشعراني بالنعاس، فنمت لمدة ساعتين أو أكثر، وأفقت كما هي العادة هنا على دوي المدفعية، وهي تدكّ أوكار الإرهابيين كما قال لي فارس الذي قرع الباب بخفة قائلاً:

- أذكر القط ينط، أكيد قلت في نفسك: هذه أصوات المدفعية التي تدكّ أوكار الإرهابيين كما قال لي فارس.

- أقسم بالله هذا ما قلته، بسم الله الرحمن الرحيم، أنت جان أم ملاك؟ لا هذا ولا ذاك، توقّع ذكي لا أكثر ولا أقل، لا تقل لي أنك لا تشرب المتّة؟.

- بل أشربها، ومشتاقٌ لها جداً.

- على أنغام المدفعية لا تستطيع أن تفكر بشيء، أنا كنت أستمتع بالمتّة الساخنة وحسب، بينما فارس كان يُقلب الأضابير، يقرأ كلّ واحدةٍ لدقيقة أو لدقيقتين ثمّ يُغلقها، وعندما أنهاها، سألني بصوتٍ عالٍ:

- كيف وصلت هذه الأضابير إلى هنا؟

- أنا أتيت بها من مكتب المدير، طلبتها فأرسلها في الحال

- وكيف وجدت سيادته؟

- سؤالٌ رائع (وقفت واتجهت باتجاه النافذة ثمّ استدرت نحوه) هذه النافذة قالت لي إنّ مصحاً بهذه الرتابة، والنظام، والنظافة، لا بد أن يرأسه ويديره إنسانٌ رائع وهي ذات النظرة التي دخلت فيها إلى مكتبه عندما طلبني... يبدو لي أنّه مزهوٌ جداً بنفسه (شهادات معلقة، صور مع وزراء ومسؤولين، ولافتة موزاييك تحيط باسمه) أعتقد أنه ليس بالرجل العظيم، هذا رجل ألقاب، وما أكدّ لي ذلك عرضه السخي من بدعة الهبات.

- مؤكد عندي أنك لن تقبلها؟

- طبيعي ألا أقبلها... لست بحاجة لها... أعرف ما عليّ أخذه مقابل ما أعطيه.

- قد يُغير هذا المصح نظرتك تلك بل وربما كلّ نظرياتك؟

- ماذا تقصد؟ كلامك مضحك.

- مضحك!! هذه الأضابير يا دكتور منتقاة بشكلٍ فظيع

- تكلم يا فارس في فمك الكثير من الكلام! وعلى لسانك ألغازٌ عليك البوح بها.

- آسف يا دكتور، سأصدمك بكلامي، ولكن هذه العينة من الأضابير ليست عشوائية، وليست من الصنف المستعصي شفاؤه وبحاجة لصاحب خبرة مثلك.

أومأت له أن يتابع وبأنني آذانٌ صاغية فاسترسل بالحديث:

- أسماء مرضى هذه الأضابير هي ذاتها أسماء الموارد المادية (منبع الهبات) وخبرتك ستفيده في سرعة الشفاء، وبالتالي يظهر بمظهر المستحق لهذه الهبات، وربما أكثر، حتى يشعر ذووهم بأنهم مقصرون بما كانوا يهبونَه دائماً، وأنّ هباتهم لا شيء مقابل العناية الفائقة بأولادهم، وثانياً سمعة حسنة ودعاية سريعة الانتشار بين أوساط الأغنياء الذين يُخبئون هذه الحالات، والإعاقات، في بيوتهم خجلاً، يعني في النهاية تجديد متواصل للموارد المادية هم يدفعون، وأنت تعالج، وهو يقبض.

- توقف، هذا كلامٌ كبير، ربما يكون أنانياً، ومستغلاً، ولكن ليس لهذه الدرجة، أنا أطلب دليلاً حتى أصدّقك.

- هذا إجحافٌ بحقي وبحق صداقتي لك.. لو أنك قلت لي هذا الكلام لصدقته فوراً، أنا هكذا أفهم الصداقة، ما تقوله

أنت كأنني أنا قلته والعكس صحيح، يعني أنت بمنزلة نفسي، ولكن أنت تنظر للموضوع في هذه اللحظة كبروفسور لا كصديق! وأنا أقدّر ذلك، ولذلك سأعطيك دليلاً، حسناً الدليل موجودٌ في الغرفة الأخيرة من الجناح الذي توجد فيه غرفة المدير.

- الغرفة الأخيرة!؟ ولكن ماذا يوجد في الغرفة الأخيرة؟

- يوجد كل ما يُثبت كلامي، ويؤيده على أنه يقين، وليس شكوكاً، ولا تسألني ثانيةً ماذا يوجد فيها؟ ابحث بنفسك، وبعدها يكون للحديث بقية.

شعرت بصدقه، وبألمه، وباحتقاره للمدير، وبكمية الخذلان التي خذلته بها إذ لم أصدقه من دون أدلة، ولذا ابتسمت ابتسامة صفراء، وغيرّنا الحديث من أضابير المجانين إلى دوي المدفعية التي بدأت دكّها المعتاد والرهيب.. لم أنم يومها جيداً، حدث معي كما يحدث مع المراهقين الذين يقرؤون ثلاثة أرباع رواية بوليسية، وتداهمهم توقعات الربع الأخير من الرواية في أحلامهم، مرتين أو أكثر رأيت نفسي أجتاز ممراتٍ معتمة ومخيفة، لأصل إلى باب الغرفة الأخيرة، أفتحها، لأرى وجوهاً تنتقل

صورتها المضيئة كالأشباح عبر الحائط بتماوجٍ سهلٍ يرافقه ضحكاتٍ وقهقهاتٍ مُرعبة إلى أنْ أفقت بمجيء الصباح ورائحة قهوة -ولا أطيب- تفوح من صينية يحملها فارس.

- صباح الخير يا دكتور.. يبدو أنّ تعب السفر قد حلّ على جسدك، فأنامك حتى هذا الوقت؟.

- صباح النور يا فارس.. لمَ تُعذب نفسك هكذا وتعتني بي إلى هذه الدرجة؟

- أتريد الحقيقة؟

- نعم، غير أنك تحبني وتعدّني أخاك الكبير؟

- غير ذلك، أملي بك ألا تستكين لهذا المدير، وأن تزيحه بقوة أخلاقك، وشهادتك من منصبٍ اؤتمن عليه غُبناً وغشاً من حيث قدّر أن وجودك هنا سيُدعم منصبه، وربما يرفعه أكثر إلى مراتب أكبر... كلّ الموجودين هنا خنعوا، وخضعوا بطريقة ما، وأنت الوحيد الذي حيّره، وحيّر تفكيره في إيجاد طريقة ما تُخضعك... المدير ذكي جداً، ويعرف أنك لا تبحث عن منصبٍ أو عن مالٍ وإلا ما كنت تركت ألمانيا، وجئت إلى دائرة

الحرب المشتعلة... أنت الوحيد القادر على فعل ذلك، قلبي يُنبئني وقلب المؤمن دليله.

- فارس، أنت تحاصرني بكلامك، وتضعني بمواضعَ لا أريدها لنفسي، أنا في النهاية بروفسور وهذه الأمور الشكلية لا تهمني.

- لأنك بروفسور، عليك أنْ تهتم بها، ألا يعني لك أيّ شيءٍ أن يحصل مريض على علاجه لأن ذويه أغنياء بينما يموت مرضى آخرون لأن ذويهم فقراء؟ ألا يعني لك أنْ تُباع أدوية بالملايين، وتُصرف فواتير بالملايين، ليرشو بها المدير من يُثبته على منصبٍ لا يستحقه؟ كيف تنام مرتاح الضمير؟ وغداً أو بعد غد ستعرف كلّ شيء ولكن في وقتٍ لا تستطيع معه عمل أيّ شيء.

- وهل أستطيع أن أفعل ذلك؟ أقصد، لا إطار للسلسة الوظيفية هنا! وأنا لا أعرف أحداً، وإن عرفت فلا أحد سيقبل أن أشرح له وجهة نظري.

- لو قلت أنا ذلك لعذرت نفسي... أنت لست بحاجة أحد، مؤهلاتك معك، وأنا أتنبأ بمستقبلك لأنك قادرٌ على

صنعه... علي أن أنتظر حتى تتخمر الفكرة برأسك وأعتقد أنه لن يطول انتظاري.

كنت أرتدي الروب الأبيض، وأمشط شعري على مرآة المغسلة، عندما رددت:

- لا تضيّع الوقت في الانتظار، فالوقت المناسب لن يأتي.

- بل سيأتي، وأنت من سيكره الانتظار، ولو كنت تحبّه لانتظرت حتى انتهاء الأزمة وعدتْ، من سبح كاسراً حاجز الخوف من العواصف البحرية، وجاء في عزِّ الحرب لن ترهبه أصوات جريان الماء في ساقية كهذا المصحّ... أنا ذاهبٌ إلى المدينة هل تريد شيئاً؟.

- هل لي أن أعرف وجهتك تماماً، ربما أوصيك على بعض الأغراض؟

- سأجلب بعض الأغراض من المشفى العسكري لأنقلها غداً صباحاً إلى المشفى الميداني الذي التحقتَ به... أنت تعرف، أنا رجل مؤتمن، ومعتمدُ عليه.

- حسناً، اعتبرني ضيفك غداً، وسأذهب معك، لدّي بعض الأعمال لأنجزها هناك... رافقتك السلامة.

تحاشيت الاختلاط بأحد.. أراقب بحذر، وأدقق بوجه كل مريض يحيط به معالج أو أكثر، وأحاول استذكار إذا ما كان له صورة بين الصور المرفقة بالأضابير، فاجأني المدير باتصاله على موبايلي! وداعياً إياي إلى مكتبه، لا أذكر أنني أعطيته رقمي أو أنني أعطيته وجهاً لدعوتي في كلّ مرة أخرج فيها إلى حديقة المصح.

في مكتبه جلس رجلٌ بلباسٍ عسكري، في الحقيقة كان منظره كاريكاتيرياً أقرب منه لمنظر قائدٍ عسكري، دائم الابتسامة والضحك، بدأ تعرّفه عليّ بسؤالٍ يشوبه المزاح والسخرية:

- أنت الدكتور المنزعج من تواجد فصيلة المدفعية بجانب المصح؟

- وأنت القائد العسكري الذي لم يجد مكاناً ملائماً في سورية كلها ليحارب إلا بجانب مصح عقلي؟ ولا تبدأ معاركه إلا مع بداية هبوط الليل، ولجوء الجميع للنوم؟.

عاد إلى قهقهته! ثم وجه كلامه لنا:

- كنا بواحد صرنا باثنين (إذا جن قومك عقلك لا يفيدك) لا تقل لي أنك معارضة مثل المدير؟ تُدخلنا بباب الوطنية والحوار وتخرجنا من مدخنة المدفأة الخشبية؟.

عرّفني على نفسه بنظراتٍ وكلماتٍ وديّة، غيرّت نظرتي الأولى عنه، لاحظت محاولة المدير إقحامي في شؤونٍ غريبة عني! ولذلك فضّلت التجاوب مع كلامهما بهز الرأس، والابتسامة الخفيفة.

مضى وقتٌ ليس بالقليل، وأنا استمع ولم أحط بصلب الموضوع، كلّ منهما يشد الحبل إلى صوبه، وفي النهاية عددته حديثاً أو حواراً بين طرشان، وأبعدت النوايا السيئة عن كلامهما، وأقنعت نفسي أنهما ضمن الإطار الطبيعي لحوار بين مدني مدير مصح وعسكري ضابط قائد فصيلة مدفعية.

عندما خرجت، لحق بي الضابط على الفور، ودخل معي بحديثٍ استشاري عن مرضٍ أصاب قريبةً له، كان لبقاً وهو يتوسع في شرح الحالة، فلقد أدخل عدّة جملٍ في شرحٍ يوضح به

لي عن صلة الرحم معها، ويعتذر عن إتعابي وإشغالي بموضوع اعتقدَ أنه قد يكون ثقيلاً، فهمت لمَ اتصل المدير بي! وأرجح أنَّ العقيد لم يقتنع بكلامه مطلقاً أو بالحل الذي اقترحه بجلب قريبته إلى المصح، فما كان منه إلا أنْ أردفهُ إليّ لغاية طبية أو لغاياتٍ في نفس يعقوب، في النهاية وصفت له بعض الأدوية، وشرحت له طريقة العلاج، وقبلت دعوته لاحتساء فنجان قهوة مساءً في مكتبه، وتابعت جولتي المرصودة خطوة بخطوة من نافذة المدير! ومن أعين الكثيرين ممن يسمون أنفسهم أطباء أو معالجين! ساقتني قدماي إلى أقرب نقطةٍ ممكن أن ألمح ما هو موجودٌ داخل الغرفة الأخيرة من خلال نافذتها دون انتباهٍ من أحدٍ، بدت كما لو أنها غير مسكونة، أطلت وقوفي ثمّ ذرعت الممر المطل جيئةً وذهاباً، علّي ألمح شيئاً، وبالفشل باءت محاولاتي اللهم عدا عن سماعي تلاوة قرآن ثمّ صوت(تشويش) يشبه ما يصدر عن تغيير موجات الراديو، فعكفت عائداً ومصمماً أنْ أدخل الغرفة من بابها، إلا أنني غيرت رأيي، وأجّلت ذلك إلى الفترة المسائية خشية لفت الانتباه، وإثارة ضجة ما حول تحركاتي.

في الفترة التي فصلتني عن موعدي، درستُ عدّة أضابيرٍ مما استلمت دراسةً أكاديمية من خلال برنامجي الحاسوبي، فصدمني التمثيل البياني لعلاج بعض الحالات، والذي أستطيع شرحه بأنه خطٌ تصاعدي إلى مرحلة ما قبل الشفاء، ومن ثمّ استقرارٌ أفقي، يتبعه انحدارٌ صغيرٌ نتيجةٌ لإيقاف الدواء وجلسات المعالجة! ليعاود نشاطه تدريجياً نحو الصعود والتعافي، أكثر من نصف الحالات نهجت هذا المنهج، وهذا باللغة العلمية معناه شيءٌ واحدٌ فقط، هو أنّ المعالج أيّاً يكون، أدرك في لحظة ما اقتراب المريض من الشفاء النهائي، فأوقف علاجه قاصداً متعمداً لفترةٍ ما! ثم عاد إلى الصواب وإلى الطريق الصحيح في المعالجة، يعني أنه يعرف ما يفعل، يعني إنّ وراء الأكمة ما وراءها، يعني أنّ أسلوباً ملتوياً يُتّبعُ في طريقة العلاج، يعني أنّ هناك سرّاً يعرفه المدير، ويحاول أنْ يستشف مدى خبرتي في اكتشافه، يعني أن لم أصحح هذا المسار فأنا مشترك فعلي في هذه الجريمة اللا أخلاقية، أو ربما يعني ذلك كله أنني الفاعل، وأنّ سكوتي بمنزلة كتمانٍ وتكتم على الفاعل الحقيقي، لأن الموضوع ليس خطأ بشرياً بل إصرارٌ شيطاني على الخطأ، وإصرارٌ إجرامي على بقاء الاضطراب العلاجي سيد

الموقف، وكأنّه حدثٌ طبيعي نظامي ومنتظم، احتفظت بفظاعة هذا العمل الشنيع كمعلومة في رأسي لوقت حاجتها، وارتديت ثياباً رياضية حازماً أمري بالكشف عن السر المختبئ خلف باب الغرفة الأخيرة.

الممر معتمٌ وطويلٌ، وأنا لا أعرف موضع القابس الكهربائي، وأمشي حذراً كما لو كنت لصّ دجاجٍ مكسيكي، تُجفلني أصوات المدفعية المتناوبة، فاستأنس بالأضواء الخافتة المنبعثة من تحت الأبواب الخشبية المغلقة، قرعت الباب بهدوء، وحين لم يفتح أحد، فتحته بنفسي ودخلت، جوٌ ضبابي أحاط بي، كوّنته عشرات السجائر المُدخنة في غرفةٍ موصدة النوافذ والباب، ترتيبٌ عشوائي لأثاثها، استوقفتني علاقة(حمّالة) ألبسةٍ عُلّقَ عليه(أفرول) زيتي اللون وعليه رتبةٌ عسكرية أظنها مقدم(نسر ونجمة) وقفت أمام مرآةٍ مجاورةٍ أرى وجهي فيها مع إمعاني النظر بالرتبة، وإذا برأسٍ تكسوه منشفةٌ، ويدان تفركها بقوة على الشعر المبلل، يظهر لي في المرآة وقبل أنْ ألتفت سألني وكأنه معتادٌ على وجودي:

- ليس من عادة أحد زيارتي إلا إذا كان جديداً أو مخطئاً؟

- وكيف عرفت أنّ وجهي جديد طالما أنه لا زوار ولا زائرين؟

- قلْ لي: إنك تدخن، وتشرب المتّة، وبعدها نتحدث؟

- لا هذه ولا تلك، ولكن نتحدث، وأُفضّل أنْ نبدأ الحديث عن هذه (مشيراً إلى الرتبة العسكرية الموجودة على أكتاف الأفرول).

اقترب حتى كادت عيناه تلامسان الرتبة العسكرية ثمّ أدار وجهه صوبي، وقال:

- من أنت؟ من سمح لك أنْ تدخل إلى هنا؟ لمَ تسأل عن هذه الرتبة؟ أصلاً لم تستأذن بالدخول، ولم تعرّفني على نفسك؟.

- أنا دكتور جديد، وإذا كان الدخان والمتّة يُهدئان من عصبيتك فأنا جاهزٌ لأدخن ولأشرب المتّة؟.

ضحك من كلّ قلبه، ودعاني للجلوس، فجلست متوجساً ولائماً نفسي على هذا المدخل الذي دخلته، إلا أنه بدد توجسي

بطريقةٍ لذيذةٍ نسيت معها سؤالي حول الرتبة، وحول سبب دخولي الرئيسي، اكتفيت بالتعارف الحار والتواعد على إعادة الزيارة بصفة صديقٍ رسمي، واعتذرت محتجّاً بموعدي الحقيقي مع قائد فصيلة المدفعية المرابطة بجوار المصح، ولَكمْ كانت سعادتي بالغة بوصول فارس، وموافقته مرافقتي لمكتب العقيد حيث اكتشفت صداقة متينة بينهما سهلت عليّ الدخول بمواضيعَ شتى، وأهمها الحديث المبهم لمدير المصح.

لم يكن بالصعب اكتشاف النظرة السوداوية المأخوذة عنه، ولأنني لم أخْبَره عن قرب، اعتبرتُ أذنيّ شريطي تسجيلٍ دونما اعتراضٍ أو تأييدٍ، لاسيما عن الفكرة الرئيسة التي دار حديثهما عنها وهي الحسد، الطبع الأكثر ظهوراً على تصرفات المدير، ولولا أنّ العقيد طلب مني التحدث بأيّة كلمة أو التكلم عما استطعت بخبرتي اكتشافه عن طبائع المدير لما نطقت بأيّ حرفٍ، ولذلك تحدثت بالعموم، قائلاً:

- يا جماعة، إنْ كان هو أو غيره بهذا الطبع فهي مسألة وقت ليتعرّى أمام الجميع، ويضع نفسه موضع النبذ، الحسد رذيلة

غبية لا تعود على صاحبها بأيّة فائدة، ومن المؤكد أنه مفعمٌ بالجبن، والعار، وبالخجل من هذا الطبع الذي لا يجرؤ أيٌّ كان على الاعتراف به.

تدخل العقيد ضاحكاً:

- حسودٌ أم غير ذلك، هذا طبعٌ لا يخصنا، ولكن أريد أن أعرف كيف لمثل هذا الشخص أن يبقى بمنصبه طيلة هذه السنوات، وهو من أكثر الجاحدين لكرم الدولة عليه! كلامه أقسى على قلبي من كلام المسلحين أنفسهم أو كلام المسوخ السياسيين الناطقين باسمهم.

هذا القول فاجأني، فعلى الرغم من متابعتي الحثيثة للأزمة السورية عبر الانترنيت من ألمانيا، فأنا لم أتوقع أنْ يتواجد رجل بهذه المواصفات التي يتحدثون عنها! وأقصد الصفة السياسية (المعارضة) بمنصب مدير أرقى مصح وعلى علاقة وثيقة مع وزيري الصحة السابق والحالي.

لم أشأ أن تكون زيارتي الأولى طويلة المدة ومتشعبة، ولذلك استأذنت عائداً إلى مكتبي مع فارس، وعشرات الأسئلة تستبق

خطواتي للوصول إلى المكتب، أطلقتها على الفور، وحتى قبل أن نجلس، ونتحدث عن موضوع العشاء الاعتيادي:

- أيّ سرٍّ تقصد وجوده في الغرفة الأخيرة غير الشاب المؤدب؟ لمَ لم تخبرني بالطبع المعروف عن المدير؟ ألهذه الدرجة يتكلم عن الدولة؟ أين الأمن؟ أين كتبة التقارير؟ أيّ أشياء تخبئها عني وعليّ أن أظهر بعد سماعها كالأبله؟ كيف تُسمي نفسك صديقي وتتركني وسط هذه المتاهات دون أيّة معلومة أستطيع من خلالها تجاوز المرحلة الأولى؟ ما هكذا تورد الإبل! ولا هكذا تبدأ الصداقة!.

- بل هكذا... أنت شابٌ نظيف بعقلٍ نظيفٍ، وقلبٍ نظيف، وعليّ احترام كلّ هذه النظافة، ولو استطعت إسكات العقيد لفعلت، عدم بوحي بما عرفته لتوك احترامٌ لطريقة تفكيرك التي تقتضي المعاينة بشكلٍ شخصي، والتحليل بشكلٍ منطقي، والحكم بشكلٍ عقلاني، بعيداً كل البعد عن العواطف التي قد تخفي عنك جوانب أنت بحاجتها لمعرفة الحقيقة كاملة ومن دون نقصان.

كلامه هدأ من روعي قليلاً، وخاصة بعد أنْ تابع قائلاً:

- أنا أعرف أنه من الصعب تقبّل كل ما سمعته، وفي داخلك نداءٌ يقول إذا كان أولها هكذا، فكيف سيكون تاليها؟ في الحروب تطفو كل أنواع الفساد، وأشكاله، وشخصياته، فحاول أنْ تضبط أعصابك كما لو أنك في ألمانيا... تصرف كما أنت... لا تحاول أبداً القفز فوق طاقة احتمالك، وتأكد أنك ستجدني في الوقت المناسب... معك، وحتى النهاية.

- على سيرة النهاية.. الغرفة الأخيرة في نهاية الممر فيها شابٌ ذكي، وعسكري سابق، أليس كذلك؟

- تقصد طيّاراً سابقاً؟

- طيّار!؟

- نعم طيّار، ومن الطيّارين الشجعان أيضاً، ولقد أبلى بلاءً حسناً في هذه الأزمة.

- كل هذا ونهايته هنا في الغرفة الأخيرة! أيّ سرٍ تُخبئه حكاية هذا الطيّار؟

- ما عليّ قوله إنه لا يلقى العناية التي تليق به كمريض في هذا المصح أو التي تليق بتاريخه كطيّار خدم بكل إخلاص أو لا تليق بنا، أقصد إدارة المشفى كاحترامٍ لمهنتهم، ويمينهم الطبي، والباقي الذي يسبق هذه المعلومة عليك أنت معرفته بنفسك.

- حسناً، لا تقلق لقد داويت في ألمانيا عسكريين كانوا أصعب منه حالة، وبظروفٍ أعقد مما أنا فيها الآن، عليك الاهتمام بخطة رحلتنا غداً إلى الكتيبة الطبية.

- اعتمد على فارس وانسَ، وهذه ليست جملة فلسفية التقطتها بل حربية على مبدأ الصواريخ (أطلق وانسَ).

كان وصولنا في اليوم التالي مبكراً جداً، ولقد اضطررنا لشرب أكثر من فنجان قهوة حتى استيقظ قائد الكتيبة الطبية بعينين لم أعرف إذا ما كانا محمرتين من كثرة النوم أم من قلته؟ سألني وهو يُغرش برمشيه:

- ألست طبيب المجانين؟ ما الذي أتى بك ثانيةً؟

- جئت أتعلم بعض الإسعافات الأولية.

- هل تسخر مني؟ خريج ألمانيا وجئت تتعلم في مشفى ميداني!

- إنْ لم يكن لديك مانع؟

- عندي ألف مانع ومانع... طبيب مجانين لا يصلح أن يكون هنا، جنودنا لا يفقدون عقولهم... ربما يفقدون أيّ شيء إلا قلوبهم الشجاعة، وعقولهم، أتفهم؟.

أثار إصراري على المشاركة، والتعلم حفيظته، وشكّه بأني قدمتُ لغير ذلك.

- اسمع يا دكتور، إنْ كان أحدٌ ما قد قال لك إنّ غيابك غير مسوّغ فأنا جاهزٌ لإعطائك إجازة كلّ خمسة عشر يوماً، المهم أنني لا أريد طبيب مجانين بيننا، فلو سمحت إنْ لم يكن لديك عمل، فدعنا نعمل.

لم يكمل كلامه حتى بدأت سيارات الإسعاف بإطلاق زمورها المرعب، وهرول الجميع بمن فيهم نحن لإنزال الجرحى، وما إن يسمع الممرضون نداء فارس لي: (يا دكتور) حتى يبدؤوا باستشارتي، أنقطب جرح هذا؟ أنحيل هذا لغرفة

العمليات؟ أيحتاج هذا للعناية المشددة؟ وأنا أصرخ كالواثق من نفسه: افعل ما هو مناسب أنا سأتابع الحالة الأخطر، وحين يحرجني أحدهم مُجهزاً لي المبضع أو إبرة الخياطة الطبية أنادي غيره وأصرخ به: (أكمل هذا العمل البسيط سأفحص جرح غيره) هكذا إلى أنْ هدأت الأمور، وكان قد مرّ علينا من الوقت أكثر من ثلاث ساعات، ختمها قائد الكتيبة الطبية متبسماً في وجهي:

- صحيحٌ أنك لم تقطب جرحاً، ولم توقف نزفاً، ولكنك أبليت بلاءً حسناً في الإدارة والتوجيه! أنا أرحب بك متى شئت التعلم، والمساعدة.

طبعاً كان يوماً شاقاً، ومتعباً، ومؤلماً بالنسبة لطبيبٍ أنهى دراسته العليا، ولم يرَّ أو يشاهد مرةً في حياته جرحاً مفتوحاً حتى العظم أو فتحةً أحدثها عيارٌ ناري اخترق الجسد أو دماً نازفاً، كلّ كلام الفلاسفة والأطباء النفسانيين لا يوقف نزفه ولكن للحق أقول: كانت بداية جيدة لتعلم المبادئ الأولية للإسعاف، وأولها تقوية القلب، وفتح العيون، والتدقيق بطبيعة الجرح، ومعرفة حاجته.

كانت هذه الحادثة بمنزلة جواز عبورٍ سُمح لي بعدها الدخول إلى المشفى الميداني في الوقت الذي أشاء، ورب (مصادفة) خيرٌ من ألفِ ميعاد!!.

عدنا والعود أحمد، كلٌّ إلى فراشه، ولو سمح لي فارس بالبقاء نائماً، لأكملت الأربع والعشرين ساعة دون أن أتقلب أو أحرّك ساكناً من أعضائي المرهقة كليّاً بحيث لم تستطع أصوات المدفعية إحداث أيّ اختراق كالعادة التي كانت أخفضها قوةً تخلخلني داخلياً وخارجياً!.

- سيمضي الليل بأكمله دون أن تشرب القهوة أو تتناول الطعام أو تزور صديقك الطيّار!.

- لا أنوي زيارته الآن، سأذهب غداً لإجازتي الرسمية... أنا غير متزنٍ، سأستعيد تركيزي النفسي والعقلي، وبعدها سأتفرغ لصديقنا الطيّار.

- ألهذه الدرجة تؤثر فيك أجواء العائلة؟

تأثرت بالبريق الحزين الذي تلألأ في مقلتيه الهاربتين إلى كلّ شيءٍ إلا النظر في عيني، فوقفت خلفه متأبطاً عنقه كأخٍ صغير، وأجبته:

- عائلتي... كالترانيم التي تنعش الروح أو كضحكات المطر التي تبلل بالحُبّ كياني، وأجواء عائلتي كفراشٍ من ريش النعام تذيب تعبي وتسرقه دونما منّةٍ عليّ، وإذا لزم الأمر تتحول من فراشٍ ناعم إلى مصدٍّ عتيٍّ يحمي شخصيتي من أعاصير الحياة، ما بك يا فارس؟.

مسح بباطن كفيه دمعه ثمّ ابتسم بحزنٍ عميقٍ، وقال:

- ولمَ لا أبكي؟ كم تزيدني من العمر؟ سنة، سنتان، ثلاث ولديك عائلة - أسعدك الله بها - تقلق عليك، وتنشغل بهمومك، وتنتظر لقاءك بعد كلّ غيابٍ قصرَ أم طال، أما أنا فلا عائلة لي إلا تلك التي أقلق عليها، وعلى مصيرها المتآكل فقراً وعجزاً، عائلةٌ إن سألت عني لا تسأل إلا جوعاً أو مقتاً!! وهل من بصيصٍ ليكون لي عائلة مثلك؟ سنة، سنتان، ثلاث... لقد سرقت منا هذه الأزمة أخر بصيصٍ للأمل! من اختار أنْ يتحدّى القدر ليحيا منذ بداية عمره مستقلاً سيلوي القدر عنقه، ويرغمه على متابعة هذه الاستقلالية إلى أنْ يموت، لا أحد ينتصر على أقداره لأن الأقدار ليست من صناعة البشر... هل ستطيل إجازتك؟.

هذا يعود لك، و لنشاطك في تأمين مؤونة المصح؟

- لم أفهم! ما علاقة نشاطي بإجازتك؟

- ستذهب معي، لأعود معك، اللهم إلا إذا ما كنت تعتبرني غريباً عنك لا أخاً، ولا صديقاً، ولا تقل (كيف؟ ولكن) إما أنْ تعتبرني أخاً، وتلبي دعوتي وإما أدفع لك أجرة توصيلي إلى الكراج كأيّ غريب؟.

- ألن يستحي البروفسور من السفر بسيارة (سوزوكي) كسيارتي؟

- بل سأفتخر بك، وبسيارتك... أحسب حسابي ببعض صناديق الفاكهة كهدايا عائلية.

استهجن الجميع وصولي على متن السوزوكي باستثناء ايفا التي وجدت فيها ساحة جميلة وآمنة لتلعب «مارينا» على متنها لعبة جديدة، وما كان من أبي إلا أنْ أشار لي خلسةً بحاجبيه لأتبعه، ومن دون مقدمات، خاطبني:

- ولدي، متى ستعرف أنك أتيت من ألمانيا؟ هنا سورية، والناس الموجودون هنا سوريون، وفي اللحظة التي سيجدونك

فيها راكباً «السوزوكي» سينسون شهادتك العليا وبدل أن يتهامسوا عن عظمة ما حصلت عليه يا دكتور، سيجهرون بالقول وينادون عليك بـ (أبو السوزوكي) المظهر هنا يتساوى مع باطن العقل إن لم يتفوق عليه، وبالمناسبة آن لك أن تشتري سيارة فارهة كي يعرف الناس من أنت! لأنهم سيمحصون عن كيفية حصولك على المال، وسيتأكدون من أن علمك هو الذي عاد عليك بهذا المردود.

- الموضوع ليس موضوع سيارة فارهة، أنا أحببت أن أشارك فارس بعض تعاسته، وبؤسه، وأحزانه.

- شاركه كيفما تشاء، ولكن ليس أمام من يعرفك ويعرفنا، أرِ الناس من مظهرك ما يشتهونه حتى ترى منهم ما تشتهي من الاحترام لعقلك، ولباطن تفكيرك.

- مع أنها حكمة جيدة، ولكن ما نفع المظاهر الجيدة إذا كانت ستبعدنا عن جبلة طبائعنا، وعن غبار أرضنا، وعن المحبة الحقيقية لأصدقائنا؟ وفي النهاية أنا احترم نفسي، فسيحترمني الجميع عاجلاً أم آجلاً، وبغضّ النظر عن شهادتي.

- في النهاية منطق الشارع هو من سيُطبق هنا، وعلى الجميع، لأنه منطق النفوس، وبالتالي هو منطق المجتمع، وهو من سيحكم علينا، ولا أريد لأحكامه أن تقسو أكثر مما هي قاسية**.**

من اللحظة الأولى، مُنح فارس شعوراً بالآلفة، والاحتضان من جميع أفراد العائلة، وعُومل كما لو أنه واحدٌ منا، حتى ايفا التي تعلمت بعض الكلمات نطقاً ومعنى، صارت تناديه **(**أخي فارس**)** وكم كان يضحكنا استغرابها عندما يناديه أحدنا بـ **(**أبو الفوارس**)!.**

لم أرَ في حياتي شاباً قادراً على ملء أوقاته كفارس**!** حتى في هذه الإجازة كان هو سبب تحريضنا الأول للخروج من قوقعة البيت إلى بيارات الليمون المنتشرة بكثافة، وبنفس الوقت السبب الأكبر لسعادتنا، وخاصةً سعادة ايفا التي لم تَغمض عيناها فرحاً برؤية «مارينا» تجمع معه الزهور بسلةٍ صغيرة، أو تتسابق معه، وأحيانا تتعارك، فيتظاهر بالسقوط أو يلاعبها لعبة الصياد والعصفور، وما إنْ تطلق عليه النار من فمها الصغير **(**بم بم**)** فينوء وهو يهوي باتجاه الأرض حتى تغرق هي بالضحك، وتنادي أمها لتشاهد فعلها العظيم، وبراعتها

في الصيد، وفي النهاية يحملها على رقبته، ويُحمّلني كيساً فيه بعض الأعشاب أو الحشائش الخضراء ليطبخها لنا، وما ألذه من طعم مُستساغ لا تُنسى نكهته!.

أضاف فارس بحيويته جواً مرحاً للأجواء النهارية التي تحياها العائلة ككل، أما ليلاً فكانت سهرتنا الشبيهة بالأحلام الهادئة على شرفة بيتي الجديد، مليئة بالأحاديث الممتعة والمشوقة، مارينا كانت تغفو في حضنه، وهو يغني لها (يلا تنام يلا تنا لأدبحلا طير الحمام، روح يا حمام لا تصدق، بضحك ع ماري لتنام) يحملها بكلّ حنان إلى فراشها المحضّر، يُقبلها ويعود ليحدثني قبل جلوسه عن روعة الحياة الأسرية التي أحياها:

- لا بد وأنّ اللحظات الأسعد في حياتك تلك التي تقضيها مع أسرتك؟

- أعتقد ذلك، كلّ ما هو خارج حدود الأسرة مجرد طريقة، وأسلوب لاستمرار العيش، هنا تكمن الحياة الأساسية، وهنا تشعر بعظمة الحب والآلفة.

- هذا صحيح، لا أعرف لمن قرأت أنّ العائلة إحدى روائع الطبيعة، وأنتم هنا أكبر دليلٍ على هذا القول، إذ تمكنتِ الطبيعة من جمعك مع السيدة ايفا على الرغم من البعد الجغرافي الكبير لبلدنا سورية عن ألمانيا، وعلى الرغم من الفارق الكبير في طبيعة الحياة، وأسلوبها بين المجتمعين، وفي النهاية مارينا الحلوة، وأعتقد أنّ شعورك بالأبوة لا يُضاهى؟.

أنا أبصم بالعشرة على كل ما قلته وقولك عن إبداع الطبيعة بتكوين الأسرة هو لـ (جورج سانتايانا) يُلخص كلّ شيء يمكن أن يُقال عن عظمة إنجاز الفرد بتكوينها، بالمناسبة يا فارس سمعت كثيراً قبل سفري أنّ الله يبارك ويساعد في الزواج والإعمار، وبما أنني أعتبرك أخاً صغيراً فيدي ستكون تحت يد الله في مساعدتك، هذا وعد، المهم أنْ تخرج من السجن الذي سجنت نفسك به في هذا المصحّ أم تريدها عروساً مجنونة؟.

- أحياناً كثيرة أفكر بذلك، وأتمنى أن أعيش حياتي مثلك، وأشعر بشعور الدفء، والطمأنينة، والأبوة، إلا أنّ الخوف والقلق يسيطران عليّ، ويعيدانني إلى نقطة الصفر... أنت تفهم

عليّ؟ لا أريد عبئاً جديداً على كاهلي، وأن أردت فلا أريد لهذا العبء أن يقاسم مردودي المادي مع أمراض والديّ، وحاجاتهما المُلحة مع اشتداد هذه الأزمة.

- أوافقك، ولكن إنْ فعلتها فهذا إنجاز يفوق إنجازي بتكوين عائلتي، سيكون إنجازاً فوق العادة، وعليك أنْ تأخذ بالحسبان أنّ العائلة التي ستكونها أهم بكثير من العائلة التي تحيا معها ولأجلها، وأضف لذلك أنّ وجود أنثى في حياتك عاملٌ كبيرٌ لتحدّي الحياة، وللانتصار عليها، المرأة هي المتكأ، والساعد، والسند، والرفيق الذي يحمي ظهرك... المواجهة شرسة، ووحدك لن تصمد كثيراً.

- أنا أريد الحياة والحياة فقط... مثلك ومثل الآخرين... بيت صغير، و زوجة تدير شؤونه كما تدير رقبتي رأسي، وطفل أو طفلان أشعر معهما كم كان أهلي يحبانني... عائلة نموذجية بسيطة ألوذ بها وإليها من هذا العالم الذي لا قلب له، ولا أحاسيس.

- يا إلهي كم حكمة نطقت في حديثك! أنت ممتعٌ في كلامك إمتاعك في صمتك.

- ربما، ألا يقولون خذ الحكمة من أفواه المجانين؟ أنا عاشرت المجانين خمس سنوات، وحياتي معهم وهبت لي منحة الحكمة... أتعتقد أن هذه المنحة ستكون لي لو خالطت العقلاء أو من يظنون أنفسهم عقلاء خارج المصح؟

ضحكنا كثيراً مع ايفا التي ترجمتُ لها كلامه فعلقت:(مجنون من مصح أفضل من عشرة عقلاء خارجه) وعلى هذا التعليق تابعنا ضحكنا إلى أن أيقظنا مارينا فانهينا سهرتنا، وآوى كلّ منا إلى فراشه.

في اليوم التالي شهد معنا فارس مشهداً مأسوياً أعتقد أنه نسف كل ما شحنته به، وشجعته عليه من السعي لإنشاء أسرة... تحجرت دمعته، وهو يتابع حركات طفليّ أخي، سواء المحمول منهما على حضنه أم المتمسك برجله، وكلاهما يُقبّل والده كأنّه اللقاء الأخير بينهم.. كان ينقل نظره بين الفينة والأخرى باتجاهي كمن يقول لي: ألهذا المشهد تريدني أن أصل؟ ناورت كثيراً كي أتهرّب من وقع نظراته، وما زاد الطين بلّة زوجتي ايفا التي التقطت صورتين أو أكثر، ثمّ بكت حاضنةً مارينا بقوة، ثمّ غادرت كما غادر الجميع للتلويح له،

ولرفاقه الذين ركبوا باصاً صغيراً خاصاً «سرفيس» لينقلهم إلى خط الجبهة الأول على الحدود الشمالية الشرقية لمحافظة اللاذقية، ولم أمنح فارس أيّة مهلة للتفكير بالمشهد، ولذلك باغتّه بالكلام رشاً (كما يقولون) دون النظر إليه، وقبل أنْ ترسخ هذه الصورة في رأسه، وتتحول إلى صدمة:

- من أجل الوطن كلّ شيء يهون، سياج الوطن يحتاج إلى تضحياتٍ شتى، كلّ على قدره، وحسب طريقته، أنا مثلاً ضحيت بحياةٍ رغيدة في ألمانيا، غيري ضحى بماله، وأخي وضع روحه برسم التضحية، الوطن الذي سيورث أولادنا الأمان يحتاج إلى هذه التضحيات، وأكثر.

- نعم، وأكثر، تقصد الحزن؟ أعلينا أنْ نَشِمَ أنفسنا بالحزن لنرث وطناً آمناً؟ ألا يوجد وطن للفرحين؟ هل يُشترط علينا ارتداء الحزن، وتجرّعه، وكتابته كعلامة فارقة في بطاقاتنا الشخصية، لنرث وطناً أو نُورثه؟ ما أكثر ما أشاهد حالات استثناء لهذه القاعدة... أنت لا تعرف الكثير لأنك جديد، ولم تسنح لك فرصة لسبر طبقات هذا المجتمع.

- يا صديقي، أيام هذه الأزمة لا تختلف كثيراً عن سابقاتها... ظلّ الحزين حزيناً مع زيادة التضحية، وبقي السعيد سعيداً مع زيادة النعيم... الفارق الوحيد بين حزن ما قبل الأزمة وما بعدها، أننا كنا نلقى من يواسينا أما الآن فلا نستطيع مواساة أنفسنا، إنه الحزن الذي يودي إلى الضياع، وأنا لست أنانياً، ولا أحب أن يضيع معي أحد، لا زوجة ولا أولاد.

قال كلامه هذا، وخرج يحمل مارينا عن أمها، وذهبا في نزهتهما البريئة، وفي المساء كنت أقرأ التقرير الذي أعدته ايفا قبل أن ترسله إلى الصحيفة الألمانية المتعاقدة معها، وهو بعنوان (الحياة في سورية بعد ثلاث سنوات من أزمتها... كلّ شيء مستمر الإرهاب، والحب، والتضحية!) تقصدّتُ قراءة أحد المقاطع بصوتٍ عالٍ لاسترعي انتباه فارس الذي كان يقوم بمهمته المحببة، ويغني لمارينا لتنام.

- ما تزال يوميات الحرب على كلّ لسان... لقد سرقت هذه الحرب طبيعة الناس هنا... لا أحد يعرف كيف يمتلك الحزن كلّ هذه المقدرة الهائلة لمداهمة البيوت، والأحاديث، والعيون... لقد ابتعد الفرح رويداً رويداً حتى تاه، واختفى

خلف كواليس لا مجال لفتحها أو لكشفها، حتى الطفولة لم تسلم منها لقد عُجنت ذاكرتها البريئة بمشاهدَ شتى، منها ما هو طبيعي عبر الجنائز اليومية للشهداء أو تقني عبر الصور التلفزيونية أو المقاطع الكثيرة لتحركات الجنود، والمحملة على أجهزة الموبايل، المهم أنّ ألعابهم صارت تتقمص دورين لا ثالث لها، أفرادٌ من الجيش العربي السوري، وأفرادٌ عن الإرهابيين الخاسرين طبعاً في كلّ مراحل اللعبة.

السمة الأساسية الآن هو الحزن! والعجيب أنّ الجميع تقبّل هذا الحزن! وعدَّه قرباناً في سبيل تطهير البلاد من رجس الإرهاب... في سورية الحزن ثاني كل واحد، وثالث كل اثنين، ومع ذلك فالحياة لا تتوقف!! ما أعظم هذا الشعب الذي اختاره الحزن رفيقاً، وتوأماً، ومأوىً دافئاً! ومع ذلك تعامل معه بكلّ حضارة، ورقي، وجعله أيقونته، وهو يدافع الآن عنه ليُنقيه من شوائبه، وليعيد إليه ألقه الحقيقي، والطبيعي، وليحمي منبعه في قلوب العاشقين، والخاشعين، والطيبين.

مع نهاية المقال المترجم غفت مارينا، وشرد فارس إلى ما وراء الكلمات، بدا وهو يسلم الطفلة لأمها كرجلٍ أُخضع

لتنويمٍ مغناطيسي من الدرجة الأولى، ثمّ أفاق من شروده القصير، وكأن فكرة ما لمعت في ذهنه:

- من كتب هذا المقال؟ أنتَ أم زوجتك؟

- سؤالٌ غريب!! زوجتي طبعاً... لمَ تسأل؟

- من غير المعقول أنْ يحذف أيّ عقل ما تلقاه من إعلامٍ كاذبٍ خلال ثلاث سنوات، ليضع مكانه الحقيقة... ليس بهذه السهولة! عبقرية فائقة هي العبقرية التي تميز الحقيقة بهذه السرعة وتنسف الأكاذيب، والأضاليل بهذه القوة... أنا أغبطك على زواجك من ايفا... إنها قطعة نسائية نادرة.

- أنت تبالغ، لا تحتاج الحقيقة إلى هذا المقدار الكبير من الذكاء، والعبقرية... يكفي أنْ تحياها لمدّة قصيرة حتى تُثبتها لوقتٍ طويل.

- بل تحتاج لأكثر من ذلك في عالمٍ يُقدس الكذب، ويرفعه إلى مستوى الحقيقة، ويُدنس الحقيقة، ويحتقرها كما لو كانت كذباً، والذي جعلني أقول عنها هذا الكلام، كثرة أتباع الضلال، وقلة المسترشدين.

- هذه سنة الكون.. الهداية هداية القلوب.

- إذاً، سأدعو الله أن يهدي قلبي إلى ابنة حلال كزوجتك..

غرقنا في الضحك، ولم نتوقف إلا بإشارة ايفا المستعجلة أنْ اخفضوا صوت ضحكاتكم قبل أن تفيق مارينا.

اليومان الباقيان، ذخرا بزخمٍ كثيفٍ لزيارات أخواتي وأزواجهن، وأولادهن حتى أنّ هذه الكثافة أجبرت فارس على سؤالي:

- دكتور، ليس من عادتي التدّخل فيما لا يعنيني، ولكن كلّ ضيوف اليوم هم أخواتك بالتأكيد؟ لقد فاقت أعدادهم مع أزواجهن، وأولادهن العشرين! ما أكبر عائلتك!.

- فارس، العائلة تبدأ بالولادة وبالقدوم إلى الحياة، وتكبر بكبر الحب الذي في قلبك، ليس شرطاً توافر دمٍ شبيهٍ داخل شرايين الناس حتى يكونوا من عائلتي، الشرط الأساسي أن تحمل الود والمحبة كما في قلبي.

- أستبقى إجاباتك فلسفية معي؟

- أبداً، هي طبيعية مع فيلسوفٍ مثلك.

غادرنا القرية مودعين بذات الحفاوة التي استقبلنا بها، كانت عيناه تحملان أملاً معكوساً عن نشوة الروح.. استسلمت في الطريق للنوم إلا أنّ الحواجز حرمتني متعته، ولذلك آثرت التحدث معه على مضض من جفوني التي تحاول الإطباق بين كلّ كلمتين أقولهما أو أسمعهما.

- فارس، ألم تُدعَ إلى الخدمة الإلزامية؟

- بلى، منذ سبع سنوات ولكنها أرجعتني إلى والدي مع إعفاءٍ أبدي من كل أنواع الخدمات(الإلزامية والاحتياطية..) لقد اكتشفوا في الفحص الأولي أنني بكلية واحدة.. أتصدق أنا تفاجأت أيضاً؟.

- تفاجأت بأنك تملك كلية واحدة؟

- لا، تفاجأت بأنني فاقدٌ لكلية واحدة!

- وماذا فعلت بعد ذلك؟

- لا شيء، عملت في عدة أعمالٍ شاقة حتى تمكنت من شراء هذه السوزوكي ثم تعهدت الطعام في المشفى، وما زلت.

- أتكون كليتك أحد أسباب عزوفك عن الزواج؟

- أبداً، هل أخبرك سراً بمناسبة هذه السيرة؟ رؤية الأطفال المشردين، ورؤية أهلي المتعبين بلا مهتمٍ يرعاهم، كانا السببين الرئيسين في عزوفي عن الزواج، إلا أنّ الإحساس الذي حركته بي مارينا، وشعوري بالآلفة المكونة بين أفراد عائلتك، سحقا وقطعا هذه الأسباب.

- هذه بشرى سارة، إنْ شاء الله قريباً.

- إن شاء الله بعد الأزمة. إنْ بقيتُ حياً أولاً. ولم أُجنَّ كصديقنا الطيّار ثانياً

- الطيّار الطيّار، يا إلهي كيف نسيتُ الطيّار؟ هذه أول مرة أنسى فيها مريضاً!! هذه ليست عادتي! سابقاً كان هوس الحالة يلاحقني، ولا يتركني بحالي إلا بإيجاد الدواء الناجع لها.

- على هونك يا دكتور، حالته لا تستدعي أن تلوم نفسك إلى هذه الدرجة، وأرجح أنّ بقاءه في المصح مصلحة مشتركة له ولذويه، وهو مقتنعٌ أكثر منهم بأنّ خروجه أو شفاءه سيكون بمنزلة كارثة.

- وإنْ كانْ، أنا أتكلم عن مبدئي الطبي، والنفسي، والعملي... نسيانه خطأ لا يجوز أنْ يتكرر... ماذا لو كانت حالته خطرة وتستدعي المتابعة اليومية؟ علينا أنْ نضع أسوأ الاحتمالات لتكون نتائج متابعتنا إيجابية هذا من ناحية، أما من الناحية الثانية فما تقصده بمصلحة مشتركة؟.

- اقتربنا من المصح، تناول الفطور، وبعدها تصرف كما يشاء مبدؤك لتعرف ما يلزمك، الأضابير موجودة، والغرفة موجودة والطيّار حيٌ يُرزق.

- ألك علاقة معه؟ هل جالسته من قبل؟

- ربما أكون أكثر الموجودين على اختلاطٍ معه، ومع ذلك لم أتجاوز حدود السلام! لم يسمح لأحد بمجالسته! رفيقاه اثنان المتّة والدخان، قطعت نصف الطريق لعلاجه، والآن ترّجل من السوزوكي لنفطر سوياً ثمّ لينصرف كل منا إلى عمله، أنا إلى السوق، وأنت إلى نصف الطريق الباقي مع الطيّار.

فضلت الاطلاع على إضبارته أولاً، فاتصلت مع المدير ليرسلها إليّ مع الآذن، لاحظت ارتباك كلامه، ومحاولته

التمويه عن وجود طيّار، ولكنه في النهاية خضع لطلبي متعذراً بعدم معرفة وظيفة المريض المقصود صاحب الغرفة الأخيرة، قرأت بفضولٍ زائد وبدقة متناهية كلّ جملة كُتبت في إضبارته، وفي تقارير المشفى العسكري، هناك شيءٌ هام ومفصلي في حالته، الطيّار نال تسريحه بناءً على إصابةٍ جسدية، ولم يُلمح أيّ تقرير لوجود حالة عصبية أو نفسية، ستة أشهر قضاها في المشفى العسكري، وستة أشهر أخرى في بيته، ثمّ حلّ ضيفاً وأظنه ثقيلاً على قلب المدير، وعلى من سار بركبه من معالجين وموظفين، أجريت تحليلاً منطقياً لكل المعلومات الموجودة، ووصلت إلى نتيجة بخصوص الفترة المحتمل أصابته فيها بمرضٍ نفسي، وهي فترة الشهور الستة التي سبقت حضوره إلى هنا، إذ ليس من الممكن أن يكون على رأس عمله طيّاراً ومجنوناً**!** وغير الممكن أيضاً أن يُصاب بمرضٍ نفسي يوصله إلى هنا في فترةٍ الحياة فيها أفضل بألف مرة من الحياة العسكرية، إذاً هناك تراكمات قديمة، ربما سنة أو سنتان أو أكثر، وصلت فيها هذه التراكمات إلى حدٍ لا يُطاق في فترةٍ كان من المفترض فيها إزاحة هذه التراكمات لا تفجيرها**!!**؟؟

ارتديت لباساً رياضياً كي أُبعد عن ذهنه أيّة فكرةٍ طبية، وكأيّ صديقٍ دخلت بمجرد سماعي لكلمة تفضل، جو الغرفة يختلف مئة وثمانين درجة عمّا رأيته أول مرة، نافذة مفتوحة، سرير مرتب، طاولة نظيفة، ولا أعقاب سجائر في المنفضة! وهو يقف أمام المرآة يُعطر بالكالونيا وجهه الحليق، رحبّ بي بأجمل ما يكون الترحيب، وجهزّ لي كأس متّة وريثما يسخن الإبريق، أدخلني في حديثٍ وديّ عن العائلة، والأولاد، ولما رددت أسئلته عليه، أشعل سيجارة حمراء طويلة، وصبّ المتّة، ثم أجاب:

- أنا لست متزوجاً... تستغرب أليس كذلك؟ كنت خاطباً ثمّ انفصلنا، لم يحصل نصيب... ظروفٌ لعينة... من هم في عمري، أولادهم دخلوا الثانوية.

- يعني أنت بالأصل متأخر حتى بالخطوبة؟

- نعم، لم يكن بمقدوري تجهيز بيت، ومتابعة مرض والديَّ ولذلك لم أفكر بهذا الموضوع، ولما تمكنت من ذلك وتعرفت على بنت الحلال، جاءت الأزمة لتكشف الحياة بكل مفرداتها البشرية، والطبيعية، والمادية، وغيرها من أقنعتها المتعددة، أنا

شخصياً لم ارتدِ أيّاً منها... سبحان الله لم يناسبني أيّ قناعٍ على الرغم من الخيارات الكثيرة المطروحة أمامي! ولذلك غضبت الحياة مني ورمتني في هذا المصح.

- مؤسف جداً أن تكون طيّاراً ويسوق الوضع المادي حياتك بهذه الصعوبة... في ألمانيا الناس تحسد الطيّارين لما يلقونه من حياة الرفاهية.

- هذا يحدث في كل بلدان العالم حتى في الصومال وجيبوتي... انسَ انسَ لا تفكر في الموضوع.

- حتى لو نسيت ذلك، كيف أنسى مثولك أمامي؟ طيّار في مصح!!؟ هذا مؤسف أكثر مما قبله.

- على العكس تماماً، لو كنت أعرف فوائد هذه العزلة وميزاتها لخرجت سلفاً من المشفى العسكري إلى هنا، أنا لست مجنوناً، ولا يمكن أن أكون كذلك، أنا عاقل هرب من جوقة مجانين، من جوقة سفلة لا ضمير لهم ولا حسّ، هربت من بؤرة مجتمعية لا هم لها إلا (اللهم أسالك نفسي) على الأقل هنا لا أحد يكترث بأحد، هنا أنت معزولٌ حتى عن الذكريات

التي تلتصق بك بمجرد رؤيتك للأماكن وللأشخاص، أنا هنا أفضل من أن أكون خارجاً.

- يعني أنت لا تطمح للخروج من هنا؟ إلى بيتك؟ إلى أخوتك؟ إلى ناسك؟

- إنْ جئتني زائراً كطبيبٍ بلباسٍ رياضي فحاول إخراجي إلى الجحيم أو إلى صحراء قفراء نفراء ولا تُعدني إلى من اسمهم أخوتي وناسي! أنا لا أخوة لي ولا ناس.

- لم آتك كطبيب، وإنْ كنت لا تصدقني قدّمْ لي سيجارة حمراء لندخن سوياً.

- شتّتُ أفكاره بتنويع الأحاديث لأنني حصلت على المعلومة التي أريدها ثمّ استأذنت فرحا بامتلاكي نصف العلاج، ومعرفة ما يجب عليّ فعله، ووصفه.

- غيرتُ ملابسي لأعود طبيباً حقيقياً، وسجلت ملاحظاتي في إضبارته، وكان أولها أنّ الطيّار يملك نفسية رائعة وقابلة للعلاج السريع، وثانيها أنّه ذكي ويتعامل مع المصح وكأنه مركز سياحي هادئ مناسب لقضاء فترة نقاهة طويلة الأمد،

وثالثها أنّ المثل القائل(وداوها بالتي كانت هي الداء) مناسب جداً لحالته، وطالما أنّ الأخوة والناس أوصلوه إلى هنا فعليهم إعادته أو إيجاد أناسٍ يقومون مكانهم بالمحبة والمعزّة لإعادته إلى حياته، وما كان عليها، وطبعاً هذا ما اقترحته أنْ يكون الحل الأنجع، وما اقترحته على نفسي لأكون أنا الدواء فأؤدي واجبي كطبيبٍ أولاً وأؤدي واجبي كصديقٍ ثانياً.

خرجت بجولتي المعتادة أستطلع عن بعد عملية الاندماج، وطرق المعاملة المُتبعة، وأقترب من بعض الحالات المنزوية حتى أتمكن من سماع كلامهم إذا ما كانوا من النوع المتكلم مع نفسه، وأحياناً أتحدث معهم ببطء، وببساطة في حدود التعرّف، وقياس مدى الحالة النفسية عن طريق أسئلة تُعتبر بالعلم النفسي(أسئلة كمين) وعندما ابتعد أسجل على مفكرتي كلّ ما حصلت عليه.

بعد حادثة توزيع الهبات لم أتعامل مع أيّ طبيب أو معالج أو موظف، وصممت على معاندة نفسي الاجتماعية المُحبة للتجمع وللأحاديث الجماعية، أظهرت على وجهي ملامح الثقة بالنفس، والعلو، والكبرياء، والغرور، وتقبّلت مُجبراً

نظراتهم الهاربة من نظراتي أو المتشائمة من حضوري، سجلت في مفكرتي أنه يومُ عارٍ في حياتي، ولكنه الأصلح للتعامل في مجال يعترف بالماديات أكثر من اعترافه بالإنسانيات.

أمضيت وقتاً طويلاً في دراسة الحالات العشر المُرسلة سابقاً من قبل المدير، ووضعت ملاحظاتٍ شتى حول كلّ واحدةٍ منها، وعندما قارب الظلام من الهبوط غادرت غرفتي قاصداً غرفة فارس، وهي في الطابق الأول، وقبل نهاية الممر المتعامد مع الممر الذي تقع فيه غرفة المدير، قرعت الباب مطولاً، ولم يردّ أحدٌ عليّ! فأجريت اتصالاً معه، فعلمت منه رغم سوء التغطية أنه قادم بعد دقائق، وإنّ الغرفة غير مقفلة، وأستطيع الدخول ريثما يصل.

أكبر من مفاجأة ما شعرت به! وأنا أنقل نظري في مكتبة تحوي مئات الكتب العلمية، والأدبية، والنفسية. خشيت مع رؤيتي لها أن أكون مخطئاً بالغرفة أو ربما تكون هذه الغرفة هي المكتبة التي حدثني عنها فارس بأنه دائم الاستعارة منها، أحبطت صورته المُكبرة ظني هذا، ولذلك بدأت أتصفح

بهدوء عناوين الكتب الموجودة في القسم النفسي والتي بدأت ببعض مؤلفات سيجموند فرويد كـ(قلق الحضارة، الحلم وتأويله، النظرية العامة للأمراض العصبية) وبعدها (الخجل) لراي كروزير، و(أصول الدافع الجنسي) لكولون ويلسون، و(تعليم التفكير) لأدوراد دي بولو، حتى كتاب(علم نفس الطفل) لأوليفيه هودي كان موجودا وإلى جانبه أحبّ الكتب النفسية إلى قلبي (الإنسان يبحث عن نفسه) لكارل يونغ وسلسلة طويلة انتهت بكتابٍ اسمه (من السجون إلى الحرية) لبيير داكو، أخرجت كتاب (جوهر الإنسان) لإريك فروم وبدأت بتصفحه، تذكرت معه أيام اهتماماتي الأولى بالمطالعة المكثفة في ألمانيا، لذيذٌ جداً رؤية صديقٍ قديم كالكتاب، ورائعٌ جداً وجود شخصٍ هنا مهتمٍ بأمثال هذا الكتاب كفارس الذي قرع الباب المفتوح بسرعة، واقتحم ذكرياتي مع الكتاب.

- أهلاً وسهلاً دكتور، أعتقد أنك سعيد جداً بإعادة تصفح هذا الكتاب النادر؟

- أهلاً بك، كأنّك في قلبي، وعقلي، هذا ما أشعر به.

- طبيعي جداً لحائز درجة تعليمية مثلك أنْ يكون هذا الكتاب قد مرّ بين يديه، وأنْ يكون معجباً به، ومتمتعاً بأفكاره.

- أنت تمتلك مكتبةً رهيبة!

- هذه خمس سنواتٍ يا دكتور، أتعتقد أني قضيتها مع المتّة والدخان أو أني استمتع بالإقامة هنا لخاطر الخضار والفواكه؟ لولا هذه الكتب لمللت الإقامة، والعمل، وربما حياتي.

- أنت مثقفٌ من الطراز الأول! في مكتبتك شتى أنواع الكتب! فارس إلى أيّ صفٍ وصلت؟ حرامٌ أنْ تكون بهذه الدرجة من الثقافة دون أيّة متابعة للتعليم؟.

- عادي، أنا اخترت المجال الذي يبقى مع تقدم العمر، ولقد وجدت للثقافة اليد الطولى في البقاء بعد أن ينسى المرء الكثير مما تعلمه في المدرسة أو في غيرها.

- أحسنت (تبقى الثقافة هي الحاجة العليا للبشرية) كما قال الرئيس حافظ الأسد -رحمه الله- كان فيلسوفاً عظيماً مع أنّ الناس لا يروون إلا الجانب السياسي منه.

- هل تكتب يا فارس؟

- أكتبْ؟! لا، لا أكتب... أنا أقرأ كثيراً، وأناقش كثيراً في الأشياء التي أعرفها، وأسأل كثيراً عن كلّ شيء لا أفهمه أو أجهله، القراءة والمناقشة تجعلانني كاملاً ومستعداً دائماً للانخراط بأيّ حديثٍ يُفتح أما الكتابة فلم أجربها... حسبي بمتعة القراءة... لا أريد أن أكسب متعة على حساب أخرى.

- أنا أنصحك بالكتابة، فوحدها من تستطيع سبر معلوماتك، ومدى رسوخها في ذهنك.

- ربما يا دكتور، ولكن لا رغبة عندي بتنفيذ هذه الفكرة، وأنت تعرف تأثير الرغبة في التنفيذ؟

- حسناً، ربما أُنمي لديك هذه الرغبة لاحقاً... لقد جئتك في أمرٍ آخر.

جلست أشرح له تحليلي النفسي لشخصية الطيّار، وأوصلته إلى أنّ مرضه النفسي هو مرضٌ (رشحي أو كريبي) ومعنى ذلك أنّ مرضه مشتق ممن حوله، وأنّه بسيط طالما يتأمن الدواء، وأول جرعة من هذا الدواء هو المحادثة، والمجالسة، والمصادقة،

وبالملخص المفيد هو المريض، ونحن جرعات الدواء الواجب تناولها مرة أو أكثر كلّ يوم.

- خير البرّ عاجله، ما رأيك بأن تعرفه على ميزات الدواء قبل تناوله خشية التأثيرات الجانبية؟

ضحكنا، وخرجنا باتجاه الغرفة الأخيرة، وقبل الدخول شعرت بأن أحدهم يراقبنا إلا أنني لم أخبر فارس بهذا الشعور لأن أصوات المدفعية بدأت بالدوي.

هزّ رأسه مستقبلاً، ومن دون كلام أومأ لنا بالجلوس ريثما تنتهي أغنيةٌ كان يسمعها، أعجبتني كلمات الأغنية لدرجة أنني انسجمت معها، ولم أعرف مُغنيتها ولم أذكر ما إذا كنت قد سمعتها قبل سفري إلى ألمانيا، كلّ ما عرفته أنّ أحاسيسي ومشاعري توافقت مع أحاسيس الطيّار، وفارس، ومشاعرهما، ولذلك قررت كتابة كلماتها بالرصاص في مفكرة الجيب الصغيرة علّها تساعدني في توضيح كوامن نفس المضيف، ولأن اللهجة المصرية صعبة الكتابة فلقد كتبتها بسرعة بحيث أعرف وحدي ما كتبت (آيه يعني يقولوا عليك طيب، ما كفاية تكون مني قريب وكفاية تكون إنسان في زمان فيه طيبة العمر بتتعيب

يا طيب، خود قلبي وهات قلبك هاتو يا بو قلب حياتي بدقاتو، الحب دا عقد من الياسمين وقلوب العشاق حباتو، الحب دا عمر وغيرك مين يقدر يسعدني بأوقاتو، صدقوا يلي يحب في أيامنا طيب وكمان على نياتو).

- آه يا صديقي ما أجمل هذه الأغنية! إنها تضاهي كل الأغاني التي سمعتها في ألمانيا

- أنا آسف لأنني رحبت بكم بصمت، هذا راديو، ولو كان مسجلة لأطفأتها فوراً.

- الحمد لله أنّه راديو، وأنني سمعت هكذا أغنية في مثل هذا الزمان، أعرّفك على فارس متعهد الطعام في المصح.

- تشرّفنا، أعتقد أننا نعرف بعضنا جيداً أليس كذلك يا فارس؟

- مؤكد أنت الوحيد الذي استجيب لطلبه بشراء المتّة والدخان.

- وأنت الوحيد الذي أقبل أنْ أتعامل معه في هذا المصح.

- وأنا الوحيد الذي لا يعرف من صديق من في هذا المصح!

ضحكنا كثيراً، وشربنا أطيب كأس متّة ذقته في حياتي، لم نأتِ على سيرة أحد... تحدثنا في عموميات البشر (العمل ومدى ما يُشكله من كرامة الإنسان، الفقر وحمايته لنا من أصدقاء المصلحة، الفضيلة وأسباب اندثارها التدريجي، الحرب وقدرتها على إظهار الأوجه الحقيقية لكثير من أصناف البشر).

أمضينا ساعتين من الوقت دون أنْ نشعر به ودون أنْ نشعر بأنّ مُضيفنا موجودٌ هنا بصفة مجنون، بعد ذلك تناولنا عشاءنا في غرفة فارس، ودخلنا في حديثٍ طويلٍ عن الثقافة، وعن طريقة اقتنائه، واختياره لهذه الكتب.

لم يبدُ فارس شاباً عادياً، ولو أنّه درس هذه الكتب دراسةً أكاديمية لكان شعوري بالحديث معه شعورٌ أخر يشبه شعور من يتحادث مع ندّه أو نظيره، لقد غلبني في الكثير من المجالات الثقافية كالآداب (الشعرية والنثرية) وتعادلنا تقريباً في الثقافة العلمية (الرياضيات والفيزياء والكيمياء وعلم ما وراء الطبيعة) وغلبته بكل تأكيد في مجالي التخصصي (النفسي والعصبي) ولقد سررت جداً بهذه السهرة التي اعتبرها رسمياً (سهرة من العمر).

هكذا بقي روتين حياتي، ثلاثة أيامٍ في المصح أقضي أغلبها مع فارس، وصديقنا الطيّار، واليوم الرابع أقضيه في الكتيبة الطبية، وفيها تعلمت كلّ الإسعافات الأولية، والطرق السريعة في تقدير الحالة دون الانبهار بفظاعة أيّ جرحٍ أو عمقه أو كثافة الدم النازف منه، وصارت أصابعي تقطب الجروح كما لو أنها تكتب وصفة طبية لمريضٍ نفسي، وبخطٍ واضحٍ وجميل لا كما يكتب الأطباء عادةً.

أكثر من شهرٍ على هذا المنوال، وعلى هذا الروتين المُكثف حقاً حتى استدعاني المدير مرّة للجلوس، وذلك قبل جولتي الصباحية في حديقة المصح.

- أهلاً وسهلاً بالدكتور، العزة والكبر لله يا رجل.

- أهلاً بك يا دكتور، أنت تعرف العمل هنا، وفي الكتيبة الطبية، والسفر والعائلة.

- ولو... اعتبرني (فارس) متعهد الطعام أو مريضك الخاص (الطيّار المدعوم)

- أرجوك لا تغمز ولا تلمز على أيّ شيء، تكلم بوضوح لإجيبك بوضوح؟

- اتفقنا أنْ تُعلمْني عن أيّ عملٍ ترغب بالقيام به أو عن أيّة حالة ترغب بمعالجتها، وأنت لم تفعل من ذلك شيئاً**!** حتى الحالات التي أرسلتها لك لم تُعلمْني إلى أين وصلتَ بها**!**؟.

- وصلت إلى نقطةٍ غريبٌ جداً مشاركتها لجميع الأضابير، معظم هذه الحالات كانت تتماثل للشفاء وعند هذه النقطة تمّ إيقاف علاجها بفعل فاعل**!!** أنا لست مختصاً بالأبحاث الجنائية ولكن ما يحدث يشبه الجريمة المنتظمة، وصمتي هذا ليس قلّة حيلة أو عدم معرفة بطريقة العلاج أبداً، وإنما هو تجميعٌ لخيوطٍ تدلني بما يقطع الشك باليقين على الفاعل الرئيسي لهذه الجريمة.

لاحظت ارتباكه، وتلعثمه ثمّ ابتسامته الباهتة لأتأكد قطعاً أنه وراء هذه التفاصيل، وإن إرساله هذه الحالات إليّ لم يكن بغاية دراستها أو وضع الوصفة الطبية المناسبة، وإنما هو فصلٌ ضروري لتوريطي في حال اكتشف الأمر، ولو بعد أمدٍ بعيد.. أفهمته بطريقةٍ ما أنّ هذه القصة لن تفوتني، ولست بالغبي الذي يستطيع توريطه، وبأنني سأبقى على صمتي حيال ما حدث بشرط الإسراع بتمام المعالجة، ومن استفاد من هذه

الحالات فصحّة على قلبه وهنيئاً، وليتهيأ من يحاول الاستفادة بعد هذه الجلسة للمحاسبة العسيرة، المُثبتة بالدلائل، وبالشهود، والأضابير المصورة، والمحتفظ منها بعدة نسخٍ في مكتبي وفي غير مكتبي... كادت روحه أنْ تخرج لولا أنني عجلت الخروج دون أنْ أشرب شفة قهوةٍ واحدة من الفنجان الذي فاحت رائحته حتى عبقت في قمة «نافوخي»، لقد عرفت ممن صادقتهم أنّه ذئب، ولهذه المعرفة حضرت فأسي، والحمد لله كان استخدامي لهذه الفأس موفقاً، فقطعت رأسه من الصدام الأول، ولقنته درساً لا أظنه ينساه بسهولة.

بعد خروجي من المكتب، شعرت شعور من ألقى عن كاهله حملاً ثقيلاً كان يعتله منذ زمنٍ بعيدٍ، ولأول مرة اتجه في وضح النهار باتجاه غرفة صديقي الطيّار مصمماً الدخول بمرحلة العلاج، ولاسيما بعد أنْ وصلت علاقتنا الثلاثية إلى مرحلةٍ تجاوزنا فيها مرحلة الثقة التي تسمح ببوح الأسرار أيّاً كانت صفتها، وأيّاً كانت تحمل من درجة الخصوصية، وعلى الفور جلست، وأخرجت من علبة المتّة ما يملأ الكأس، صببت الماء الساخن، وأخرجت من علبة السجائر سيجارة

حمراء، وبدأت بتدخينها بشراهةٍ! فاقت شراهته على التدخين! كنت أمعن النظر إلى مقدمة السيجارة المتقد، وأتذكر بآسفٍ كلّ ما قلته في محاضراتي وإجاباتي عن التدخين، أنا بالفعل أشعر بالتهدئة، ومع كل سحبة تتكسر عندي قواعد النظريات النفسية عن مدمني الدخان، وتنكسر نظرتي السلبية عن التدخين!.

ظلّ ينظر إليّ مبتسماً مذهولاً، وأنا أدخن كمدمنٍ لا يعنيه أبداً نظرة الناس إليه.

- كنتَ عند المدير أليس كذلك؟

- نعم كنتُ عند هذا اللعين... حاولت المشي إلى جانب الحائط اتقاءً للمشاكل فأبى إلا هدمه عليّ، وحاولت الابتعاد عن شره فأبى إلا تلويثي.. ظنّني فريسة سهلة المنال.. مجرم ووقح!! ولكن أنت كيف عرفت أنّه السبب؟

- بسيطة كل عمل شرير وسيء مردّه إلى الشيطان، وكلّ عمل شرير وسيء في هذا المصح مردّه إلى هذا المدير... أتعتقد قبولي بالكلام معك عن عبث؟ لا، وإنما أنا قارئ جيد... هذه النافذة هي غلاف كتابي، والناس الموجودون هنا هم مفرداته،

وأنا أقرأ جيداً المفردات، والسطور، وما بين السطور، أنسيت أنني طيّار سابق، وصلب عملي يتلخص في المراقبة الخارجية الجيدة، وفي التدقيق بتدريجات العدادات، وعلامات التسديد على صغرها؟.

- لا، لم أنسَ، أنت حالة مغرية لأيّ طبيب نفساني، ومفخرة لأيّ شخص يصادقك، والحمد لله إنني أقوم بالدورين.

- ربما أكون الأولى، ولكن هل أنت متأكد من الثانية؟

- أكثر من الأولى صدّقني.

قرع صديقي فارس الباب، سلمَ وأنزل حمله، أخرجه من غلافه الكرتوني، وإذا به مسجلة جميلة، وأصلية مع كثير من أقراص (CD) وسماعة وطلب من الطيّار انتقاء قرص لنسمعه جميعاً.

نظر إلى عيني، وأعاد كلّ كلامي الذي قلته له قبل ثوانٍ

- أنت طبيب رائع لأيّ حالة جنون، وصديق أروع لأيّ شخصٍ يصادقك.

- ربما أكون الأولى، ولكن هل أنت متأكد من الثانية؟

- أكثر من الأولى صدّقني.

ضحكنا من قلبنا، وشاركنا فارس الضحك كالطفل البريء الذي يضحك مع أهله دون معرفة السبب.

اختار أولاً وضع (CD) لتلاوة القرآن الكريم علّها تكون فاتحة خيرٍ واختار منها سورة (الرعد) إلى أن وصلنا إلى الآية التي تقول (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) الرعد ٢٨ أوقف المسجلة، وأعاد بصوته الآية ذاتها ثمّ وجّه إليّ سؤالاً:

- كيف عرفت يا دكتور أنني أحبّ سماع القرآن الكريم؟

- من الناحية العلمية أنت تشكو من اضطراب ذي منشأ خارجي، وأكبر دليلٍ على ذلك هدوءك النسبي بعد إقامتك هنا، وطبيعة هذا المنشأ خارجي بشري بالتحديد، ولا علاقة له بالعمل أو بالإصابة، ولذلك فضّلتَ عدم الاختلاط مع أحدٍ هنا خشيةً منك أن يكونوا مشابهين لمن هم بالخارج، وهذا المرض يخمد ويُشفى بالانشغال عنه، وللأسف أنا لم أشعر بوجود أيّة هواية لديك (لا ترسم، لا تعزف، لا تكتب..) تسمع وحسب! فجلبت مسجلة لأذنيك، ومجموعة(CD) القرآن الكريم لقلبك، أمخطئٌ أنا أم مصيب؟.

- بل مصيب، وبقلب الهدف.

- يعني يحق لي أنْ أسألك سؤالاً بعد إصابتي الهدف؟

- يحق لك أنْ تسأل بدل السؤال عشرة؟

- كيف لطيّار أنْ ينتهي به المآل إلى مصح؟ وإنْ كنت تريد الحقيقة، فنظرتي كطبيبٍ لك تبرهن على أنّك أعقل من أيّ عاقلٍ هنا.

- يا إلهي، كأنها ورطة، أنا سمحت لك بأسئلة بسيطة لا بسؤالٍ يحتاج لسرد قصة عمري كاملة من الولادة إلى هذه اللحظة، ما رأيك لو تقسط أسئلتك؟ وخذ راحتك سأجيبك بكل سلاسة.

لم أنْبُسْ بأيّ حرف، لأن دوي المدفعية أصمَ آذاننا، هذه أول مرة تطلق المدفعية في عزِّ النهار مما أثار استغرابنا! فتبادلنا نظرة السؤال، وإجابة الشفتين بجهل السبب، حاولت الاتصال مع العقيد قائد فصيلة المدفعية إلا أنني لم أسمع شيئاً، فآثرت الخروج باتجاهه لاستبيان السبب، لم تكن أخباره بالمريحة، بدا وجهه مكفهراً عابساً، متناسباً مع كلّ خبرٍ سيءٍ يُعلمني به من

الأخبار التي تتضمن تقدم الإرهابيين، وانسحاب حواجز الجيش نتيجةً لكثافة الرمايات الإرهابية عليها.

- الأمور ليست بخير، هناك تقدم خطير على الجبهة الشمالية وتقدم أخطر وأسرع من جهة الشرق، وإنْ استمر هذا التقدم فسنجد أنفسنا شبه محاصرين، وأخشى أنّ هذا اليوم بات قريباً إنْ لم تتدخل القيادة العسكرية.

- ماذا تقصد بـ (إنْ لم تتدخل)؟ يعني ممكن أنْ تتركنا؟

- ليكن الله في عونها، من حقك أنت أنْ تسأل هكذا سؤال، ربما لأنك لم تُحطْ إحاطةً وافية بما يجري على هذه الأرض! الجيش موزع على أكثر من ثلاثمئة وخمسين جبهة، وأغلبها مشتعل بذات الدرجة، يا صديقي الدكتور لم تبقَ أمة وضيعة في هذا العالم، ولا نظامٌ حقير إلا وأرسلوا مجانينهم إلى هنا ليقاتلوا.

- مجانين!؟ المجانين طيبون ولا يقاتلون؟

- آ... عفواً منك أنا أعتذر عن هذا التشبيه... أقصد مجرميهم الذين قدموا إلى هنا دونما رادعٍ عقلي أو ديني يردعهم

عن القتل أو الموت... ومع ذلك فلا تقلق يا دكتور، سنكون بالمرصاد إنْ شاء الله.

عندما عدت إليهما كانت عيناهما تقدان أكثر من السجائر المشتعلة انتظاراً لسماع ما لدي، فأعدت على مسمعهما ما سمعته من العقيد، لاحظت توتر مضيفنا الطيّار من طريقة تدخينه، ما برح أنْ ألقى سيجارته بغضبٍ ثمّ ضحك وضحك بطريقةٍ مُخيفةٍ، وهدأ بشكلٍ مفاجئ ودونما استئذان تقوقع على سريره ناحباً بصوتٍ خافتٍ! أومأت لفارس بغمزةٍ من عيني، ألقيت عليه شرشفاً أبيضَ، وخرجنا بهدوء، وما كدت أغلق الباب حتى سألني فارس ماسكاً معصمي بقوة:

- ما الذي حدث له؟ شيءٌ غريب! هذه أول مرة يتصرف هكذا! هل هو مجنون حقاً أم غير ذلك؟ أريد أن أعرف مع من أتعامل؟!

- أنت تتعامل مع مريض نفساني، مصاب بمرض مزمن اسمه(الصدمة) ولن يشفى حتى يتلقى صدمة معاكسة، على مبدأ الفعل ورد الفعل، ودوي المدفعية منعنا من معرفة عوامل الصدمة، ولكن لابأس اليوم صبر وغداً أمر.

في الحقيقة خرجت في اليوم التالي من المصح باتجاه بيتي ومع ذلك لم يخرج المصح من بالي، ولأكون صادقاً فإنّ المصح برمته مع الطيّار، وفارس، وعقيد المدفعية، كلهم لم يخرجوا من بالي على الرغم من كثرة الأحداث المنوعة والتي حصلت معي في القرية، وأقصد بالأحداث المنوعة (المختلفة) المردود، والتأثير العاطفي، المفرح منه كزواج أختي الصغيرة أو تخصيص زاوية طويلة تُسمى (العمود الصحفي) لمقالات زوجتي ايفا في أعرق الصحف الألمانية تحت اسم (يحدث في سورية) وشراء سيارة فارهة من أموالي المؤمن عليها لدى والدي، ووضعها في خدمة ايفا، أما المحزن فانتقال أخي الذي يكبرني بسنتين لجبهة ريف درعا المحاذي للشريط الحدودي مع الكيان الصهيوني، وانقطاع الاتصال معه إلا في الهزيع الأخير من الليل، وأطول مكالمة تستغرق دقيقة، وتذهب التغطية بعد طول انتظار إلى غير رجعة! إضافةً لتشييع شهيدٍ من قوات الدفاع الوطني في الحارة المجاورة، والزيادة الكبيرة في التقنين الكهربائي والتي تعود بك إلى عصر القناديل، والشمع، وأجمل تعليق سمعته: (الكهرباء في سورية شُمَّ ولا تذق).

المهم أنني اشتركت كعنصرٍ فعال في كلّ هذه الأحداث بدءاً من رقص الدبكة في الحفل المنزلي الصغير، وانتهاءً بشراء مولدة كبيرة تكفي بيوت العائلة مع خط مخصص لإمداد بطاريات المجمعة الضوئية بالكهرباء كعملٍ طوعي مني يمنع انقطاع الهواتف الأرضية عن القرية، كلّ هذا وعدت إلى المصح بعد أن أفهمت زوجتي خطورة الموقف هناك، وتطوره، وضرورة إبقاء هذا الوضع سراً غير قابلٍ للبوح به مهما زادت الأمور تعقيداً.

أول عملٍ قمنا به أنا وفارس بعد ترجّلنا من السيارة كان الاستراحة عند صديقنا الطيّار، جذبتنا الأحاديث المسلية إلى القيم والفضائل، فلمعت بذهني فكرة مستقاة من قصة قصيرة لا أعرف إذا ما كان أصلها ألمانياً أو غير ذلك وملخصها أنّ ثلاثة صبيانٍ دخلوا إلى كهفٍ، فسقطت صخرة بعد دخولهم أغلقت بوابته تماماً، ولم يبقَ أمامهم من حلٍ للنجاة بعد أنْ حاولوا كثيراً إلا رحمة الله، ولتحل هذه الرحمة، وجب على كلّ واحد ذكر فضيلة كبرى قام بها، وهكذا انزاحت الصخرة قليلاً بعد أن ذكر الصبي الأول فضيلته ثمّ انزاحت أكثر مع فضيلة الثاني إلى أنْ انزاحت نهائياً بنهاية فضيلة الثالث، المهم أنني

سقت هذه القصة لأستوحي بعض ما مرّ به طيّارنا دونما أدنى شعور بأنني أمارس دور الطبيب، فقلت لهما:

- هذه الحرب لن تتوقف، ولن يغير الله منها شيئاً حتى نغيّر ما بأنفسنا، فإنْ غيّر الأغلبية نواياهم أبدلنا الله عن هذه الحرب خيراً وأماناً، وأنا بدأت من نفسي، ولم أسمح لكل مغريات ألمانيا، وحياتي الرغيدة أن تسرقاني من وطني، جعلته الأول في حياتي، ولم أجعل لما دونه أيّة مرتبة فيها، وجعلت شعاري الأسرة والوطن طريقي إلى الله، ولذلك حزمت أمتعتنا وإلى سورية خادماً وفياً، وجندياً أبياً... جاء دورك يا فارس.

-أنا لم يكترث بي أحد، أخوتي اقتسموا أرضنا الوحيدة فيما بينهم، والفقر لاحقني كظلي، عملت بمهنٍ لا طاقة لنفسي ولجسدي باحتمالها من فتح المجارير وتسليكها إلى أعمال البيتون وصعوباتها إلى أنْ تمكنت من شراء هذه السيارة فألقت أمراض والدايَّ ظلالها على كاهلي، وبقيت خمس سنوات استجدي وظيفة براتبٍ شهري، ودائماً الأفضلية لأصحاب الواسطات والرشاوي، وبقيت متعهد طعام أقبل بربح القليل الذي لا يقبل به غيري إضافةً لأجرة سيارتي، المهم أن يكفي

هذا المردود قوت بيتنا وأدوية أهلي، ومع ذلك وضعت نفسي وسيارتي في خدمة الجيش، وبالمجان أنقل لهم مؤونتهم وأدويتهم، وفي بعض الحالات أنقل عناصرهم وذخيرتهم، ما عليهم كان تأمين الوقود فقط، فهذا مالا استطيع فعله لغلائه أولاً ولندرته ثانياً ، وطبعاً هذا سر الصحبة والصداقة مع قائد فصيلة المدفعية.. جاء دورك يا حيّان.

تنهد ثمّ أشعل سيجارة، وأسند ظهره إلى مسند السرير، وطوى ركبتيه موجهاً نظره إلى السقف، ثمّ قال:

- أنا لا أعرف ما الذي سأقوله أو عن أيّة تضحية سأتكلم وأيّة خدمة أقدمها للوطن وأنا في مشفى مجانين؟ أنا لستُ مجنوناً، ولم أكن كذلك، اللهم إلا إذا اعتبرتماني - كما رفاق السلاح - مجنوناً بإقدامي ومخاطرتي في الهجوم على المسلحين، وبنفس الوقت أنا لست عاقلاً اللهم إلا في تقبّل وجودي هنا بكل هدوءٍ وسلاسة... اسمع يا دكتور، وإنْ شئت فسجّلْ... لم يكن الوطن يوماً للفقراء، ولن يكون... ربما لا يستطيع أن يمون على أحدٍ طالباً الإنقاذ مونته علينا، ولكن تأكد أنه وما إنْ

يتخلص من مصائبه حتى يعود مجبراً إلى قيودٍ حضّرها السفلة والأنذال.. الوطن دائماً رهن المؤامرات.. هذه سلسلةٌ طويلة، ولن يستطيع الوطن تمزيقها مهما حاول! لأنها تحولت إلى شبكةٍ عنكبوتية تحيطه ماضياً وحاضراً ومستقبلاً... المهم أنني كنت طيّاراً شرساً، أتخيل نفسي في كلّ طلعةٍ أنني أقود دبابة لا حوامة، ولذلك أنا دائم الاقتراب من الأرض، وهذه مخالفة جوية لأمان الطيران، وبعد كلّ مخالفة تحقيق، وبعد كلّ تحقيق عقوبة وحرمان من زيارة أهلي، وعلى ذلك سنوات لا أراهم في السنة أكثر من مرة أو مرتين، وإليهم أرسل راتباً تلو الأخر، وجميعها تصب في مشاريع أخوتي، وهذا يبني بيتاً، وذاك يشتري سيارة حتى اعتادوا على تقاسم فضلي، وعدّوه هبةً مفروضاً أداؤها عليّ، أنا أفقت من تصرفي متأخراً جداً، وسبب إفاقتي أطفال رفاقي الذين كبروا وكبروا حتى أنني لعبت مع أحدهم في إحدى السهرات لعبة (الطرنيب) كانت هذه السهرة موقفاً فاصلاً في حياتي، لم تذق عيوني فيها طعم النوم، تألمت على نفسي كثيراً، وكلّ هذا الألم لم يكن بشيء مقابل الألم الذي أحسسته من الشر الذي تملّك نفوس أخوتي عندما

حضروا ليتقاسموا راتبي، وباغتهم بقراري بناء بيتٍ، والبحث عن عروسٍ مناسبة، تذمروا وكأنني سأقتنص ما هم أحق به مني **(**راتبي**)!!** وتنصلوا من مساعدتي، وتحدثوا بالكثير من السوء عليّ في غيبتي، كان هذا قبل الأزمة بقرابة السنتين، بعت قطعة صغيرة من حصتي في الأرض المستثمرة من قبلهم سابقاً، وضممتها إلى جمعية مالية كبيرة أنشأتها من تجميع راتبي ورواتب الرفاق، وبدأت البناء، وربك أعانني، وما أنْ جاءت الأزمة حتى كنت نجمها الأبرز من بين الطيّارين، وذلك لأنني كنت محترفاً لفن الطيران المنخفض جداً، وبدأت المكافآت تنهال عليّ من كلّ الصنوف **(**أنقذُ مخفر شرطة، فيرسل لي قائد الشرطة مبلغاً، أنقل مؤونة لكتيبة صواريخ محاصرة، فيرسل لي قائدها مكافأة، أشتبك مع مسلحين داهموا مركز بريد، فيرسل لي مدير الاتصالات أو الوزير مكافأة، وبفضل الله، ونيتي الطيبة صار معي ما أكمل البيت به وأفرشه، وفي السنة الثانية عثرت على عروسٍ جميلة، نبتت كما تنبت وردة في عائلة أشواك، أعلنا الخطوبة، واتفقنا على عقد قراننا بعد سنةٍ تماماً، متعاهدين على بقاء الحب مهما طال غيابي المُشرِّف في سبيل

الوطن، قضيت سنة كاملة في حربي هي أحلى سنة في عمري، فرحة عظيمة عارمة كانت تغمرني، وأنا أحلق فوق جغرافيا بلادي (سهولها، جبالها، مياهها) وعلى أدنى من الارتفاعات التي كنت أُعاقب عليها في أيام السلم التدريبية، متعتي الكبيرة كانت الاستهزاء بمآسي الحياة، ومداولاتها، وبالحياة نفسها، ولذلك لم أكترث في أيّة مرة بأيّ كلامٍ يُقال عن المسلحين (أعدادهم، عتادهم) كنت أشجع من حصانٍ أعمى، لم يكن لطموحي حد في قتل أكبر عددٍ ممكنٍ منهم، هذا الطموح أوصلني إلى الجنون في مطاردتهم، واصطيادهم كما لو كانوا طرائد برية، إلى أيّ مكانٍ كانوا يفكرون بالالتجاء إليه كانت صواريخ حوامتي تتبعهم كالقضاء المبرم، أو كالهوى الأصفر الذي لا يترك منهم مُخبراً ينعاهم، ولكن كما يقول المثل الصيني: (الحصان الأصيل يخذل صاحبه مرة واحدة في العمر وعلى الفارس أنْ يكون متيقظاً لهذه المرة) عليه أنْ يكون حذراً بما يكفي لتدارك مباغتتها، وقسوتها، وهذا ما حدث إذ إنّ طائرتي تعطلت، وهي في طريق العودة وقبل الوصول إلى مطار الهبوط بثلاثة كيلومترات، كلّ ما فعلته أو أمكن فعله أنني

ابتعدت بها عن أماكن تجمع المسلحين أو احتمال تجمعهم، وساهمت مساهمةً فعالة في تخفيف صدمة ارتطامنا بالأرض، وبعد هذه الحادثة أفقت في المشفى العسكري، وكان أنْ مضى عليّ في العناية المشددة خمسة أشهر.

- الحمد لله على سلامتك... هذه معجزة... معجزة لا تحدث إلا مع أناسٍ لله إرادة في بقائهم أحياء... لابد وأنّ أمراً ما بالغ الأهمية بانتظارك، ولأجله أبقاك الله حياً.

- بالغ الأهمية أكثر من إقامتي في هذا المصح، وبصفة مجنون؟

- هونك يا حيّان، ألم تسمع قوله تعالى (لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) الطلاق١؟.

- سمعت، وهل غير القرآن يُهدِّئ خاطري المكسور ويجبره؟ لقد التجأت إلى الله، وظني به خيراً، إنّه لا يخذلني كما فعل أقرب المقربين.

- من تقصد بأقرب المقربين؟ أصدقاءك؟

- يا ليتهم كانوا الأصدقاء لكنت عذرت قَدَري، وأوقعت الحق عليّ بمنحي الثقة لأناسٍ غرباء عن تاريخي وعن تربيتي، إنهم أولاد أبي وأمي... أخوتي يا دكتور!!.

- حسناً، ما رأيك لو ندعك ترتاح، ونكمل غداً، أراك متعباً؟

- متعباً، نعم، ولكنني بحاجة لأتكلم.. الوجع يغلي في قلبي وأخاف أنْ يقتلني غداً إنْ لم أبُح به.. أنتما صديقاي، ومن حقكما أنْ تعرفا عني كلّ شيء، وإلا ما الفرق بين الصداقة والعلاقة العابرة؟ اسمعا هذا الحديث، فلربما تعجز الحياة عن جمعنا بهكذا ظرف، وهكذا مزاج هادئ.

- خذ راحتك، ولكن عدني أنْ تتوقف عن الكلام وتؤجله في اللحظة التي تشعر بها بالتعب، أنا صديقك وتهمني راحتك، ولكني قبل ذلك طبيبك وتهمني صحتك.

- حسناً يا صديقي، ويا طبيبي، أعدك إذا وعدتني أنت احتمال ما فعله بي أخوتي.. خذني بحلمك، واسمع ما كان بعد خروجي من المشفى، طبعاً لم تكن حالتي بالطبيعية، فأنا لا أعرف عدد العمليات التي أجريت لي، وأصعبها ما أجري لعمودي الفقري، وبفضل الله وحمده، وبإشراف نخبة من أطباء المعالجة الفيزيائية استطعت النهوض من فراشي بعد شهرٍ واحدٍ أمضيته بحيرةٍ فظيعة أخضعتني لها الصدمات المتتالية،

أولها: وعُدَّ يا صديقي على أصابعك أو سجّل في مفكرتك كونك طبيبي، وستحلل حديثي بعد مغادرتك كلمة كلمة... أنني سألت عن خطيبتي أو التي كانت خطيبتي بخاتمٍ(دبلة) وعهودٍ ومواثيق، فإذا بأهلها قد زوجوها بعد شهرين من حادثة الطائرة! وسافرت مع زوجها، إلى أين؟ إلى السعودية!! وثانياً أنّ أخوتي تعاملوا معي كما لو أني غريب أو كما لو أنهم غرباء، زيارات يومية مقتضبة! ربع ساعة أو نصف ساعة إذا ما أصرت أمي عليهم لشرب فنجان قهوة... وثالثاً أمي العجوز... وا... خجلتي منك يا أمي إلى يوم الحساب وا... خجلة حياتي التي أضأت بتواضعك، ورقتك، وخدمتك المتواصلة لي ليل نهار، أفل الناس رويداً رويداً، وشغلتهم الحياة والأحزان عن طلبي السخيف جداً (تسليتي) وبقيتْ أمي كنزي الحقيقي، وفي كلّ لحظة كنت أسترجع فيها عملي، وتاريخي القتالي ثمّ أقارنه بما يحدث معي، وأنا على فراش الألم، كان العالم بكلّ ناسه يصغر في عيني، وتبقى أمي كبيرة... نعم الكبيرة التي منحتني الأمل في عزِّ يأسي، والقوة في عزِّ ضعفي، والتعزية في عزِّ حزني، لم تقل لي يوماً هل تريد!؟ كانت تعطي بلا سؤال

وبلا منة!! لم تكن أماً فحسب، كانت كلّ شيء، وفي لحظة واحدة فقدت هذا (كل شيء)...

أمي ماتت بعد أن مكنتني من الحياة، حصلت على جرعة كافية من البهجة والسرور بشفائي، وماتت. ماتت بعد أنْ تأكدت أنني سأقف في أول الصف لأتلقى التعازي بفقدانها وأيّ فقدانٍ أكبر من ذاك، ماتت يعني جاءت اللحظة التي شعرت فيها باليتم كما لو أني طفلٌ صغير، والوحدة، والقسوة. صدقني اشتركت بما لا أستطيع إحصاءه من المعارك، ولم أشعر مرة بالخوف، وفي أول يومٍ نمت فيه وحدي في البيت تملكني خوف العالم كلّه ، أمي كانت أمني وأماني، وسلمي وسلامي.

(تنهد باكياً بصمتٍ وتابع:)

- عتبي الوحيد على أمي عتبٌ لم أصرح به خجلاً من عينيها وحتى بعد وفاتها لم أصرح به خجلاً من ذكراها، هذه أول مرة أعلنه لأنني أشعر بقداسةٍ ما تحيطنا... عتبي كان على بطنها الذي حمل ثماراً متباينة! فكان أخي الذي لم تفرق عنده حياتي عن موتي! وأخي الثاني الذي خيبتُ آماله ببقائي حياً! وأخي الثالث الذي أحبطت حياتي كلّ مشاريعه بالانقضاض على

أرث أمي، وعلى بيتي، وعلى تعويضي لأنّ الدولة قدّرت ما هو أصلح لي، فجاءني التسريح مكافأة رُجمتُ بها بعد كلّ ما فعلته، وهذه كانت القاضية.

- لمَ لا تهون الأمر وتعتبره طبيعياً؟ لست أول مقاتل يُحال إلى التسريح بسبب وضعٍ صحي، وإصابة حربية. عليك أنْ تزن الأمور بميزانها الحقيقي لا العاطفي... من الطبيعي أنت لا تستطيع قيادة الطائرة بعد كلّ ما ذكرت من عمليات عظمية وداخلية، وعليك أنْ تكون شاكراً لهم إذ قدّروا لك هذه الإصابة بمنحك الراحة مدى حياتك.

- ربما كنت أعدها هكذا لوعدت إلى أهلٍ وزوجة وأخوة.. أنا عدت إلى وهم بل إلى أوهام.. حقيقة الموت انتصرت عليّ، فأخذت أمي بلمح البصر إلى مثواها الأخير! وحقيقة الخيانة أخذت خطيبتي إلى زوجٍ غيري! وحقيقة الجشع أخذت أخوتي إلى أمنيات مجنونة باقتراب نهايتي! ثم تبعها يقينٌ ما كان لديّ شك به فإذا بأخوتي هم من حرض عائلة أهل خطيبتي على تزويجها بحجة اقتراب موتي! وهم من نفّروا الأصدقاء عني بحجة إصابتي بجرثومةٍ مُعدية! واستغلوا أمي حتى باعت كلّ

ما تملكه من أراضٍ وذهب بثمنٍ بخس بحجة شراء أدوية تكفّلت بها للمشفى مدة حياتي، وأخيراً كانوا السبب في إرسالي إلى هنا بحجة أنني أصبحت مجنوناً، وأُثقل على الناس بجنوني!.

- وما الذي كنت تمارسه حتى استطاع أخوتك إلصاق هذه التهمة بك؟

- لا أعرف! ربما تكون طبقة صوتي العالية، وأنا ألوم أحد المتخلفين عن الالتحاق بالجيش أو ربما تكون عصبيتي الزائدة على الجزّار الذي فاجأني بارتفاع سعر كيلو اللحم إلى رقمٍ خيالي أو ربما تكون الشكوى التي قدمها ضدي عامل صيانة الخطوط الهاتفية عندما رفضت رشوته، فرفض إصلاح خطي، مما اضطرني إلى جذبه من ياقته والتعرّض له ببعض الكلمات النابية التي تضعه بموضعه المناسب من السفالة والنذالة.. المهم أقنعوا الناس جميعاً بأنني مجنون أو جننت لأنني فقدت خطيبتي، وأمي، ووظيفتي. والحقيقة اتهموني بذلك لأنني رفضت التنازل عن حقي بالميراث، ولأنني لم أتابع معاملة التعويضات، ولم أمنحهم وكالةً بذلك، فقضيت بذلك على حلم أخي الأصغر باقتناء سيارة، وقضيت على حلم أخي

الأكبر بجلب أفضل المدرسين الخصوصيين لأولاده، والنتيجة توصية عامة ألا يبالي أحدٌ بي خارج هذا السور أو داخله، وعلى هذا الفعل كانت ردة فعلي... أنا أيضاً لم أبالِ بأحدٍ لا خارج هذا السور ولا داخله، فقمعت طبيعتي المستنفرة دوماً والتواقة إلى اللا مكان أو إلى المكان الخالي من الناس بالانعزال سواء كنت في بيتي حيث استقدمني منه طاقمٌ طبي أم هنا في هذه الغرفة.

- حكمُ الأشرار عليك هو الثمن الذي دفعته لقاء لا مبالاتك هنا في هذا المصح أو خارجه.

- ليس هذا موضوعنا يا فارس.. اسمع يا حيّان أريد أنْ أسألك بعض الأسئلة فهل تجيبني عنها؟ حسناً هل تعتقد أن مواجهتك هذه الحياة بالعزلة كان دواءً ناجعاً؟ هل حققت لا مبالاتك أيّة فائدة؟ هل أنت مرتاح الضمير بوجودك هنا وكلّ البلد تعيش حالة حرب؟ هل أخافتك أكثرية الفاسدين إلى درجةٍ صدّقت معها أنهم على حق، ففضلت الهروب إلى هنا؟ هل صدّقت نفسك أنّ الجمود الذي تحياه الآن هو الحقيقة التي تحميك من الأوهام؟ أبداً يا صديقي، أنت شجاع ولكن شجاعتك ليست بالقدر الكافي لتجعلك محباً للحياة، ولذلك

فضلت الموت بطريقة التخامد رويداً رويداً... لقد تقهقرت أمام إصابتك مع أنها مفخرة لك وللوطن، وتقهقرت أمام فشل خطوبتك مع أنّ الخزي والعار والكذب كانوا من نصيب العروس، وأنت طاهرٌ من هذا الخزي، وتقهقرت أمام موت أمك مع أنّ قوة الموت قوة ضئيلة إذا ما قورنت بقوة الحياة، وتقهقرت أمام جشع أخوتك فحولتهم إلى أبطال بأعين الناس بدل أنْ يكونوا الأوغاد المسيئين، وتقهقرت أمام تسريحك فعزلت نفسك لتطأ أول درجةٍ باتجاه الموت بدل أنْ تصعد إلى سلم الحياة الحرة التي يجب أنْ تحياها وأنت مرتاح الضمير لكلّ ما فعلته من أجل هذا الوطن، ومن أجل الحفاظ على أخلاقك، وقيمك الفاضلة.

لاحظ فارس طريقتي الزاخمة في توجيه الطيّار بذات الوقت الذي زاد فيه توتر حيّان، فحاول تهدئتي بإشارةٍ من أصابعه وهذا ما أكدَ لي صواب طريقتي الغاضبة في العلاج، إذ كان لابد من إيقاظه من هذه الصدمة بإحداث صدمة أقوى تعيده إلى رشده وإلى صواب الحياة التي عليه أنْ يحياها، ولذلك تابعت إنْ لم يكن بذات الحدة فبأكثر منها:

ـ اسمع يا حيّان أنت تعيش داخل نفسك معاركَ كبرى، وعليك أنْ تنتصر حتى تخرج من حالتك، ولن تنتصر فكرة الحياة لديك إذا ما اعتبرت أنّ الموت نتيجة مقبولة، أنا لا أقول إنّ العنق الأعزل يستطيع مقاومة السكاكين، ولكنك طيّار أتعرف ما معنى كلمة طيّار أم أشرح لك أنها تعني القتال على جبهات عدة وبكل جسارة؟ أنت انتصرت في مكانٍ معين فأبقيت لنفسك الطهارة، والطيبة، والحب. وخسرت في الجبهات الباقية.

- أيّة جبهات تلك التي تتكلم عنها؟ هل أستطيع إعادة أمي من الموت؟ هل أستطيع استرداد خطيبتي من زوجها؟ هل أستطيع إعادة نفسي إلى وظيفتي كطيّار في الجيش؟ هل أستطيع قتل أخوتي؟ هل أستطيع زج كلّ هذا الشعب الفاسد في سجنٍ كبيرٍ يستحقه؟ حربي مشؤومة ليس بإمكاني حسمها، لانتصاري فيها طعم الهزيمة، أتفهم يا دكتور؟ افْهمه يا فارس قبل أنْ أجن، وأصبح مجنوناً حقيقياً.

حاول فارس إسكاتي، وإخراجي من الغرفة إلا أنني أبيت السكوت، وصرخت:

- اسمع يا حيّان... اسمع يا طيّار... لا طعم لحياتك هنا، لأنك لا تناضل من أجل أيّ شيء، ولأنك رضيت أنْ تموت مهزوماً في كلّ يوم ألف مرة، وأقنعت نفسك أنّ الشرّ مع الأكثرية يصبح حقاً، وأنّ ثقافة القوة هي ما يجب أنْ تخضع لها نفسك... اسمع كلمتي الأخيرة، وبعدها أنت حر... عش كيفما تشاء وإنْ أردت حذفي من ذاكرة صداقتك فلا مشكلة لدي ولكن عليك أن تسمعني... أنت تُنقص من حياتك، وسيظهر على وجهك الهرم إنْ لم يكن هذه السنة فمؤكدٌ في السنة التي بعدها، كثيرون هم أمثالك من الموتى وإنْ لم ندفنهم إلا بعد سنواتٍ كثيرة، من لا أمل له سيفقد كلّ شيء حتى لذة الموت لن يذوقها... أنت قوي لأنّ قوة مارد يستطيع اقتلاع جبالٍ من مكانها تغلغل في نفسك، وضعيفٌ ضعف نملة لأنك تجهل مواطن هذه القوة.

- اصمت... اصمت يا دكتور، انتصاري مستحيلٌ لقد سلبوا مني كلّ نقاط القوة، لقد قيّد القدر يديَّ بسلاسلٍ من الصدمات، وأحاط إرادتي بسورٍ من الإحباط، لقد قتلني أقرب المقربين لي، قتلني الناس الذين عشت من أجلهم،

وأُصبت من أجلهم، وكدت أموت من أجلهم، فأيّ ألم أقسى من ذلك على المرء. أنت لن تشعر بألمي، هذه سنّة الحياة يسخر من الجروح من لا يعرف الألم... تكلم تكلم... من يده في الماء ليس كمن يده في النار.

- أنت عاجز، وأعجز من رأيت في حياتي، لقد سكن المستحيل حياتك، واستوطن قلبك، وعقلك، ونفسك، وروحك.

ارتفعت طبقة صوته حتى بدأ الناس من المجانين وغيرهم بالتجمع أمام باب الغرفة.

- من الطبيعي أنْ يُصيبني العجز أيها الغبي لأن الحياة الحقيقية ليست موجودة هنا! هي في مكانٍ أخر.

- آ... مكانٌ أخر فيه الموت هو المنتصر الوحيد.

- قيمة حياتك مستمدة من الموت الذي تعتبره شيئاً لا معنى له.

- بل أنا أكثر الناس احتراماً له... أتعرف لماذا أيها الطيّار المجنون؟ لأنني أحترم الحياة، وأحياها بكلّ عزيمة، وبكلّ

روحٍ عظيمة، وكلّ من يعارضني فيها أعتبره متوسط الذكاء أو غبياً مثلك.

- أخرج من غرفتي، وأنت أيها الأحمق الثاني أخرج أيضاً، لا أصدقاء في هذه الحياة، لا أخوة لا أخلاق كلكم حاقدون... كلكم غامضون.

عندما وصلنا إلى باب الغرفة كانت كلّ كؤوس المتّة، والإبريق، والمنفضة، تفترش الأرض، وتصبغها باللون الأخضر... استدرت وأنا أمسك قبضته، وصرخت:

- إيّاك أنْ تتهمني بالغموض ربما أخطأت بكلّ كلامي لأنّ أذنيك غير صالحة لسماع مثل هذه الكلمات، ولكنني لست بالحاقد، ولست بالغامض.

جذبني فارس بكلّ قوته إلى الخارج، وأغلق الباب خلفه... شقَّ طريقه بين المجتمعين، وهو يصرخ بهم:

- ابتعدوا، لا شيء سوء تفاهم بسيط... ابتعدوا... ابتعدوا

أجلسني قبالته في غرفته، وبعد قليل وجّه كلامه لي لائماً تصرفي، وحديثي.

- ما بك يا دكتور؟ هل فقدت أعصابك؟ كلامك هذا أكثر من جارح، هل نسيت نفسك؟ أنت تتعامل مع مجنون! الحمد لله الذي أنهى جلستنا هكذا... أعذرني لو كنت مكانه لقتلتك بعد كلّ هذه الصداقة.

- حقاً تقول؟ أكنتَ فعلتَ ذلك؟

- وهل هذا شيءٌ يسعدك؟

- نعم، هذا يعني أنني نجحت في مقصدي.

- في مقصدك!؟ أيّ مقصدٍ كنت تبتغيه من إثارة مجنون إلى هذه الدرجة سِوى أنْ يقلب الدنيا على رأسنا صراخاً كما قلب الطاولة رأساً على عقب؟

- غداً ستعرف ما أقصده.

- إنْ جاء غداً ولم يمتْ من قهره أو يقتل أحدنا.

- لن يفعل ذلك، حيّان بطلٌ أصليٌ، وله من الشجاعة ما يستطيع من خلاله مواجهة آلاف المسلحين، وقتلهم، ولكن له من الطيبة ما يمنعه من قتل نملة، أمثاله لا ينتحرون ولا يُسيئون لمُحبيّهم.

انتشرت هذه الحادثة في أوساط المصح بسرعة خيالية! فاقت المثل العربي القائل: (كالنار في الهشيم) حتى أنني لم أنهِ حديثي مع فارس إلا وموبايلي كاد يفلق نفسه من الرنين بنغمة يسميها السوريون (نغمة بصرى) والمدير يطلبني لأرد، قطعنا السيرة، وفتحت الخط، وإذا به يطمئن عليّ مما سماه هجوم الطيّار المجنون، ويُوصل أمنياته لي بأنْ تكون إصابتي خفيفة وعندما أخبرته بأنْ لا شيء حدث البتة، دعاني لتناول القهوة فلبيت طلبه على الفور ليصدق كلامي، وليُكذب كلّ الإشاعات التي سمعها، ولكنني قبل ذلك سألت فارس:

- من هذا المكوك الذي يُخبر المدير بهذه السرعة؟

ابتسم غامزاً بعينه كما هي العادة.

- لن تصدق إذا ما أخبرتك أنه الأخرس... نعم نعم الأخرس الآذن الأخرس ينقل له أخبار المصح من الباب إلى المحراب! ألم أقل لك أنّ المدير شخصٌ ذكي... تخيّل أنه يتحادث مع الأخرس كما لو كان مثله، وأحياناً يقضيان أكثر من ساعة وقد يتحادثان أمام أيّ شخصٍ بلغة الإشارات أو

بالانتباه إلى حركة الشفاه... لا أعرف كيف تمكنّ المدير من إقناعه بأنه الرب الذي يرزقه ويحميه، وربما يُميته ويُحييه؟

من وراء مكتبه خرج ليصافحني، وليطمئن عليّ ناقلاً نظراته إلى كلّ أنحاء وجهي، ورقبتي، متفحصاً وباحثاً عن أيّ خدشٍ أو زُرقة ليتأكد من مصداقية الخبر الذي وصله.

- حسناً، سآمر بتخريج هذا المجنون من هنا، ولن أقبله ثانية حتى ولو دفع أهله ما فوقهم وما تحتهم.

- وهل يتم قبول المريض هنا حسب ما يدفع أهله؟

صدمه التقاطي السريع زلة لسانه إلا أنني لم أمنحه أيّة فرصة ليبرر مقصد زلته بل تابعت بزخمٍ أكبر، وبكلّ دمٍ بارد بعد أن جلست، ومددت يدي لتعبث أصابعي ببعض الأوراق المرتبة على الطاولة:

- أشياء غريبة تحدث في هذا المصح! لا أعتقد أنها تحدث في غيره من المصحات... لا ذات المستوى ولا ما هي أرقى ولا ما هي أدنى... الهبات تُوزع على الأطقم الطبية وغيرهم مع تبريرٍ لا منطقي، والمريض يُقْبلْ أو يُرفضْ حسب ما يدفع أهله،

وأعتقد أنّ تبريراً ما جاهز لذلك، أقبل كلّ شيء إلا أنْ تقول لي هذا لا يحدث... أنت قلت بعظمة لسانك كما يقولون والسابقة صادقة، أليس كذلك؟

ابتلع ريقه، وابتسم نصف ابتسامة، ثم رد:

- شيء طبيعي في مثل هذه الأزمة أن يدفع ذوو المريض مبلغاً من المال... أنت تعرف الدولة تحاسبنا على أسعار ما قبل الأزمة دون أنْ تأخذ بعين الاعتبار الغلاء المضاعف ثلاث أو أربع مرات، بدءاً من البنزين المستعمل في سيارة الإسعاف التي تنقله إلى هنا، وانتهاءً بالمازوت المُجهز للتدفئة، وطبعاً مروراً بأسعار الخضار والفواكه المقدمة على الوجبات الثلاث –وتستطيع أنْ تسأل صديقك المتعهد- وأسعار مواد التنظيف، والكثير الكثير.

- نعم نعم، أقدّر، قلت لك تبرير ما موجود حتماً، وإن كنت تلمز بشكلٍ ما لصداقتي مع المتعهد، فمؤكد أنْ لا مصلحة لي بمصادقته لأن فقره حرمه من أصدقاء المصلحة، وما حدث معي اليوم كان جلسة علاجية، ولقد أسهم فيها المتعهد فارس إسهاماً كبيراً.

طبعاً (لم يُصدق على ربه) أنّ مسار الحديث تغير عن رشوة قبول المريض، ولذلك انخرط في الحديث مباشرة:

- وهل نفعت هذه الجلسة مع هذا الطيّار المجنون؟

- آ... يعني أنت تعرف أنه طيّار؟ وأنه قضى سنتين من عمره يقاتل بكلّ ما أوتي من قوة، وبفضله وفضل زملائه توقف الإرهابيون، واحتراماً لذلك آثرتَ وضعه في الغرفة الأخيرة من الممر بجانب المغاسل في غرفة صُممت أصلاً لتكون مستودعاً، وفوق ذلك لم ترسل لعلاجه أيّ طبيب أو معالج... اعتبرته سجيناً لديك فقط! فهل دفع لك ذووه لتفعل ذلك أيضاً؟.

- أولاً، هو من رفض المعالجة، ولقد طرد عدّة أطباء من غرفته، وثانياً، أنا لا أسمح لك بأنْ تتهمني جُزافاً... لا تنسَ أنا هنا مدير المصح، وأنت طبيب عندي، وأستطيع باتصالٍ أو بتوقيعٍ واحدٍ إعادتك من حيث أتيت.

وقفت قبالته بعد أن جلس على كرسيه، ووضعت قبضتيّ على مكتبه، وصرخت في وجهه، وكأننا نتبادل أدوار الوظيفة:

- أولاً، لا يوجد في العالم كله مجنون يسمح بكلّ رحابة صدر لطبيب أو لأطباء أو لمعالجين بمداواته من أول مرة أو من عاشر مرة، أصلاً في علم النفس يبدأ العلاج بعد أنْ تستطيع إقناع المجنون أنه مريض، وثانياً لا تنسَ يا حضرة المدير أنني بروفسور، وأنه لا يوجد في بلدك كله من هو حاصل على هذه المرتبة مثلي، يعني لا أنت ولا من وضعك على كرسيك هذا بمستواي وهذه المرة قلتها **(**طبيبٌ عندي**)** **(**إعادتك من حيث أتيت**)** ولكني أعدك أنها كارثة ستحل عليك في حال أعدتها.

فُتح الباب في هذه اللحظة وإذا بالعقيد الضاحك يُقهقه، ويقول:

- أيّة كارثة أكثر من أنْ يمرّ يومٌ كامل ولا أشرب فيه كأس متّة أو سيجارة؟ ما الذي يحدث منذ دقيقتين دخلت، ولم أسمع حس أحدكما، جلبت الدخان الذي أوصيت عليه فارس وإذا بأصواتكما قد وصلت إلى السور تتحدثان عن كارثة... السلام عليكما... إنها فرصة سعيدة لأشرب معك المتّة لأول مرة ها ها ها.

توعدتُ المدير بنظرةٍ نارية، ثم ابتسمت بوجه العقيد، وقلت له:

- ربما لا يرغب المدير بشرب المتّة في مكتبه إنْ شئت شربناها في غرفتي؟

تدخّل على الفور ماصاً غضبي، ومحاولاً استرداد بعض الألفة والتقدير.

- على العكس تماماً إنها فرصة سعيدة أنْ يجتمع في مكتبي الأحبة، لحظات، وكلّ شيء سيكون جاهزاً.

ضغط على الزر الأحمر المُلصق بمكتبه، فدخل الآذن، طلب منه تسخين الإبريق، وتجهيز ثلاث كاسات متّة مع إحضار السكر لمن يرغب.

- لم تقل لي يا دكتور، هل هذا الآذن أطرش**(**أصم يعني**)**؟

- نعم أصم وأبكم.

- يا سبحان الله، أصم، وأبكم. وتفهم عليه**!**؟

- عشرة عمر يا دكتور،

- آ... عشرة عمر معك وحدك!! إلى درجة أنه يشتغل عندك آذن، ومُخبر، وربما بوليس.

كنت أعرف أنّ كلماتي تخترق وتصيب نقاط ضعفه بمقتلٍ رهيب، وأنه يُخفف ألمها ويداوي نفسه بضحكات العقيد الذي ألهاه انتظاره للمتّة عن ملاحظة أيّ جدالٍ ثائرٍ بيننا.

حضرت المتّة، وأدخلنا سيادته بمواضيعَ حربية لا دخل لنا فيها، وهكذا إلى أنْ ساقنا الحديث إلى توقع ما هو آتٍ.

- لقد أخبرتك يا دكتور من قبل أنّ الأمور ليست على ما يرام... أنت تعرف أنا قائد كتيبة، وقادة فصائلي المنتشرة ضمن مساحة عشرة كيلومترات، يُخبرونني بأننا نواجه الأسوأ (كل يوم أكثر مما قبله)، لقد استطاعوا استمالة أكثرية الشباب بأسلوب الدين، والجهاد.

- نعم يا سيادة العقيد، مع أني لا أعرف الكثير عن طبيعة هذه الحرب إلا أنّ ما يفعله هؤلاء الإرهابيون هو دمارٌ حقيقي للدين الإسلامي، ولمبادئه، ولفضائله، والغريب أنّ بعض الناس يصدقهم! كيف يحدث ذلك؟ كيف يُصدّق من يُكفّر

الناس ويقطع الرؤوس ويغتصب النساء؟ ألمجرد أنْ تطول لحاهم وتُخفف شواربهم؟

- لقد أقنعوا ضعيفي الإيمان بعبارة التكبير الثلاثية ليصبح كلّ ما يفعله الإرهابي حلالاً!! طبيعي جداً ألا تعرف وأنت في ألمانيا مدى الضخ الإعلامي المطبق على عقول هؤلاء... آلاف الأخبار الكاذبة، وآلاف الخطب الحماسية للجهاد ضد الجيش العربي السوري، وآلاف الفتاوي التي تُبيح المحظورات وتحلل الكبائر، كالقتل، واللواط، والاغتصاب. وآلاف المرتزقة الأجانب، وكلّ ما يعني المشغل الرئيس لهؤلاء الإرهابيين وأسيادهم، أمن إسرائيل، وأمانها.

- يكفي يا سيادة العقيد، لقد أدخلت طبيبنا الجديد بآلاف الأبواب التي مللناها (الإعلام، والفتاوي، والمرتزقة، وإسرائيل) المسألة، والمشكلة الرئيسة أنّ الدولة لم تفكر بعقلية متطورة مع الحراك الشعبي بل فكرت بأنانية متناهية، ولذلك وصلنا إلى ما نحن عليه.

- اسمع يا دكتور... صحيحٌ أنني كنت في ألمانيا، ولكنني تابعت بشكلٍ جيد تصرف الدولة مع هذا الحراك، وما وصلنا

إليه الآن لم يكن بسبب طبيعة التفكير التي مارستها الدولة بل بسبب عدم تقبّل المسلحين أو من يُمثلهم لهذا التفكير المنطقي.

- الدولة لم تستمع لعقول الحكماء في العالم، ولو فعلت وأنصتت لصوت الحق لما وصلنا إلى ما نحن عليه.

- لا أعرف إذا ما كنتَ تتكلم عن قناعة أم دفاعاً عن المسلحين! ولكن أخبرني أيّ كلامٍ منطقي قالوه ولم تسمعه الدولة؟ وهل يستطيع من يقطع الرؤوس أنْ يقول كلاماً منطقياً أصلاً؟.

- يا أخي نحن عالم ثالث، وكان على الدولة أن تعي ذلك (الناس هنا تتوارث الأفكار الدينية كما تتوارث الأعمال الفاشلة) كان عليها ابتداع أفكارٍ تستطيع معها استيعاب هذا الحراك فتحول بذلك الشعب من مسلحين ومخربين كما تصفونه إلى شعبٍ عظيم.

- ليكن بمعلومك يا دكتور، إنّ الأفكار العظيمة لا تخلق شعوباً عظيمة، العكس هو الصحيح، الشعوب العظيمة من تنتج وتبتدع وتخلق الأفكار العظيمة... أنا معك إنّ شعبنا ليس بالشعب اللئيم أو الشعب المخلوق على طبع المجرمين، ولكن

في نفس الوقت مع سيادة العقيد بأنّ الإعلام المكثف والموجه بهدف تخريب العقول كان السبب الرئيس في هذا الذي يحدث على مساحة الأرض السورية، وإنّ الغاية الأولى والأخيرة هي أمن إسرائيل.

- يعني أنت تريد إقناعي بأننا لو سألنا أيّ متظاهر عن مدى حبه لإسرائيل فهو سيجيبنا بنعم أو بقبول هذا الحب؟

- من الطبيعي جداً أنْ يجيبنا عكس ذلك، ولكن يا ترى لو سألنا أيّ متظاهر من حملة السلاح في مصلحة من يكون قتل ضباط وعناصر الجيش العربي السوري، وقتل الكثير من الأطباء والعلماء، فهل سيجيبنا الحقيقة بأنه في مصلحة إسرائيل؟ وهل سيجيبنا بأنهم يتداوون في المشافي الحدودية أو الميدانية التي أنشأتها إسرائيل لأن سواد عيونهم يُغري، ولأن الإسرائيليين تهمهم مصلحة السوريين، والإنسانية قاطبةً.

- يا دكتور، لا تجعل الوطنية تعمي عينيك عن الحقيقة، وعن المخطئين الأساسيين، نحن شعوبٌ عربية وحكامنا لا براءة لهم مما يحدث من هذا الزج الكبير بشعوبهم في أتون

الحروب الأهلية أو الداخلية، كيلا تأخذوا لكلامي مقصداً غير الذي أقصده.

- لا... لا أسمح بزيادة حرفٍ واحد وبصفتي ضابطاً في الجيش العربي السوري سأتدخل لإيقاف هذا الحديث، ووضع خاتمة له، وعليك يا حضرة المدير الانتباه إليها جيداً... لو كان هذا النظام -الذي تراه من الأحداث الجارية- هو السبب الرئيس فلمَ بقي الشعب منتشياً بما قدّمه للبلد من تصوراتٍ هائلة وصلت إلى مصافِّ الدول الراقية، ومنتشياً بكلّ قدرة النظام من حفاظه على الأمن الغذائي إلى الأمان الداخلي والخارجي؟ ولو فرضنا أنّ الوضع كما قلت، فهل قدمَ هذا الحراك المسلح الحل المناسب بتخريب المؤسسات، وإحراق البلاد، وقطع أوصالها؟ هل حقاً كان الهدف من هذا الحراك الحصول على الحرية؟ وإنّ كان كذلك فهل تأتي الحرية بإحداث الدمار وبإرهاب الناس؟ أيّ حراكٍ في العالم لا يحمل أفكاراً للتطوير يدعى همجية... فكيف إذا كانت هذه الهمجية تحمل سلاحاً؟ إنّ الدولة التي لا تقمع هذه الهمجية وتبيدها من جذورها دولة مُقصرة بحق شعبها أولاً، وبحق نفسها ثانياً، وانتهى الحديث. نريد أنْ نهنأ بشرب المتّة.

- حسناً لقد اعتدتم القوة في كلّ شيء، حتى أضحت ثقافة و بها تفرضون احترامكم على الجميع، ولكنني لا أظنها تنجح هذه المرة.

- وأنا أعتقد يا حضرة الدكتور المدير، إنّ الثقافة الغربية التي تخربون البلاد من أجل الحصول عليها لن تُرجع لكم ذاتكم الحقيقية، وأصبحتم كما الغربان الذين حاولوا تقليد مشية الحمام، فلا هم أتقنوها ولا هم عادوا لمشيتهم الأولى... أين هذا الآذن ليسخن الإبريق؟....

داهمني سلطان النوم، فاستأذنت باتجاه غرفتي مباشرة، اجتاح رأسي صداعٌ قويٌ، أعتقد أنه تجميعٌ لتعب السفر، ولصراخي على صديقي حيّان الطيّار، ولصدمتي الحقيقية بأفكار المدير، ولولا استعانتي بحبتيّ أسبرين لبقيت الأصوات الغريبة تضج في فضاء جمجمتي، تشبيهها الأقرب صوت قطارٍ في نفق، أو صوت جرسٍ كبيرٍ في وادٍ عميق، سحبني النوم إلى موته المؤقت، أعادني منه إلى الحياة حلمٌ صغير، رأيت فيه مارينا وهي تحاول أنْ تسقيني كوباً كبيراً من الماء البارد جداً، ولما وصلت إلى مقربةٍ مني أفقت خوفاً من سكب الماء على وجهي

لكثرة اهتزاز يديها الصغيرة... أدركت أنّ نفسي تطلب الماء لأنها دائمة النطق بحاجة الجسد، وهي لحوح جداً، وتتبع كلّ الطرق، ومنها الأحلام للوصول إلى مبتغاها!.

تأثرت كثيراً بمنظر صينية العشاء المغطاة بجريدة، يبدو أنني حرمت فارس من العشاء؟ لابد وأنّ نومي كان عميقاً جداً لدرجة أنني لم أفق على الرغم من دوي المدفعية المتواصل أولاً وعلى الرغم من محاولات فارس الأكيدة لإيقاظي! سررت لأن الوقت لم يقطع موعد العشاء كثيراً، فاتصلت به على الموبايل ليأتي فوراً، وقفت إلى جوار النافذة أنشط بدني متمططاً، ومستنشقاً الهواء النقي، وممتعاً نظري برؤية النجوم اللامعة، وبشكلٍ عفوي استجبت لقارع الباب:

- ادخل فارس (وإذا بي أسمع صوت حيّان وهو يقول لي:)

- أكان يجب أنْ تقسو عليّ هكذا؟ هل من باب الصداقة فعلت ذلك أم من باب الطب؟

استدرت بكامل جسدي نحوه مبتسماً، وقلت له:

- أليس من المفترض أن أكون خائفاً الآن إذ دخل عليّ مجنون في مثل هذا الوقت؟

- أفترض ذلك لو كنتَ على يقين بأني مجنون.

- أنا على يقين بأنك مريض، وعلى يقين أكبر بأنّ أمثالك لا يصابون بالجنون... تفضل على العشاء يا صديقي.

- سأتفضل ولكن بعد أن يحضر فارس الشاي الساخن... لقد كان في غرفتي عندما اتصلت به، وأنا سبقته ريثما تَجهزْ الشاي.

تناولنا أطيب عشاءٍ في أحلى سهرة قضيتها في المصح ثمّ أخبرتهم بالحديث المشترك مع المدير، والعقيد حول الأزمة.

- لقد أخبرني فارس، ولكن لم أتوقع أنْ يكون ميله السياسي عاطفياً إلى هذه الدرجة مع المسلحين!

- من نذلٍ كهذا، توقع كلّ شيء سيء.

- نعم يا دكتور، توقع منه كما قال لك حيّان وأكثر، لقد خبرت لؤمه، وخبثه، ودناءته، ولولا اكتشافي لهذه الطبائع فيه لكنت الآن موظفاً، وبقدم أربع أو خمس سنوات، شعوري يقول إنه وراء كلّ إفشال محاولاتي التوظيفية هنا، ولكن ذكاءه يمنعني من الحصول على دليل، إنه أخبث من شيطانٍ مقلوب.

- اسمعا، هل لي أنْ أطلب منكما طلباً؟ ابقيا كما يعرفكما كلّ الموجودين هنا... أنت يا حيّان الطيّار المجنون، وأنت يا فارس المتعهد الودود الطيب، ولا تسألاني لماذا (كلّ شيء في وقته حلو).

- المهم أنت يا دكتور، كن حذراً، سيحاول التفتيش عن أصغر أخطائك، هذه لذة الأنذال في تعاملهم مع أصحاب العقول، والضمير أمثالك.

- لا تقلقا عليّ، سأبقي رهبتي محاطة به، وسأبقي سوط تأنيبي مرفوعاً بوجهه أنْ يرتدع... إما أنا وأحلامي وإما هو وسفالته.

- ستخسر يا دكتور، أمثاله لا يصلحهم إلا الذي خلقهم.

- ما فائدة شهادتي العليا في علم النفس إن لم أقدر على إصلاحه؟

- ألم أقل لك يا دكتور، هذا المصح سيغير الكثير من نظريات علم النفس، ما قرأته منها وما درّسته؟

- الأيام قادمة، والمصح ميداننا، وإنّ غداً لناظره قريب.

نما لدّي شعورٌ فيما تلا من الأيام بأنّ أحداً ما يراقبني، وإنّ التودد المنقطع النظير للمدير معي إنما هو تودد مصطنع، يحاول

من خلاله دسّ السم في الدسم علّ إحدى محاولاته تنعم بالنجاح كتلك التي يحاول فيها ترسيخ كلمة الثوار بأيّ اجتماع تحاوري حول الأزمة أو إقناعي بنظرية الحاجة تبرر الوسيلة، عند أيّ جِدال يتعلق بالقيم الاجتماعية، وطبعاً كانت ردودي على كلّ حججه الواهية تصدمه قوةً وصلابةً حتى وصلتُ إلى نتيجةٍ مفادها أنّ لحمه ، ودماءه معجونان بالفساد، حتى تحولا إلى كتلة واحدة أو رابطة واحدة لا انفصام لها أو حلّ من طبائعٍ ساقطةٍ يرأسها عقلٌ ذكي بل عبقري في إدارة، واستغلال هذه الطبائع.

أنا لم أغيّر من أسلوبي في المعالجة... أحاول دائماً التقرّب من الحالات التي تستهويني مع التحفظ الشديد في علاقتي مع الأطباء وغيرهم... أتابع عن قرب، وأمنح إرشاداتي ونصائحي عن بعد... لم يكن بالسهل اختيار مساعدٍ لي ولذلك اتبعت أسلوب (شعرة معاوية) في مجمل تعليماتي فمن يتقيد بها ويعمل بحرفيتها أثني عليه، وأرفع له مكافأة، ومن يهملها ولا يأخذ بها على محمل الجد، أُقرّعه بأسلوبٍ عنيفٍ، وأقترح معاقبته، وفي كِلا الحالتين لا يتجرأ المدير على رفض الموافقة، والتوقيع،

حتى استطعت بفترة ثلاثة أشهر استرهاب الجميع بما يخدم مصلحة المصح وسحب البساط من تحت أقدام المدير، وهو شبه عاجزٍ عن مقاومة هذا المد وأغلب الظن أنه حاول كثيراً إقناع المسؤولين بوضع حدود لي إلا أنهم رفعوا أيديهم بأعجز منه، وذلك لأنني أولاً وأخيراً أتبع للجيش العربي السوري أكثر مما أتبع لوزارة الصحة.

طبعاً أنا خلال هذه الفترة لم أهمل أساسيات حياتي (التعلم، والعائلة، والأصدقاء) ولذلك لم أدخر جهداً في متابعة آخر الأبحاث النفسية، والاجتماعية على مستوى العالم، وذلك باعتماد برامج عديدة متطورة على شبكة الانترنيت، إضافة إلى ما اكتسبته من خبرة في الكتيبة الطبية من الإسعافات الأولية، ومن تقدير الحالة، ومدى حاجتها لإمكانيات أكبر من التي يستطيع تقديمها مشفى ميداني مهما كان هذا المشفى مدعوماً أو متطوراً عن مثيلاته، حتى أصبحت موضع استشارة لكثير من الأطباء الجدد أو الممرضين قليلي الخبرة، وكلّ هذا تحت نظر العقيد الذي يختم يومي معه بتعليقٍ مرحٍ من أمثال: (ما يخسره العقلاء يربحه المجانين) (يجهلك من لم يعاشرك، ظننتك دبوراً

فإذا بك نحلة) أما عائلتي فلقد بقيت الحلم الحقيقي، والواقعي، وما أسعد تلك اللحظات التي أشعر فيها أنّ عائلتي انصهرت في بوتقة العائلة الكبيرة، وصارت ايفا ابنة لوالديّ لا كنّة، وهي بالمقابل تحولت إلى أخت لأخواتي، ولزوجات أخوتي، وعلمتهم جميعاً كيفية التعامل مع شبكة الانترنيت، وبرامجها المتطورة، هذا الاندماج كان بمنزلة مفاجأة دائمة لي! إذ إنني في كلّ مرة أُدهش من كمية الألفاظ، والمصطلحات العربية التي تعلمتها، وقدرتها الهائلة في تمييز ما هو فصحى عمّا هو عامية! أما مارينا فلقد اتبعنا معها خطة رائعة لها غايتان، الأولى تعلم الأحرف والأرقام والمصطلحات باللغتين الألمانية والعربية، والثانية تنمية حس الاعتياد على القراءة والكتابة على أنه فعل طبيعي مثل الأكل والشرب والنوم، طبعاً بالاعتماد على الكثير من الكُتيبات الملونة، والمصورة، وعلب الألوان المميزة التي كنت أوصي فارس عليها حتى أصبح مشواره إلى المكتبة روتيناً أساسياً قبل يوم واحد من موعد سفري، أما بالنسبة لأصدقائي ففارس هونَ عليّ أشواقي الدائمة للعائلة، وزرع حياتي في المصح أزهاراً، ولم يكتفِ بذلك بل كان يحاول

دائماً اقتلاع كلّ الأشواك التي تقف في طريقي كالعوائق النفسية التي بإمكانها قلب مزاجي المرتاح في أيّة لحظة، لقد أثبتَ بحق أخويته لروحي، وأنا بدوري اعتبرته نعمة إلهية يجب عليّ التحدث بها أينما حللت، وشكر الرب دائماً إرسالها لي، أما حيّان الذي أخفيت عليه سرّ أخوته، فألمي عليه كان يتضاعف في كلّ جلسة أو سهرة مسائية أقضيها معه، وعلى الرغم من تحسنه الواضح وتقيده بتعليماتي حرفياً إلا أنّ عقدة يوسف **(**عليه السلام**)** لم تبرح عقله الباطني، وحسه العميق، ولم أجد أمامي طريقة أصوب من ذكر الله، ومقدرته على تغيير الظروف، وقلبها من حيث يدري الإنسان ولا يدرِي، أما نصائحي المتجددة والمعتاد عليها، فكانت عبارة عن الحصى التي تسند الحائط الكبير، ودائماً تكون ردة فعله الابتسامة المقتنعة بصوابيّة النصيحة، واستحالة إتباعها بظرفٍ يُشبه ظرفه، حيث الأخوة هم الخصم والحكم**!** وإنّ منحتك الحياة ألف بابٍ للابتسامة فباب الأخوة المغلق قادرٌ على إغلاقها، وقادرٌ بنفس الوقت على فتح باب البكاء على مصراعيه، وهو البكاء الذي لا يبكيه إلا الرجال**...** بكاء القلوب**!!.**

أما من ناحية صديقي الضاحك دائماً، فلقد بدا في هذه الأيام أكثر اتزاناً، ويستطيع المرء معرفة أخبار الميدان من ملامحه، وطالما أنها تتجه نحو العبوس فهذا يعني تقدم المسلحين على جبهة ما، وأكبر تصريح ممكن أنْ تسحبه من فمه عن الأوضاع أنها تسوء، أما أعظم جملة ممكن أنْ ينطقها لرفع معنوياتنا فهي: (لا تقلقوا إنْ شاء الله) وطبعاً كلّ من يسمعه يؤمّن (آمين) باستثناء المدير في حال حضوره! فإنه يُعلق بسُمّية واضحة: (أود لو أعرف مدى السعادة التي تحققونها عندما تُسمون الأحداث بغير مسمياتها؟ لمَ لا تعيشون الحقيقة؟ جرحها أفضل ألف مرة من العيش في الأوهام... لقد قلت لكم كثيراً، إنّ القوة الغاشمة سلاح من هم على خطأ، عندما تُستخدم ضد الشعب، ولم تصدقوا... كان بإمكانهم توقيف هذه الحرب بالتفاهم... لقد انتهجوا كلّ السبل إلا هذا الطريق! والآن يدفعون الحساب، وندفعه معهم.

أنا كانت تستفزني هذه التعليقات... أصلاً مجرد أن يفتح فمه يتتابني شعورٌ بالاستفزاز، والرغبة بضربه، ولكنني استبدل خياري هذا دائماً بكلامٍ أوجع من الضرب.

- رحم الله أيام زمان... كانت سورية تحيا حياتها كما لو أنها بستان، ولكن ماذا نفعل في كلّ بستان خلق الله قوارض وفئراناً وأفاعي؟! على كلّ حال خواتم الأمور بيد الفلاح، وهو يتكفل بسمّهم أو قتلهم وإبادتهم... الأمر يحتاج إلى صبر، به وبالله نستعين لنعيد بهجة البستان السوري... القوة ليست كلّ شيء وإلا لحسم الجيش بقوته هذا الحراك الإرهابي... النظام يا دكتور، يمنح الوقت لتفهم العقول، وفي اللحظة التي يُغلقون فيها عقولهم، سترى قوة الجيش الحقيقية..

كلّ شيء كان في الحسبان إلا ما حدث في آخر إجازة صيفية قضيتها في البيت لقد وضعتُ مخططاً كبيراً لأودع مع أسرتي صيف اللاذقية الجميل، ولكن على ما يبدو أنّ الأيام الأخيرة للصيف، يسكنها الجنون دوماً! فما أنْ عدنا من رحلةٍ مكوكية زرنا فيها مدينة أوغاريت، وبحرها، وقمماً جبلية شاهقة تتربع عليها مقاماتٌ بيضاء لأولياءَ مؤمنين كما لو أنها تحرس فضاءنا من شر المسيئين.

ايفا كانت تقود السيارة في المدينة، فهي أعرف مني بطرقها! وأنا أقودها ريفياً، وعندما اتصل والدي على غير عادته كنتُ

نازلاً من جبلٍ يُسمى«قرفيص» والحمد لله الذي ألهمني الوقوف يميناً، وإلا لتكفلت هذه المكالمة بإلقائنا إلى أسفل الوادي (أخوك استشهد) لم استوعب كلامه كما لم يستوعب صمتي!! الآلاف من الصور تزاحمت في رأسي حتى أني لم استطع التركيز على أيّة منها... الآلاف من الذكريات تدفقت كطوفانٍ أفقدني الأمل بالتمسك بإحداها، الآلاف من الدمعات تدافعت لتنسكب على مقلتي فتحجرت... إنه الموت!؟

وقفت أتلقى التعازي شارداً! ما زلت أشعر أن هذه الحادثة حياكة وهمية... كيف لي أن أصدق موت أخي؟ لقد ربيتُ معه! جدران بيتنا، وغبار شارعنا، وذكريات ألعابنا، وصفوف مدارسنا، تعرفنا اثنين لا واحداً؟ حتى أنا أعرف نفسي مع أخي! فكيف لي أنْ أتعرّف على ذاتي بعد الآن؟ يقولون إنّ الموت هو الحقيقة الراسخة، فلماذا لم أتقبلّه ولم أتقبل حقيقته؟ لماذا يقول الجميع (رحمه الله) فليرحمني الله أولاً، أليس الحيّ أولى من الميت؟ هو مات، هكذا يقولون ويؤكدون! مات وارتاح، ومُنح الجنة، ورُفعت درجته إذ انتخبه الله واختاره إلى جواره، فلمَ يُعذبني ربي، ويقهر قلبي، ويُوجعه، ويُحدث فيه

شرخاً نازفاً لا أظنه يندمل أو يُشفى؟ أيرحم ربي الميت ويُعذب الحي؟ أيُدخل الميت في يقين الحقيقة، ويُدخل الوهم إلى قلب الحي؟ ألم يخلق الله الإنسان في أحسن تقويم؟ فلمَ يُخضع هذا التقويم لهزاتٍ عنيفة قد تُشوه هذا الإبداع، وتنزع حسنه؟ ولمَ يتخلص منه أحياناً، ويحوله إلى تمثالٍ لحمي لا حركة له ليُدسّ في التراب وكأنه لم يُخلق، ولم يكن يوماً من آيات الله العظمى؟ هذا إنْ دُسّ في التراب لا كما هي حالتنا التي لا نعرف فيها عن موت أخي إلا أنه مات! أليس بيدي حق نكران هذه الحقيقة؟ ائتوني بجثمانه حتى أصدق، وأتقبّل التعازي، وأعترف بأنّ الموت نهاية... على الأقل نهاية الجسد، أما الروح فلا أظنها تنتهي لأن أرواحنا ليست ملكاً لأجسادنا وحدها... روحه في جسدي، وأجساد أخوتي جميعاً، وجسد أمي، وأبي، وزوجته، وأولاده... كما هي روحي موزعة عنده، وعند غيره من أفراد العائلة، وما وجعي هذا إلا لأنني فقدت قسماً من روحي بفقدانه، المهم الآن أن يأتوا به جسداً من دون روحٍ تحركه، من دون نفسٍ تشتهي احتضاني، لا فرق المهم أن يقنعوا عينيّ أنّ الجسد المتحرك الحامل روح أخي، وقسماً من روحي، قد

همد وإلى الأبد! لأقنع عقلي أن الموت هو المنتصر النهائي في هذه الحياة.

لا أعلم كيف خَبِرَ أبناء المصح بهذا النبأ! صحيحٌ أنّ خبر السوء أسرع من رياح البشارة، ولكن من سرّب طرف الخيط الذي أطلق لهذا النبأ عنانه؟ فلقد تفاجأت بأنّ جماعة ما تطلبني من أخر الخيمة حيث كنت أجالس أصدقاءً لم تمحُ السنون أسماءهم من بالي.

المدير والعقيدان، تحاضنت معهم جميعاً، أدخلوني في دائرةٍ واسعةٍ (من، إلى، هو، قال، سمع) والنتيجة أنني لم أعرف البداية، بدت أسئلة العقيدين معتادة (أين استشهد؟ هل بقي الجثمان في ميدان المعركة؟ كيف تأكدتم) وكذلك بدت ثقة المدير بنفسه، وبكلامه السابق عن الحراك الشعبي واضحة في نظراته المُعجبة بأداء المسلحين، وبابتسامته الساخرة من قدرة الجيش، تهيأ لي أني سمعت لشماتة قلبه صوتاً! وبأن الكثير من الكلمات تغلي، وتفور في داخله، ولكن أيَّها تجرؤ على الخروج وسط خيمة مليئة بالرجال ممكن وبسهولة جداً لأيٍّ منهم إخمادها، وإخماد صاحبها، وإلحاقه بأخي إذا ما نطق بواحدة

منهن؟ شيءٌ ما أوقفني وسط الحضور المتلهفة عيونهم لرؤيتي، وأذانهم لسماع كلماتي.. شيءٌ ما أنطقني!؟ قوةٌ إلهية دحرجت على لساني الكلمات، فأهّلت وسهّلت بالحاضرين، وقلت:

- أيها الحشد الكريم، بعد بسم الله الرحمن الرحيم(ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون) صدق الله العظيم، لقد استشهد أخي حُباً بأن يموت كما خلقه الله، وإحيائه بوجهٍ واحد لا بوجهين أو أكثر، ولا من دون وجه كما يفعل الكثير من الناس في وقتنا الحاضر، استشهد لأنه كره الوجود المقنع بالحياة، استشهد لأنه فضّل ألف مرة أن يكون حياً بين الأموات على أن يكون ميتاً بين الأحياء، لقد استشهد أخي وهو يعرف أن هناك من يستثمر موته، وشهادته، ودمه، وجثمانه المفقود،، كما استثمر من قبل عمله وجهده، ونشاطه، وماله، وأيام عيشه، ومعاشه، ولكنه لم يأبه لذلك، هي العلاقة الأبدية بين الفقير الطيب، الصافي النوايا، والتراب، هو يُضحي من أجل هذا التراب والتراب ينتقم له فيُشبع عين، وفم المستثمرين، والسفلة، وأصحاب الوجوه المتعددة... رحمه الله عاش بدينه لضميره، ومات بأمر ضميره

ليحيا دينه، فليدركوا بعد موته أيّة حياةٍ يحياها من جعلوا الدين والضمير آخر اهتماماتهم، إن كانا أصلاً من اهتماماتهم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

لم يهمني إذا ما فهمني الحضور من أهل قريتي أم لا، فأنا أعرف أنّ هذا الكلام لامس شغاف قلوبهم، ومآقي عيونهم، المهم أنني حتى في هذا الموقف الحزين الرهيب، أظهرت سوطي لهذا الكلب الشامت، الذي ظن أن استشهاد أخي خسارةٌ كبيرةٌ لقناعاتي، وشاهدٌ كبيرٌ من أهلي على فشلي، وإنه استحقاقٌ عالي المستوى علينا جميعاً، تقليد حضرته أوسمة الشرف إذ تحققت نبوءاته، بأن حراك من يُسميهم (الشعب) قد انتصر، وبدأ بقضم خصومه كما لو كانوا قطع حلوى تتهاوى أمام شهيته للحرية المزيفة، وإن كانت على حساب أضراسه أو كانت ستغلق -وإن شاء الله تفعل- مجاري الكلام، والتنفس لديه.

مع نهاية حديثي، قام ضيوفي مع من قام، وقفت معهم خارجاً أشكرهم على ما تكلفوه من عذابٍ وتعبٍ، أنا كنت أتكلم في وادٍ، والمدير المتوتر المستنفر في وادٍ أخر، عرفت من حركاته الصغرى كتحريك رموشه، واستدارة وجهه البسيطة،

ومسح شفتيه برأس لسانه، وتحريك أقدامه، أنني أصبت هدفي، ورددت كيده إلى نحره، ولكنني لم أصبه بمقتل، ليس لأن كلامي لا يقتل، وإنما لحربائيته القادرة على التأقلم والتلون حسب الظرف حتى لو اضطر إلى سلخ جلده بدل المرة عشر مرات! عندما عدت إلى الخيمة تفاجأت بوجود حيّان، وفارس! وأرجح أنهما دخلا عندما كنت ألقي كلمتي.

- أهلاً وسهلاً بأخوتي، لكما كلّ الشكر، لقد فقدت أخاً، ومنحني الله قبل ذلك اثنين... اخبرني يا حيّان، كيف أتيت؟ كيف سمحوا لك بالخروج؟ قانون كلّ مصحات العالم يمنع خروج المرضى منعاً باتاً إلا بشفاءٍ أو بموافقة الأهل وعلى مسؤوليتهم.

- ومن يُلقي بالاً لوجودي حتى يلقي بالاً لغيابي؟ لولاك أنت وفارس يا دكتور لشعرت أنني ميتُ الأحياء.

- عفواً، ولكن أنا لم أقصد بكلمتي هذا.

- أعرف أنك قصدت المدير، ووجوه المقرفة، أما أنا فأقصد اللا مبالاة المجحفة بحقي.

- وأنت يا فارس، لمَ تبكي؟

- لا أعرف يا دكتور! ربما تذكرت يوم ودّع أطفاله، حتى هذا الموقف المؤلم فقدوه! طاب الموت يا عرب.. طاب الموت يا عرب.

لم يتركاني ثلاثة أيام... يخرجان معي صباحاً، ويعودان للنوم في الغرفة التي أسميناها غرفة فارس، ثم عادا بعد أنْ اتفقت مع فارس على ملاقاتي في الكراج بعد أسبوعٍ كاملٍ...

قبل يومٍ واحدٍ من سفري، أخبرتني ايفا أنها أحرزت جائزة الصحافة الوجدانية على مستوى ألمانيا، هززت رأسي وأخرجت كلمة (مبروك) بطريقة عفوية ثمّ حملت مارينا وخرجت، أعرف أنني قصرت بردة فعلي وفرحتي، مثل هذا الخبر كان يولعني واعتبره سبباً من الأسباب التي أبحث عن أمثالها لإبداع حفلةٍ كبيرةٍ... شيءُ ما لا إرادي قيدَ بهجتي، أفقدني التلذذ بخبرٍ هامٍ وكبيرٍ يهمنا كعائلة كما يهمها كصحفية، لمت نفسي كثيراً على هذا التصرّف، ما كان عليّ كسر خاطرها، هي غريبة، وتبقى غريبة إن لم تكن بين أهلها أو إنْ لم ترمِ رأسها في حضن أمها البعيدة، لم أتصرّف هكذا في حياتي كلها، كان عليّ

أن أمنح هذا الخبر العظيم حقه من الفرح كما أعطتْ هي خبر استشهاد أخي حقه من الحزن، ولذلك لم أطل جلوسي عند أهلي، عدم اهتمامي قساوة ظالمة بحق مشاعر زوجتي، قطفت وردةً حمراء من حديقة المنزل وقرعت الباب معتذراً عن ردة فعلي، وعن عدم إقامتي أيّ حفلٍ مُستحق لهذا الانجاز الضخم في تاريخها الصحفي، والحمد لله أنها قبلت اعتذاري، وقدّرت الوضع، وشعرت أنا براحة الضمير تجاهها، فأنا شخصياً لا أود تقليل اهتمامي بها، وهي بوضعٍ لا يسمح لها ببث شكواها أو إفشاء فرحها الداخلي إلا لزوجها، لم أودع أحداً خارج بيتي، جرحهم من وفاة أخي ما زال نازفاً، وحرقة القبر الفارغ ما زالت متقدة في القلوب، وعلى ما يبدو أنّ الوضع الجديد في المصح سينبش لهم بعد فترةٍ -لا يعلمها إلا الله - ذكريات الألم التي لا تنسى، إذ إني رأيت حركةً غريبةً لبعض الجنود داخل الحديقة... التفت إلى فارس غامزاً بعيني غمزة جاهلٍ يستفسر عن سر وجودهم!.

- ضيوف أو ربما إقامة دائمة... إحدى فصائل المدفعية... لقد انسحبوا بعد أنْ اشتدت وتيرة الحرب على جبهتهم، ولقد

أفرغنا لهم غرفتين ليتمكنوا من النوم... مساكين، منهم من لم ينم منذ ثلاثة أيام!.

على الفور رميت حقائبي واتجهت إلى مكتب المدير... لم أتفاجأ برؤية العقيد، ولكنني تفاجأت بالحديث الدائر بينهما:

- أنا لا أستطيع تحويل المصح إلى ثكنة عسكرية، إذا وصل الثوار فلن يعتبرونا مدنيين، ولن يتفهموا وجودكم هنا على أنه مأوى فقط .

- من الأفضل أن تقبل طوعاً... لن أترك جنودي ينامون في العراء... غرفتان لا تكفيان... فصائل المدفعية الباقية تواجه ضغطاً أقوى من الذي واجهته فصيلتي المنسحبة، وبين يومٍ وليلة سأعطيهم أمراً بالانسحاب.

- وأين أذهب بالمرضى؟ هؤلاء مجانين، وأكثرهم بلا أهل، وإنْ عُثر لهم على أهل فقد يرفضون استلامهم! أنرميهم في العراء أم نُسكنهم في الخيام لأن جنودك لا تكفيهم غرفتان؟.

نظر صوبي وكأنه يُلمح شامتاً بي، وتابع حديثه العصبي:

- تفضلوا يا دكتور، الجيش العرمرم ينسحب**!** أهذا أيضاً لأنه يحيا بوجهٍ واحد؟ أهذه هي العقيدة والإيمان بأنهم على حق وأنّ موتهم شهادة؟ وأنّهم المخصوصون بآية **(**ولا تحسبنّ**)**؟ أم أنّ انسحابهم واختباءهم خلف المجانين خدعة، وتكتيك حربي؟ أنا أقول لكم ليس للنظام قدرة على مواجهة الشعب وحِراكه، وأنتم تقولون إنهم إرهابيون وأنّ الجيش حامي الحمى**!** فَلْيَحْمِ نفسه أولاً وليدعنا بسلام**!.**

اهدؤوا يا جماعة، الأمر يحتاج إلى تروٍ وحكمة، يا سيادة العقيد هل من مكانٍ أفضل لانسحاب عناصرك بمحيط دائرتنا؟.

- يا دكتور، أنا متفهم للأمر، ولوجود المرضى العقليين والنفسيين هنا، ولكن هذا المكان أفضل مكانٍ للرصد وللرمايات، ومن يتحكم بهذه التلة يتحكم بمحيط عشرة كيلومترات يعني بالمصطلح العسكري **(**تلة حاكمة**)** .

- حاكمة أو غير حاكمة، أنا لا أوافق، ومن سمحتَ لهم بالمبيت البارحة، سأخرجهم اليوم.

- أخشى أنك لن تستطيع فعل ذلك، وبما أنّ كلامك وصل إلى هذه الدرجة، فأنصحك أنْ تُوضب أمتعتك، وتتحضر للخروج أنت وطواقمك، وسترى.

قال هذه الجملة، وخرج غاضباً، فجلست، وانتظرت الجملة التي سينطق بها المدير.

- ما رأيك يا دكتور؟ يجلس في حضننا، وينتف بذقننا!

- أتسمع مني يا دكتور؟ لو كنت مكانك لرحبت باقتراح العقيد وعلى الفور، لأن القيادة أولاً وأخيراً ستنطلق في حكمها على استراتيجية الموقع، ونحن في حالة حرب، وستكون الأفضلية لقراره، ثمّ أنه لن ينافسك على منصبك، ولن يأخذ المشفى لأهله، هي في النهاية مصلحة البلد.

- مصلحة البلد!؟ كلّ شيءٍ تريدونه تضعون أمامه هذه الجملة (مصلحة البلد) وبالمانشيت العريض كي تلجموا أفواهنا... ما ذنب هؤلاء المجانين ليكونوا وقوداً لحروبٍ لا ناقة لهم فيها ولا جمل؟ من يردْ أنْ يحارب حفاظاً على كرسيه ونظامه، فليحارب بعيداً عن مرضاي الذين ليس لهم تحت عرش السماء إلا نحن

وهذا المشفى... أنا لن أتخلى عن هذا المشفى، ولا عن مرضاه حتى لو لم يبق في سورية حجرٌ على حجر.

- يبدو أنّ كلامي المُبطّن لا ينفع! وعليّ أنْ أتكلم على بساطٍ أحمدي.. أنت لا يهمك هذا المشفى، ولا مرضاه، أنت تهمك مصلحتك الخاصة فقط! ألم يكن هؤلاء المجانين مساكينَ يوم كنت تتقاضى عن كلّ واحدٍ فيهم ما تيسر لك من مال؟ ألم يكونوا وحيدين ولا سند لهم غير هذا المشفى وأنتم يوم كنتم توقفون علاجهم قبل خطوة واحدة من شفائهم ليبقوا مزاريبك الذهبية؟ ألم توزع الهبات على عينك يا تاجر؟ بينك وبين أتباعك؟ أنت على استعداد لبيع المشفى، وبيع مرضاه في سوق النخاسة إذا لزم الأمر، من يداوِ المرضى بحسب إمكانية ذويهم المادية فالأمر عنده سيّان، المهم مصلحتك، وعليها تتكسر كلّ المبادئ الطبية وغير الطبية، ولذلك سأتركك لتفكر جيداً بمصلحتك، وأعتقد أنها تسترعي منك تفكيراً منطقياً لا عصبياً... اليوم قد تقبل بإرادتك وتظهر بمظهر البطل الوطني أما غداً فلا أحد يعلم، قد يُفرض الأمر عليك وتقبل صاغراً القيام بشيءٍ تستطيع فعله اليوم مكرماً... وداعاً.

- اجلس، لن أسمح لك بالذهاب، سنشرب القهوة أولاً.

ضغط زره المحبب، وخاطب الآذن بصوتٍ يكاد لا يُسمع طالباً منه صنع فنجانين من قهوة الـ (نسكافيه)

- قل لي لمَ لم تستخدم جرس مكتبك ولا مرة مع أنني ركبته لك من الأسبوع الأول لإقامتك؟

- لم أحيَ حياة الأمراء من قبل حتى أحياها الآن؟ ولم يكن لدينا في بيت أهلي خادمٌ فلمَ يكون لي الآن؟ ثمّ ماذا أفعل بهذا الجرس مع آذنٍ أحتاج إلى دورةٍ طويلةٍ في تعلم لغة الصم والبكم لأتفاهم معه؟ هل يكفي أنْ يرى النور المضاء بفعل هذا الزر حتى يعرف حاجتي؟ يقول المثل (عذبْ نفسك ولا تُعذب لسانك).

- أكلُّ خريجي ألمانيا مثلك؟

شعرت بخبث السؤال، فأجبته مثل صعقةٍ كهربائية:

- لا تستطيع أن تعمم الأشياء، وإلا لكانت كارثة وطنية لو كان كلّ خريجي دمشق مثلك.

- تقبّل محترقاً ردي، وضحك مُجبراً كي يفتح الحديث مجدداً.

- أيعجبك ما أوصلتنا إليه هذه الأزمة؟ أما كان هناك من حلٍ أفضل إلا الحرب؟

- اسأل أصدقاءك الثوار ألا تسميهم بالحراك الشعبي؟ أيرضون بالدرجة التي أوصلوا إليها الشعب؟

- يا أخي، جماعة ثاروا على ظروف الحياة السيئة... لو أدرك النظام هذه النقطة، وحسّنها ما كان هناك لا ثورة ولا ثوار.

- أنت تضحك على نفسك يا دكتور... الأزمة موجودة في عقولهم لا في ظروفهم، وأكبر دليلٍ أمامك فارس، الفقر والتعاسة يحيطان به من كلّ جانب، وبعض أولاد الحرام (لنقُلْ الحلال) أعاقوا توظيفه، ووالداه مريضان، وما زال مرتبطاً بأخلاقه وضميره... هل سمعت عنه أنه قطع طريقاً أو أحرق مؤسسةً أو قتل مدنياً أو جندياً؟ المسألة ليست كما تتوهم، ثمّ من هذا الشعب الذي يثور على النظام؟ أشخاصٌ من السعودية والخليج! أشخاصٌ تقوم عروش أنظمة حُكامهم على بحورٍ من المال، وهم لا يشبعون ولا يؤمنون قوت يومهم!

لمَ لم يثوروا في بلدانهم على أنظمتهم؟ أم فلسطينيون تركوا المقاومة ضد جيش الاحتلال الصهيوني الذي يفتك بهم وبأرزاقهم وبمقدساتهم وجاؤونا ثواراً؟ أم أوربيون تركوا العز والراحة وجاؤوا ليزرعوا الإرهاب في نفوسنا؟ ما علاقة الظروف بذلك؟ العقول هي من تقود وبعد كل ذلك تقول الشعب**!!** ربما غُرر بهم في بادئ الأمر أما الآن وبعد أنْ مضى ما مضى من عمر هذه الأزمة، فالصدق يجب أن يُقال، ما من إنسانٍ في سورية إلا ويتمنى أنْ تعود تلك الحياة التي فقدناها، ويلعنْ الساعة التي نشأت فيها هذه الثورة العمياء التي فرضت قانون الغاب، حتى من بقي معهم يعرف أنه تحول إلى ضبعٍ، وأنه ما من وسيلة للحياة إلا مجاراتهم، وخصوصاً بعد أن لوث يديه وقلبه بالدماء**...** هو لم يغفر لنفسه ولذلك لا يجرؤ على طلب الغفران من أحد**...** رشفت الرشفة الأخيرة من الفنجان ووقفت متأهباً للخروج، نظرت إليه يائساً من إصلاحه، وقلت**:**

- على فكرة لم يذكر أحدٌ من ثوارك الظروف، كلّ ما في الأمر أنهم استجابوا لنعيق الفتنة، وثاروا بحجة الدين،

وباسمه. وكان لابد للجيش من التدخل ليعرفوا هم وأسيادهم من قبلهم أنّ كرامة المواطن السوري الشريف خطٌ أحمر، ولا يُسمح بوطئها لا باسم الدين ولا بغيره.

- حسناً، على سيرة الجيش ماذا علينا أنْ نفعل؟

- ليس علينا أن نفعل شيئاً، عليك أنت أنْ تفعل، وتتصل بذوي المرضى لإجلائهم، وتخليصهم من حرب الأيام القادمة، ومن تعرف أنّ ذويه لن يستقبلوه ارفع اسمه للوزارة، وهي تتكفل بإجلائه ونقله إلى مصحٍ آمن، من ليس له أب له رب، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بدأت الأيام الثقيلة تحط رحالها، ويبدو أنها تآلفت حتى مرحلة الاستيطان مع التوقعات المشحونة، والمتخمة برائحة الحرب القريبة، أسافر إلى بيتي أحاول تدريجياً وضع عائلتي بأجواء افتراضية، قد يطول فيها غيابي، أما الحقيقة الكاملة فكانت من نصيب ايفا التي لا استطيع تجميل حروفي في حضورها لا لشيءٍ، وإنما لأنها أكثرهم تعقلاً، وتفهماً، والتقاطاً للكلام الذي يرفض الخروج، ويتعثر على رأس لساني، وكم هونت عليّ واقتضبت الكثير من إحراجي أمامها، لأنني تركت

ألمانيا وجئت بها وبابنتنا إلى ساحة الحرب السورية، وأكثر من ذلك أنها كانت تمدّني بالكثير من الحماس بنظرات عينيها البراقتين حزناً، ولهفةً، وثقةً بعودتي بعد كلّ غياب، جملة واحدة كانت تودعني بها عند كلّ فراق:

- لا تقلق ستبقى أسرتنا بخير، المكان لا يغير في هذه المعادلة شيئاً... ألمانيا، سورية، القمر، المريخ... المهم أنّ الأخلاق موجودة، والحب موجود، أما الشوق فسأتغلّب عليه بأمل اللقاء بعد كلّ انتظار.

في كلّ مرة أعود فيها إلى المصح أرى تغيرات كبيرة لم أتوقع حدوثها بهذه السرعة! اختفت الأطقم الطبية، واختفى الموظفون، حتى المرضى لم يبقَ منهم سوى مريضٍ واحد أبى الخروج مع ذويه ومع لجنة وزارة الصحة، وصديقي حيّان الذي اكتشف أنْ لا اسم له في سجلات المشفى وعندما سألت المدير أجابني: (المشكلة أنه لا موظفين لنسألهم كيف سقط اسمه سهواً) وفي كلّ مرة يزداد عدد الجنود المنسحبين من الحواجز التي تتعرض لهجماتٍ عنيفةٍ، وفي ثالث مرة تفاجأت بوجود قائد الكتيبة الطبية هو الأخر انسحب أيضاً بكتيبته

ليتخذ من المشفى مقراً أساسياً، وفي النهاية لم يبقَ من الوجوه القديمة إلا المدير، وآذنه، وفارس، وصديقنا الطيار مع المجنون الذي أعيا الجميع في ضبطه، وضبط تحركاته، وصدرت الأوامر بمراعاته قدر الإمكان.

نصحني الجميع بعدم مغادرة المصح إذ أنّ الطريق باتجاه المدينة بات مقنوصاً النصف بالنصف أو خمسين بالمئة إلا أنني رفضت، وصممت على الخروج، ولأول مرة من دون فارس وسيارته «السوزوكي» ولذلك خرجت باكراً وعلى الطريق المؤدية إلى قريته أولاً، وقبل أنْ يعود من السوق الذي يزوره مرة واحدة كلّ يومين إلا أنه رفض منحي أيّة فرصة لتحقيق تصميمي، عندما فاجأني بخروجه من خلف الباب الأول! ليقول لي:

- آسف يا دكتور، هذه المرة سبقتك لقد ذهبت إلى السوق وعدت قبل استيقاظك، أتظنُّ أنك قادرٌ على الإفلات من شرب القهوة الصباحية معي... القهوة معي في السيارة.

أوصلني إلى الكراج، وطلب مني إيصال السلام الحار لكلّ أفراد عائلتي مع إيصال ما أمكن من قُبلاته لوجنتي مارينا،

ركب سيارته، وأشار بإبهامه غامزاً بعينه، أنزل زجاج سيارته وصرخ:(أنا بانتظارك في ذات التوقيت) .

الأوضاع التي تركتها في المصح أبلغتني أوضح بلاغٍ بأن إجازتي تلك ستكون الأخيرة، وبهذا أخبرت ايفا التي نامت في أول ليلة على وسادةٍ بللتها بدموعٍ صامتةٍ... أوصيتها بأهلي وبمارينا وبنفسها، ورجوتها أن تكسر كلّ القيود التي تربطها بي كزوجة وزوج، وإنْ تفعل ما تشاء في حال كان مصيري كمصير أخي، واعتبرت نفسي كريماً أكثر من اللازم إذ خيرتها بين متابعة الإقامة في بيتنا أو السفر إلى ألمانيا حتى يبلغ الله أمراً هو فاعله... كانت تسمعني ولا أذكر بأيّة لغةٍ كنتُ أخاطبها لأنها آنذاك أتقنت العربية، وتعلمت قليلاً عن كتابتها مع مارينا، كلّ ما أذكره هو الإحساس المتبادل بين قلبينا، الإحساس الذي لم يكن بحاجة إلى أيّة لغة لتكون جسراً بيننا... ودعتني كما هي العادة ولكن بجملةٍ غربيةٍ بعض الشيء:

- إن كنت تريدنا أن نكون أقوياء فكن أنت قوياً، وإنْ أردتنا أنْ نعتني بأنفسنا فاعتنِ بنفسك أنت، نحن من نستمد منك القوة والإرادة على الحياة وليس العكس... أرجوك

كن حريصاً على قلبك، وحياتك إذا كنت تعتبرنا جزءاً منهما... رافقتك السلامة يا حبيبي البطل... أنتَ تحمي أهلي في ألمانيا كما تحمي أهلك هنا، وتحمي مستقبل مارينا كما تحمي حاضرها.

قبّلتْني واستدارت كيلا أرى دموعها، وإن كنت أخبر الناس بانهمارها.

البرد كان يلفح وجهي مع كلّ ما كنت أرتديه من ثياب وواقياتٍ صوفية أصلية... عندما حمل فارس حقيبتي غمزني مومئاً للحقيبة.

- يبدو أنك تحضر نفسك جيداً للحصار الذي كاد أنْ يفرض نفسه كواقعٍ معيش، حتى الطريق الذي أوصلتك به لن نستطيع عبورها لأننا سننتظر في بيت أهلي إلى أنْ يحل المساء... أنت ضيفنا يا دكتور، وأخيراً سأرد لك استضافتي...

لأول مرة أشعر بحب فارس للكلام، وأقول للكلام وليس للثرثرة، لأنه حاول في مجمل حديثه تحذيري من المتغيرات الطارئة، والتي تحمل صفة التحوّل اللحظي، وهكذا إلى أنْ

وصلنا... هالني الفقر المدقع! لم أتوقع أبداً أنْ أعود إلى سورية وأرى علائم فقرٍ اندثرت قبل ذهابي بسنوات، أبوابٌ خشبية جُمعت أخشابها المتباينة الطول تحت رقائق من التوتياء، أو خزانة خشبية لحفظ الطعام عبر التهوية القادمة من مُنخلٍ قُماشي وتلفازٌ (باللون الأبيض والأسود) وهوائي داخلي، البيت مكون من ثلاث غرفٍ متصلة، وأبوابها مُشرعة على حديقةٍ خاليةٍ من الزهور.

سلمت على العجوزين الملتحفين قرب مدفأة الحطب، سمعت منهما كلاماً في الترحيب أطيب من العسل بشهده، لباسهما الريفي الفلكلوري يزينهما كـ (بروشور) سياحي، أنا جلست قربهما، وفارس غاب في المتاهات المطلوبة لصناعة فطورٍ سحري الألوان، والطعم، والفائدة.

- قدّرَ الله أنْ ترى والديّ يا دكتور... هذا آخر يومٍ لإقامتهما هنا، سيأتي أخي ليلاً لنقلهما إلى بلدة مصياف، لم تعد القرية آمنة، ونخشى هجوم الإرهابيين عليها من الجهات التي لا تتوفر فيها المراقبة الجيدة.

- هذا من حسن حظي، وإنْ سمحا ستلتقط لي معهما بعض الصور.

بالفعل صورني معهما ما شئت من الصور ثمّ التقطتُ بنفسي الكثير منها لتُخزّن في ذاكرة الموبايل كأجمل ما التقطت كاميرته عالية الدقة، بالنسبة لي كمواطن سوري كان يوماً حنوناً لاسترجاع ذكرياتٍ سمعنا بوجودها، وكمواطن ألماني كان يوماً سياحياً لا ينسى من التراث والتاريخ.

وصل الأخ الأكبر لفارس قبل حلول الظلام بقليل، لم يكن هناك متسعٌ من الوقت لأتعرف عليه عن قرب، أعطانا مهلة عشر دقائق، قضى نصفها يعتذر مني، ويستعجل والديه خوفاً ورعباً، فارس كان مشغولاً بتوضيب أمتعتهما، وهما يبكيان ويودعَانني السلام أمانةً لأهلي وأحبائي، أدركت بعد وداعهما الحنون كم تُخبئ الأبواب الخشبية خلفها أرواحاً ملائكية، غادرنا بعد رحيلهما بربع ساعة، مسافة الكيلو مترين استهلكت أكثر من نصف ساعة، رشقاتٌ كثيرة وُجهت إلى الطريق لم نعرف مصدرها ولسنا أصلاً بهذا الوارد، المهم كان أنْ نصل بخير وسلامة، وفعلنا ذلك بعون الله، وعلى الفور إلى الاجتماع

المنعقد بين العقيدين، والمدير، ومحور الحديث حول طريق الحياة الوحيدة للمشفى بعد أنْ أصبح المصح مركز دائرة محاط بالكثير الكثير من المجموعات الإرهابية الحالمة كلّ منها على انفراد باحتلال المصح باعتباره موقعاً استراتيجياً لعرباتهم الثقيلة، وباعتبار احتلاله نصراً يستحق مكافأةً كبيرة من مشغليهم، استدعوا فارس كونه ابن المنطقة، ويعرف كلّ خفايا الطريق، وأوكلوا إليه مهمته القديمة، ولكن بصفةٍ حربية لينقل للمصح تعيينات أكثر من أربعين عسكرياً وضابطاً أموا المصح، وتحول فارس بلمح النظر إلى(سوبر مان) المصح والشخصية الأكثر شهرة بين الجنود كما تحولت سيارته «السوزوكي» إلى عربةٍ عسكريةٍ، وذلك لأنها تقوم أحياناً بنقل الكثير من ذخائر الجنود والمدفعية من مستودعات التخزين إلى اللجان الشعبية المحيطة بالقرية، وإلى فصائلنا التي لم تهدأ عن الدفاع ليلاً بما هو مدروس ومؤكد ونهاراً عن طريق الرصد والصيد البصري الواضح.

هذه أول مرة أنخرط فيها انخراطاً كاملاً في الأجواء الحربية وللحق أقول إنّ من سمع ليس كمن رأى ومن رأى ليس كمن

عمل، في البدء أوصلني الشوق إلى مراحل مؤلمة كان القلب فيها يعتصر لهفةً لاحتضان زوجتي ولمسح دموعها ولحمل ابنتي مارينا وملاعبتها ولتقبيل رأس والديّ ونيل الرضى منهما ولذلك كنت أقضي الكثير من الوقت إما متحدثاً على الهاتف الثابت وإما متصفحاً على مواقع الدردشة مع زوجتي وأصدقائي وعلى سيرة الأصدقاء وأغلبهم ممن كان معي مدرساً أو محاضراً في جامعات ألمانيا فلقد انقسموا إلى قسمين الأول اعتبر ما أنا فيه ورطة ناتجة عن عناد وامتازت به النفوس العربية وألقوا بكامل اللوم فيها على تفكيري اللامنطقي والثاني اعتبروا وجودي في هذا المصح مغامرة لا يحظى بها إلا المحظوظون وطالبوني بإنزال ما أمكن من صور وبوستات ليكونوا مواكبين للحدث طالما أنّ الحظ لم يحالفهم في التواجد معي وللأسف لم يُلمح أيّ واحدٍ منهم إلى أنّ وجودي هنا هو حالة وطنية تستدعي الدفاع عن بلدي ضد موجة الإرهاب العالمية والمدعومة خليجياً وأمريكياً وغربياً وألمانياً أيضاً، هذا كان في البداية وأقصد بها الأسبوعين الأوليين لأنني مللت العمل كمراسلٍ حربي وفضلت المحافظة على عملي كطبيبٍ

حربي أو جندي مدفعية بعدما تعلمت نظرياً وعملياً استخدام كافة أنواع الأسلحة الموجودة من المسدس إلى المدفع مروراً بالكلاشنكوف ورشاش الـ **(بي كي سي)** والدوشكا واعتبرت اسمي مناوباً ليلاً على مدفع الفصيلة الأولى مع صديقي حيّان الذي عادت حيوته كما لو أنه على رأس عمله يصرخ ويُوجه ويُذخر ويرمي أحياناً وحين يتطلب الوضع حراسةً مشددةً تراه أول من حمل بندقية.

كنا نجري تقويماً يومياً داخل الفصيلة لمجريات كلّ ما مضى خلال الأربع وعشرين ساعة السابقة وثلاثة اجتماعات تقديرية للوضع كلّ أسبوع وبشكلٍ خاص أيام الأحد والثلاثاء والخميس والاجتماع مكون من العقيدين وقادة الفصائل الثلاث وأنا وحيّان أما بالنسبة للمدير فالأمر عائدٌ لمزاجه وقدرته على مواجهة آرائنا المتفقة بأننا نحارب السفلة مما خلق الله من عباده البشر ولذلك كان يفضل البقاء مع آذنه وخاصة في الوقت الذي ندعو فيه بعضنا عبر الأجهزة للاجتماع، أحياناً نأتي على سيرته محاولين تفسير بقائه في هذا الحصار ورفضه المشاركة بأي عملٍ ميداني مع أنه يستطيع المغادرة مع آذنه إن

شاء ليلاً برفقة صديقي فارس وعلى سيرة فارس فلقد التزم بكل قرارات اجتماعاتنا كما لو أنه جندي فلقد صدر أمر العقيد بزيادة المخزون الاحتياطي للمؤن والذخيرة في مستودعات المصح وذلك عبر زيادة الشحنات التي يجب على فارس نقلها، هذا القرار زاد من فرص التقائي مع فارس حيث يساهرنا ليلاً ريثما يحكم الليل بعتمته على كلّ النقاط المكشوفة على طول الطريق أو في الوقت الفاصل بين النقلتين منتظراً إفراغ السيارة من قبل بعض العناصر المناوبين، لم تتغير مضامين سهراتنا كثيراً عن بعضها هو كان يحدثنا عن الطريق وعن أهواله بقرب القذائف التي يطلقها المسلحون بشكلٍ عشوائي قريباً من سيارته وخاصة في رحلة الذهاب، هذا عدا عن الرشقات الكثيرة التي تصدف أحياناً وتصيب السيارة ببعض الشظايا أو الطلقات ويختم حديثه مازحاً:

- أنت السبب يا حيّان ألست من اقترح زيادة المؤن والذخيرة؟

أما حيّان فمجمل حديثه عن أشياء مرت معه خلال خدمته العسكرية ونستطيع أن نستفيد منها في حصارنا أو حديثه عن شعوره الداخلي السعيد بالمشاركة في هذه الحرب

للمرة الثانية وانفصال المجتمع المدني عن المصح انفصالاً كاملاً وعندما يصل الحديث إلي أحدثهم عن بعض المغامرات التي حدثت معي في ألمانيا وعن أخر الأخبار التي أتابعها على الفيس بوك وخصوصاً بعد إضافتي الكثير من صفحات المعارضة التي تسمي نفسها بـ **(**تنسيقيات الثورة**)** أو **(**تنسيقيات سهل الغاب**).**

ظلت الأمور تسير على إيقاعٍ متشابه من المعارك لأكثر من شهرٍ ونصف حيث تمكن المسلحون من اقتحام القرى الصغيرة المنتشرة حول المصح ضمن دائرة نصف قطرها ثلاثة كيلو مترات وأصبحت بذلك رماياتهم أكثر دقة وأسلوب اختبائهم أكثر سرعة وأبرع تمويهاً بين البيوت السكنية المهجورة حتى الطريق الوحيد باتجاه قرية فارس صارت مرصودة بقناصات المرتزقة الذين لا يعرفون عن حربنا إلا أجرة قتلهم لكلّ عابرٍ من عابريه أيّاً يكن رجلاً امرأة طفلاً**...** سيارة حيواناً لا فرق**!** المهم أقتل وأقبض**!** وكانت نافذة غرفتي أولى ضحايا هذا الاقتراب فلقد ثقبها الرصاص حتى تساقط زجاجها ولم يبقَ منه إلا ما يؤذي ومع ذلك رفضت تبديلها مع أي جندي

وفضلت البقاء مع وضع قطعة كبيرة من النايلون الذي يغطي به فارس مؤنه كوقاية لها من المطر، تتالت المصائب بعد ذلك وسقط لنا أول شهيدٍ في المصح إثر سقوط قذيفة في قلب الحديقة نقله ليلاً فارس بسيارته إلى المشفى العسكري لتتصدر في اليوم التالي عناوين مواقعهم (مقتل ضابط كبير في المشفى المحاصر واقتراب النصر وبعد أكثر من أسبوع أعادوا سيرة المشفى علّهم يتسببون ببعض الإحباطات النفسية وهذا ما ضاعف عملي كطبيبٍ نفساني حتى أنني وصلت نهاري بليلي لرفع معنوياتهم حتى أوصلها إلى السماء علواً وعنفواناً.

أصدر العقيد أوامر للجميع ومن دون استثناء بعدم التحرك نهاراً في الحديقة حتى «كرمو» المجنون تمّ حجزه نهاراً بعد أن بدا ملاصقاً للآذن ومن أجل هذه المرافقة كنت أحمل بعض الود والاحترام له وأوصيه بالعناية المشددة به وإعطائي خبراً عن كلّ ما يحتاجه لتلبيته فوراً إلا أنّ المشكلة كانت في اختفائه بعد عشرة أيامٍ من إصدار الأمر، بحثنا كثيراً وكثيراً ولم نعثر على أثرٍ له اللهم إلا على مواقع الفيس بوك حيث تمّ تصويره على أنه جندي من مرتزقة النظام الأجانب وما يؤسف

بالموضوع تصويرهم لأساليب التعذيب المتبعة معه، أبكاني المشهد بصمتٍ بآهٍ بحرقة، رجلٌ مثل «كرمو» ليس له في الدين أو السياسة أو الحرب أيّة ميزة أو هدف، قهرتني ملامح وجهه التائهة، لم يكن صراخه فموياً وآهاته لم تنبع من الصدر، صوته وصلني كالصدى، كان يصرخ في عالمه البريء، لم يستطع أحدٌ تفسير كلماته ولكنني عرفتها، ويقيناً أنني عرفتها.

«كرمو» كان يستنجد بالله وصراخه كان سؤالاً مليئاً بالترجي، توجه به إلى خالقه والمنعم عليه بالجنون (ما ذنبي يا رب حتى تنقلني من عالم المجانين إلى عالم العقلاء؟ يا رب أعدني واغفر ذنبي... إني إليك أتوب).

في اليوم التالي طلب المدير عقد اجتماعٍ سريعٍ وطارئ أخبرنا به أنّ المجموعة المسلحة التي اختطفت «كرمو» قررت اعادته ويطلبون التنسيق لإيصاله وعلى الفور مُنح بصفته وسيطاً التفويض الكامل للوصول معهم إلى توقيتٍ مناسبٍ نهاراُ وبالفعل سُمح لسيارة «فان» بالوصول إلى الباب الرئيسي حيث ترّجل منها رجلٌ خمسيني رافعاً يديه حالفاً بأنه مدني

مخطوف مع سيارته وعبدٌ مأمورٌ بإيصال صندوقٍ خشبي لا يعرف ما بداخله سارعنا بإنزاله وفض أقفاله الكثيرة، توقعناّه بحالة إغماء أو لا سمح الله حالة موت ولكن ما رأيناه كان صاعقاً لعيوننا ولمشاعرنا بل أكثر من ذلك كان صاعقاً لضمير الإنسانية، لقد وصلَنا «كرمو» كاملاً ولكن على شكل قطع، عنقه مذبوحٌ بالسكين وجسده مقطعٌ بمنشارٍ كهربائي، لم تحملني قدماي، هذه أول مرة أشعر فيها بالخذلان، لقد خذلتني الإنسانية وخذلتني كلّ نظريات علم النفس التي تنفي تحول الإنسان إلى وحش وأيّ وحشٍ هذا الذي يُقطّع ابن جنسه كما قطّع المسلحون «كرمو» وفوق ذلك أرسلوا قرص (سي دي) يصور عملية الذبح والتقطيع برمتها، مقطعٌ مرفقٌ بتسجيلٍ صوتي يُحتّمْ وصولنا إلى هذه المرحلة من القرف الوحشي إنْ لم يتم تسليم المشفى، توقعوا إحباطنا لكن ردة الفعل كانت معاكسة لكلّ توقعاتهم إذ أعلن العقيد حالة استنفارٍ قصوى دكت معاقلهم واصطادت أبسط تحركاتهم وأعتقد أنْهم ندموا على فعلتهم الحمقاء تلك ولا أقصد بذلك تقطيع «كرمو» بل إرساله إلينا بهذه الصورة، تمكنا من

استيعاب هذه الصدمة وتمّ تكليف حيّان بالتحقيق بكيفية خروج «كرمو» من المصح وكُلفت أنا بإيضاح تفاصيل هذه الحادثة ونقلها للرأي العام داخل المصح وخارجه سورياً وعالمياً عبر شبكة الانترنيت وهذا بالتحديد ما فعلته إذ أنني أرسلت محتوى الـ (سي دي) إلى معظم أصدقائي من مُدرسي علم النفس الأجانب وخاصة الألمان منهم ليدركوا منطقية عودتي إلى سورية وأحقية دفاعي عنها ضد سارقي الصفة الشكلية للإنسانية وليدرسوا هذه الحالة التي تنسف الكثير من المبادئ ونظريات علم النفس المتناقلة تدريسياً منذ مئات السنين.

حاولنا قدر الإمكان إشغال الجنود عن أشواقهم وأحزانهم وحصارهم ولذلك شاركناهم في كلّ شيء (الطعام والشراب والمناوبة والقتال وحتى الاتصال مع ذويهم وتأمين المستطاع من أدوات هوياتهم وتأمين القليل من مشتهاياتهم (كالحلويات واللحوم المشوية الجاهزة).

مع منتصف الشهر الثاني وبالتحديد الرابع عشر من شباط المصادف للعيد المشهور بعيد القديس فالنتين أو عيد العشاق بدأت المعركة الحقيقية وأرجح أنهم بدؤوا هجومهم العنيف في

هذا اليوم تعبيراً عن احتقارهم لهذه المعتقدات أو تعبيراً عن حقارتهم وحقارة ذواتهم المؤمنة بالسوداوية والإلغائية لكل ما هو مفرح من الحوادث التاريخية والاعتقادات البشرية حصيلة اليوم الأول شهيدان وخمسة جرحى بينهم قائد الكتيبة الطبية حيث سقطت القذيفة على مقربةٍ من مقره الإسعافي ولقد اضطررت إلى إجراء عملٍ جراحي له تمكنت من خلاله إدخال ما خرج من أحشائه إلى مقارها الأصلية وتقطيب البطن بقطبٍ قابلة للفك الطبي وهذا برأيي أقصى ما يمكن فعله إسعافياً ريثما يحل الليل ويُنقل بسيارة بطل المصح وفارسه صديقي فارس، لم تُفضِ تحقيقات حيّان إلى شيء سوى الظن بأن الفاعل هو الآذن لا غيره ولكننا ألغينا هذه الفرضية نظراً لردة فعله البكائية لحظة حضور الجثمان وما تلاها من الأيام على قبره وأقنعناه بعكس قناعته (إن بعض الظن أثم).

حتى فارس الخبير النفساني الكبير لكلّ عناصر المصح سابقاً لم يؤيد ظنه ولامه لوماً شديداً بل وأعتبر هذه الفرضية من الكبائر التي قد تسيء إلى عنصر فضّلّ البقاء معنا على الرغم من استطاعته المغادرة سابقا أو في الوقت الذي يشاءه معه ليلاً.

لا أعرف هيكلية العمل التي يتبعها المسلحون ولكنني لا أظنهم فقدوا الكثير من الميزّات التي تنعموا بها طويلاً والتي وُعُدوا بنيلها في حال نالوا من المصح وبما أنّ الأمور سارت عكس ما تشتهي رغباتهم فلقد فقدوا صوابهم إلى درجةٍ حاولوا فيها عدة مرات اقتحام البوابة الرئيسة للمصح بسياراتٍ مفخخة وذلك عبر تسللهم من منتصف طريقنا الحيوية وهيهات لهم أن يصلوا حتى على مسافة مئتي متراً من البوابة فالموت القادم على متن قذيفة **(أربي جي)** كان أسرع بالوصول إليهم من سياراتهم المسرعة نحو البوابة...

كلّ هدوءٍ كانت تتبعه عاصفةٌ مسعورة من القذائف الثقيلة حتى تحولت صورة المصح من الخارج وكأنه مبنىً مهجور لا نافذة زجاجيةٍ فيه ولا جدار واحد معافى أو معفى من قذائفهم ومع أننا اعتدنا على أمثال هذه العواصف حتى أصبح بمقدور أيٍّ منا النوم إلا أننا لم نعتد على الحزن الذي يُداهمنا نتيجةً لاستشهاد أيّ عنصرٍ ونحن نعرف كم سيكلفنا استشهاده من عملٍ لترميم نفسية أصدقائه ورفاق سلاحه.

كثافة الهجمات زادت من حاجتنا إلى الذخيرة مع استحالة طلب سيارة عسكرية نظرا لإصدارها أصواتاً قوية قد تلفت انتباه المسلحين وتزيد من احتمالات إصابتها بإحدى الرشقات التي توجه إلى مصدر الصوت تحدثنا كثيراً مع فارس عن العوائق التي يعاني منها وإمكانية إزالتها أو إزالة ما أمكن، لاحظ حيّان في حديث فارس شيئاً مبهما ولكنه لم يخبرنا به ووضعنا في حيرةٍ من أمرنا حول الطلب الذي طلبه منه وذلك بأن يخرج من البوابة ليلاً وبعد إغلاق البوابة إطفاء السيارة والتريث نصف ساعة تماماً وهي المدة التي يقطع بها فارس الطريق عادةً باتجاه القرية والتحرك بعد ذلك بذات الأسلوب الذي يتحرك به كل مرة، النتيجة كانت مبهرة لحيّان نحن لم نجد أيّ تفسير غير طبيعي لعدم تعرض فارس لأيّة رشقة وللأمان الذي شعر به إذ وصل إلى طرف القرية بظرف عشر دقائق رغم إطفائه الأنوار، تخيلته (هتلراً) عندما وقف يحدق بأعيننا بالتتالي بنظراتٍ ملؤها الحزم والغضب، ضرب قبضته على طاولة الاجتماع التي ضمتني وفارس إضافةً إلى العقيد وضابطين برتبة نقيب.

- الخيانة واضحة! في المشفى خائن وإنْ لم نعثر عليه في أقرب وقت فعلى الدنيا السلام.

لحظة واحدة بعدما قال قوله جحظت فيها عيوننا وفرغت أفواهنا.

- هذا كلامٌ كبير!!

- من لا يحسب لا يسلم، الحذر واجب، نحن في حرب والخيانة ليست غريبة عن أجواء الحروب ومن لا يضع في حساباته خيانة الموج فليبقَ على الشاطئ، أحدهم كان يتصل بالمسلحين بمجرد خروج سيارة فارس، ولذلك كان يتعرض على طول الطريق لقذائف كثيرة عشوائية في رحلة الذهاب التي كانت تستغرق بحدود نصف ساعة، وعندما انتظر فارس خارجاً هذه المدة توقعوا وصوله، فأخمدوا نيرانهم، وأعتقد أنّ الأمر لا يحتاج إلى أكثر من هذا التوضيح؟.

- كلامك منطقي ولو فرضناه صحيحاً مئة بالمئة، فلقد أوجدتَ الحل من داعٍ لهذا التوتر.

- يا دكتور سجل في مفكرتك، أنّ الخيانة لا حدود لها ومن فسدت بطانته لا فرق عنده بين سرقة بيضة وسرقة جمل...

دعوا هذا الأمر عليّ وسآتيكم بالخبر اليقين، وأرجو من الله ألا تُحْدِثْ خيانته -قبل كشفه- خطباً جديداً أكبر من استطاعتنا على استيعابه.

كانت المرة الأولى التي يجتاز بها الخوف الحواجز إلى قلبي، بشعة الحياة التي تعيشها وبقربك عدو مجهول قد يطعنك في أيّة لحظة وأنت تتودد له، والأصعب منها الشك الذي ينتابك تُجاه أيّ شخصٍ و أيّة حركة، كان عليه كتمان الأمر حتى يأتينا بدليلٍ أقوى من تفسيره لحادثة الانتظار، أو ربما أظلمه، هو لم يشأ تخويفنا بكل تأكيد، وإنما تحذيرنا بخبرةٍ عسكرية واضحة وكما يقولون: إن المصائب لا تأتي فرادى فلقد تعطلت سيارة «السوزكي» المنقذة، وخلال يومين أدلى فيهما كلّ عناصر المصح دلوهم في تصليحها، والنتيجة كانت إشاعة فظيعة على مواقع التواصل الاجتماعي بأنّ الحصار المشدد أوصل مؤونة المستودع إلى ما يقارب الصفر! وتناقلت ألسنة العناصر الإشاعة، وكأنها حقيقة واقعة، وبأنّ الموت جوعاً قاب قوسين أو أدنى، وعلى الفور فُتحت المستودعات وسُمح لكل العناصر بمشاهدة كميات القمح، والرز، والطحين، والتمر، والأدوية،

وحتى براميل المازوت التي تكفي لأكثر من شهر قياساً بالعدد القليل للحامية، لا تدوم الإشاعة طويلاً أمام الحقيقة، والمشكلة ليست هنا أصلاً بل السؤال عن تسرّب هكذا إشاعة إلى المسلحين! في المصح من سرّبَ عطل السيارة إليهم، هم فقط هولوا أو تلاعبوا بالمعلومة المُهرّبة، إذاً كبر الهاجس بوجود خائن، ولا من سبيل لمعرفته، فالجميع يحمل جهازاً خليوياً، ويوجد شبكة انترنيت تبث عبر (واي فاي) لجميع هذه الأجهزة، اقترح العقيد توقيفها أو إلغاء بثها، إلا أنني رفضت وبشكل قطعي متعذراً بعذرٍ مقنعٍ بأنّ من يحارب، ويرفض الخنوع لا يستسلم لمجرد هراء كُتب على صفحات الفيس بوك أو غيره من مواقع التواصل الاجتماعي، وإنّ كان أثرها كبيرا إلى هذه الدرجة فلنفتح ساحة جديدة في هذه الحرب، وليكن لنا ميدانٌ على الأرض، وميدانٌ على هذه الشبكة، وأنا سأقودها والله خير الموفقين.

على الفور بعد اجتماعنا، عممت على الجميع كلمة السر المستخدمة للشبكة وروابط لكثير من المواقع الوطنية الداعمة للجيش العربي السوري، ولكثير من أسماء الصفحات التي

سُميت بأسماء تُلمح إلى مشفانا كـ **(**أبطال المصح، مجانين ولكن عقلاء**...)** وأنا أسست صفحة دعوت الجميع للاشتراك بها أسميتها **(**أخبار المصح من أبطاله المحاصرين**)** وخلال أربع وعشرين ساعة، سمعت خبرين سارين وأنا في المناوبة، أولهما وأهمهما أنّ السيارة عادت للعمل بفضل تجميع الآراء الكثيرة وانتقاء الأنسب للتصليح، وثانيها أنّ عدد المشتركين قفز إلى الألفي مشترك لصفحتي الجديدة**!** أنهيت نوبتي بعد منتصف الليل تماماً، ودعوت فارس لاحتساء فنجان قهوة على الطريقة الألمانية، كنت أشعر بشوقٍ لرؤيته، ولمناقشته بأحاديث الثقافة، ومحاورته بشؤون عمله، وتوقعاته لقادمات الأيام، ودّعته وفتحت حسابي، وكما هي عادتي أقرأ ما كتبته ايفا، وما أرسلته إلى صحيفتها، وعلى الفور أجريت ترجمة فورية للمقال، ونشرته دون تلخيص على حسابي في الفيس بوك، لأنه كان في غاية الوطنية، وفي غاية الحب، ومما كتبته**:**

- لن تصدقوا ما يحدث الآن في سورية**...** المعجزات تولد من جديد**!** القلة من أفراد الجيش العربي السوري يقاومون جحافل مسلحة لإرهابيين لم يعهدوا حرمة لفاقدي العقول أو

للمعاقين النفسيين، فهجروهم من مشفاهم! ويحاولون الآن بكلّ إمكاناتهم الوحشية المخزية تهديم هذا الصرح الإنساني الكبير، ولكن المواجهة أحالتهم وحولتهم إلى مجانين! وأنا من هنا، من بلدٍ عرفه التاريخ عنواناً للحضارة وللعراقة، أصرخ وبملء حنجرتي، أيها العالم المتمدّن واجه الإرهاب المجنون وكن عوناً للجيش العربي السوري، كيلا تصبح يوماً ضحية لسكين إرهابي مجنون فقد عقله كما فقد إنسانيته، ولكم أنْ تعيدوا قراءة المثل القائل: (لا تلقِ اللوم على من حذّر، ولكن القه على من سمع النصيحة ولم ينتصح).

بعد فترة استطاعت عيوني سبر الأعماق القلبية لكافة الجنود، مما أشعرني بالفخر والزهو لنجاح خطتي في قيادة المعركة الالكترونية، ولأن الفرحة لا تكتمل طالما أن الراية العليا هي للحزن، فلقد وصلتني رسالة عبر البريد الالكتروني من الصديق الألماني الذي نصحني جاهداً بعدم الرحيل والبقاء في أجواء العز والثراء الألماني، رسالة أفقدتني صوابي واعتبرتها إهانة لكرامتي، ولعنفواني، ولعروبتي، ولصمودي، يقول فيها:

- صديقي الدكتور... أما كان من الأفضل لك أنْ تستمع لصوت الواقع بدل أنْ توقع نفسك في شِباك الحرب السورية وأتونها وتطلب العون من السفارة أو ممثليها لإنقاذك؟ أتمنى لك الحياة، وأتمنى للسفارة التوفيق في عملها، وإيصالك إلينا سليما معافى.

طبعا، وبغض النظر عن نواياه الطيبة فإنّ هذا الكلام وكما يقولون بالعامية: (نطط العفاريت الزرق في رأسي) وكلّ غضبي هذا لم يكن بشيءٍ إذا ما قورن بغضبي حين عرفت أنّ زوجتي الحبيبة هي من أبلغت السفارة الألمانية أو من يمثلها (القنصلية) بوجودي داخل المصح، وطلبت المساعدة لي بصفتي مواطناً ألمانياً.

كانت المرة الأولى التي أفقد فيها أعصابي، وأنا أحادثها عبر الهاتف، صرخت كالملدوغ عندما رفعت السماعة:

- ايفا، من سمح لك أنْ تتواصلي مع السفارة بشأني؟ من قال لك إنني ألماني؟ وإنّ السفارة الألمانية مسؤولةٌ عني؟ هذا خطأ لن أغفره لك، لقد أعلمتك بكلّ ما سأوجهه، وأعطيتك

حرية الخيار بانتقاء مستقبلك، ولم أتدخل بقرارك كونك ألمانية، لقد تصرفت برعونة يا ايفا!.

هي كانت تبكي، وتحاول شرح وجهة نظرها، لكنني لم أفسح لها مجالاً، وتابعت:

- ايفا لقد تجاوزت الخطوط الحمراء، ومسست كرامتي، لقد جرحتني يا ايفا، وأعدك أنْ تدفعي ثمن ما فعلته غالياً.

أغلقتُ السماعة، وقفلت جوالي، وانتقلت إلى حاسوبي لأكتب رسالة الرد على رسالة صديقي الدكتور، ومن دون تفكير كتبت:

- صديقي، يبدو أنك لم تنتبه إلى كلماتك جيداً، واعتبرتني ألماني الجنسية! ونسيت أو تناسيت في لحظة كتابتك الرسالة أنني سوري المولد، وأنّ حق سورية عليّ بالدفاع عنها كبلدٍ أوجدني في هذه الحياة أوجب بألف مرة من حق ألمانيا عليّ بالعودة إليها مدرساً بجامعاتها لأنها منحتني الجنسية. عزيزي الدكتور... سورية وهبت لي الحياة دون أنْ تطلب ثمنها أما ألمانيا فلقد منحتني الجنسية لتفتخر بي أولاً، ولأُدرس طلابها ثانياً، والفرق واضح على ما أعتقد.

بقيت على حالة الخصام مع ايفا لمدّة أسبوعٍ كامل، رافضاً كلّ وساطات أهلي للسماح لها بمكالمتي إلى أن تحدث معي أحد العاملين بالسفارة المغلقة سياسياً عبر وسيطٍ أمني ظاناً أنه يُطمئنني ويحثني على الصبر ريثما يتوصلون مع المسلحين لاتفاقٍ يؤمن خروجي سالماً، أجبته بكل برودة أعصاب وهدوء:

- ومن قال لك إنني خائف؟ وبأنني أنتظر مساعيكم لإخراجي؟ أنا هنا، لأنني أرغب أنْ أكون هنا، فحاولوا أنْ تكونوا حيث يجب أنْ تكونوا... أشكركم وأحب أنْ أنوه بأنكم طلبتم النمرة الخاطئة أو أنكم طلبتم الرجل الخطأ.

وبعد أنْ أتممت اتصالي هذا، طلبت على الفور رقم زوجتي المتلهفة لسماع صوتي، بدأتْ بالاعتذار، وبتوضيح دوافع قيامها بهذا التصرّف، تعتذر وتبكي، وتقطع بكاءها بجملة أو جملتين كـ (أنت لا تعرف ماذا تمثل بالنسبة لي! أنت كل شيء في حياتي... أنت أمي وأبي وأختي وبلدي بل أنت حياتي، أنت زوجي ووالد ابنتي، ومن واجبي الحرص عليك وعلى حياتك، أنت والد مارينا وأنا لا أريد لها أن تفقد والدها، أعذرني يا حبيبي لقد تخيلت لوهلة بأنني أستطيع فراقك ولكن

التخيل شيء والواقع شيء أخر) أكثر من ربع ساعة تقول كلمة وتعود للبكاء، وأنا أنتظر انتهاءها حتى أعلن سماحي وغفراني، وفي النهاية لم أشعر بنفسي إلا وأنا أعتذر لها لإطالتي فترة الخصام! ولتسببي لها بالقهر والبكاء، وفي ذات الوقت حاولت إفهامها أنني أعيش داخل المصح حياةً اعتدت عليها، ليست كما تظن مليئة بالخوف، والرعب، والموت، وختمت حديثي معها بعبارة واضحة:

- حبيبتي ايفا: ربما يُهول لك بعضهم عن خطورة الموقف ولكن عليك أن تصدقيني أنا وحدي... أنت خائفة لأنك خارج دائرة النار، وتتوقعين في كل لحظة خبراً سيئاً، أما أنا فأهم شيء عندي أنت ومارينا، وتفكيري بكما يُنسيني ما أمرّ به، فأرجوك أنْ تتماسكي كيلا أشعر بوهج النار وهي تحرقني.

تابعت حياتي بانتظام مدهش، أقيس الزمن وأعرفه كغيري من العناصر ببدء النوبة القتالية وانتهائها، بدونا كخلية نحلٍ كل منا يعرف عمله ومدّته، الجميل هو الاندفاع الطوعي للجميع في تحمل المسؤولية عن الجرحى الذين يرفضون مغادرة المصح، كل منا يعرف متى عليه أنْ يأكل ويشرب وينام

ويزور ويتصفح، غريبة جداً هذه الحالة المجتمعية الصغيرة، غريبة بمخالفتها لنظرية علم النفس التي تقول: (الضيق والمحاصرة تفرض نمو السلبيات الخامدة داخل الفرد أو المجتمع: وتساعدها على الطفو إلى السطح) هذا ما أسررته لضيفيّ العزيزين حيّان وفارس، وكان تعليقهما متشابهاً جداً: (ألم نقل لك إنّ الحياة في هذا المصح ستغير الكثير من نظريات علم النفس سواء ما درستها أم ما درسّتها).

- ليست الحياة في هذا المصح هي من ستغير نظريات علم النفس، وإنما الناس الذين يشاركونني هذه الحياة من الجندي الذي باستطاعته ترك الحرب والذهاب إلى أهله وذويه آمناً مؤمَّناً ومع ذلك يرفض! إلى المدير وآذنه اللذين يرفضان العمل رغم بقائهما معنا! وأنت يا حيّان تصرُّ على القيام بواجبك للمرة الثانية على الرغم من أنّ الدولة والجيش اعترفا لك بتمام أدائك لواجب الدفاع، وبأحقيتك بتنفيذ استراحة محارب مدى الحياة، وأنت يا فارس تتبرع بجهدك، ومالك، وسيارتك، وتغامر بحياتك على الرغم من الرفض المستمر لتوظيفك وكلّ هذا مقابل لا شيء!.

- لا يا دكتور في هذه النقطة أنت مخطئ ومخطئ جداً!! أنا لست إلهاً حتى أعطي من دون مقابل، لقد نلت مقابل عملي سلفاً حياتي التي عشتها، ولاحقاً تحقيق الأمان لوالديّ ولأخوتي، فهل هذه الأثمان قليلة؟ يكفي أنني استطيع التوصية بهم جميعاً... أوصي التراب، والشجر، والبيوت، وأوصي حيّان و أوصيك... ألا تسمي هذه الوصية ثمناً ومقابلاً؟

قال ذلك ثمّ نهض، صافحنا وقبّلنا:

- أنتما تعرفان قد لا أراكما لعدّة أيام، عملي ليلي ونومي نهاري، ويبدو أنني سأنام في الصباح نوماً ثقيلاً فلدّي اليوم ثلاث نقلات أدوية، وذخيرة، ومؤونة... كان الله في العون وداعاً يا أصدقائي... تصبحون على خير، وتصبحون على وطنٍ.

خرجا سوية، وعندما ودعتهما لدى الباب شعرت بأنّ شيئاً ما اختفى خلف زاوية الممر... فركت عينيّ جيداً وإلى النوم مستغلاً الهدوء النسبي لسقوط القذائف وفي الصباح استيقظت مُجبرا جراء سماعي لصوت حيّان، يصرخ ويطلق الرصاص، نظرت من النافذة فإذا بي أرى تجمعاً يتوسطه حيّان غاضباً، يركل أحدهم بقدمه! المطر الكثيف ضيّعّ دقة رؤيتي، هرولت

مسرعاً، وخائفاً على حيّان مما أصابه، وعندما وصلت صمت الجميع بمن فيهم حيان، تباعدوا قليلاً عن بعضهم لأرى الآذن مطروحاً أرضاً، وهو يتنهد بصعوبة والدماء تنزف من أنفه وفمه، جلست القرفصاء ويدي على شعره، وعيناي تستفسران عن أمرين! سبب العراك، وسبب الدموع التي يذرفها بعضهم، لم يجرؤ أحد على إجابتي! الجميع أطرق أرضاً، وقفت... تقدمت باتجاههم عنصراً عنصراً وضابطاً ضابطاً والجميع تهرّبَ من النظر إلى عيني، زادت قوة المطر حتى صارت خيوطه تسيل من ذقوننا، أكثر من عشرة أشخاص أحاطوا بنا، وجميعهم رفضوا الإدلاء بأيّة كلمة، بأيّ حرفٍ، قبضت على ياقة حيّان، وسألته بهدوء:

- حيّان، ما الذي يجري؟

رفعت طبقة صوتي ولم يُجب... رفعتها أكثر مع هزة عنيفة لجذعه.

أمسك بيدي، ودفعهما بقوة وسرعة، ثم صرخ:

- فارس مات، فارس مات، هل تفهم عليّ؟ فارس مات.. أطلقوا عليه قذيفة عند طلوع الصبح، وقبل وصوله القرية..

أنجزَ أعماله، وغادر باتجاه القرية دون معرفة السبب! وقبل وصوله إلى الحاجز بمئتي متر، استشهد.

وصلتني كلماته كما لو أنه يقرع الاف الأجراس في رأسي، أوقد بها هشيم الذكريات، تاريخ مشاعري يتكرر، ويستعيد اللحظة السوداء التي أخبرني فيها أبي عن استشهاد أخي، سرحَتْ عيناي بالأرض تبحث عن أيِّ شيءٍ تُركز عليه بصرها، شققت بيديّ المتراخيتين التجمع الذي يفصلني عن الباب، وعندما وصلت إلى الجدار أسندت ظهري عليه، لم تسعفني قدماي أكثر من دقيقة، ولذلك تابع جسدي انسياب قطرات المطر المتساقطة بغزارة على الجدار والمسالة إلى الأرض، رفعت رأسي لأرى أقصى ما استطيع علواً مصدر القطرات، ابتسمت وأنا أتذكر قوله: (أعلينا أنْ نَشِمَ أنفسنا بالحزن حتى نرث وطناً؟ ألا يوجد وطنٌ للفرحين؟) شعرت بانتعاشٍ روحي، وكأنه يجلس قربي، تذكرت كلّ شيء فيه، غمزات عيونه، حركات أصابعه على مقود السيارة، صوته في الكراج وهو يخلصني من بؤرة سائقي سيارات الأجرة، كنت استنشق رائحة عطره في حبات المطر، تمنيت لو أنني بقيت مع هذه

الذكريات إلى ما يشاء الله، ولكن صوت المجتمعين عاد إلى الارتفاع، وبعدها سمعت صوتاً لعيارٍ ناري، وهمد كلّ شيء! رأيت بين الأقدام كيف يسيل الدم ليفقد لونه الأحمر القاني تدريجياً إلى أرجواني أو بنفسجي نتيجة امتزاجه بماء المطر! لم آبه لكلّ ما يجري، اعتمدت على ما بقي من حيلي، وقفت ودخلت المبنى متجهاً إلى غرفة فارس، يا الله كيف لم انتبه إلى هذا الترتيب وإلى هذه الروحانية من قبل؟ تلمستْ أصابعي بهدوءٍ كتبه، كما لو أني ألمس وجهه، بعد ذلك انتقلت إلى علب العطر المتشابهة، أخفضت هامتي حتى استطعت احتضانها جميعاً إلى وجهي، وانفجرت بالبكاء حتى شعرت براحةٍ ما، ثمّ تحركت باتجاه سريره، جلست منكساً رأسي، وكفايّ تعتصران شرشفه، وعندما رفعت بصري إلى مستوى الطاولة الصغيرة المجاورة، أخذتني الآه إلى ما يقارب طلوع الروح، لقد وجدت صورة عائلتي الصغرى (أنا وايفا ومارينا) مكبرةً وموضوعة ضمن لوحة زجاجية ذات أطارٍ خشبي مزخرف بجوار صورة مماثلة الحجم لوالديه، آهٍ يا فارس، الآن قتلني الحزن عليك، الآن عرفت لمَ تساوت حرقتي بموتك مع حرقتي بموت أخي، يا

حبيب الروح ونسيبها، يا أخي الذي لم تلده أمي، حملت صورتنا مع صورته الشخصية وهو يقف بجانب (السوزوكي). التي كان لها الدور الأبرز في مقاومتنا، وحين اعتكفت في غرفتي كنت أمعن النظر كثيراً بهذه الصورة، أَتَفَّهمْ كيف لرجلٍ كفارس أن يغمض عينيه عن كلّ الإجحاف الذي مورس بحقه، ويفتحهما على حب الوطن، ولكن كيف لسيارة بسيطة أنْ تتحول إلى مركبة حربية؟ وإنْ تفهمت ذلك، كيف لي أنْ أتفهم أنّ هذه المركبة تحمل صفة الحياة؟ فتقاوم معنا بنقلها ما يُبقينا على قيد الحياة، وقيد الوطن، ثم تموت شهيدةً مثلها مثل فارس؟ لا أستطيع نسيانهما، وأقل ما أفعله حزناً عليهما اعتكافي هذا الذي حاول أغلبية الموجودين هنا إخراجي منه، جاءني العقيد.. ألقى خطابه العسكري واقفاً دون أنْ أنبس ببنت شفة، قال لي:

- أسمع يا دكتور، أنا أعرف فارس قبلك، هو رجلٌ ثوري، ويفهم الثورة على أنها تمرّد على الظروف غير الإنسانية، صحيح أنه متمردٌ هادئ إلا أنه يعرف كلّ خطوةٍ يخطوها إلى الأمام في هذا الطريق... أتعرف لماذا؟ لأنه مؤمنٌ بها... يدرسها جيداً

كيلا يخطئ هدفه، وشهادته كانت خطوة من خطوات طريقه ليصل إلى هدفه بالحصول على وطنٍ آمن... لم تكن لديه مشكلة في الحياة والموت... مشكلته كانت الحفاظ على هذا الوطن في قلبه، ووجدانه، وضميره، ولذلك كان عليه أن ينقله كيفما انتقل، وما الموت عنده إلا رحلة ممتعة بصحبة وطنه، فهل تريد أنْ تنزع عليه رحلته ومتعته باعتكافك هذا؟ انتبه يا دكتور لما سأقوله لك: لم يعتبر فارس الموت أخر خطواته، أتعرف لماذا؟ لأنه أنار به طريقاً علينا جميعاً السير عليه... إنه طريق الشهادة أو النصر... أنت حر يا دكتور، اعتكف إنْ شئت في غرفتك مدى العمر أو تابع السير على طريقه... الغرفة الطبية تنتظر، والمناوبة الليلية تشتاقك، أما السلاح فدائم السؤال عنك، ألن تجيب؟ أنا أعرف أنّ كلماتي تصلك، ولكنه الحزن العميق هو من يمنعك من الكلام ومن الخروج، أنا لست ضدك احزن وابكِ... ليس برجلٍ من لا يحزن ولا يبكي، ولكن لا تجعل الحزن يهزمك كما يهزم النساء... فكرْ بفارس وبهدفه كي تعرف الطريق للخروج من حزنك، ومن غرفتك.

وضع يده على الجرح، زاد ألمي، أجج حزني إلى أبعد مدى على مذبح ذاكرته، ومعرفته بفارس، وددت لو أعبر له عن إيماني بكلّ ما قاله، ولكن حالتي خذلتني فلم أقوَ على شيءٍ إلا البكاء.

في اليوم التالي، دخل المدير، تمشى قليلاً، وقف قرب النافذة، استدار نحو سريري حيث كنت أجلس كما يجلس حيّان حين يحتضن ركبتيه، وقال:

- ليس غريباً أنك كنت تقضي الساعات الطوال على هذه النافذة، ولم تتنازل عنها بعد أن أسقط القناصون زجاجها! وأعتقد أنها أحد العوامل المساهمة في اعتكافك. اسمع يا دكتور، أنا لست عسكرياً، وأكره الأجواء العسكرية، وربما لاحظت بنفسك أنا لا أحب التدخل بما لا يعنيني على عكس فارس (رحمه الله) ظن أنه سيُعدّل كفتي الميزان بانضمامه إلى الجيش العربي السوري! دفع ثمن تعاطفه الروحاني، وثمن تدخله بما لا يعنيه.. وعلى الرغم من قراءاته الكثيرة لم يعرف قراءة الواقع! ربما إيمانه بحدوث المعجزات في هذا الزمن غرّه، وأخشى أنْ يغرّك أنت أيضاً، اسمع يا دكتور، سأقول لك

كلمة قالها غيفارا يوماً: (لا يزال الأغبياء يتصورون أنّ الثورة قابلة للهزيمة) من تعاسة حظ فارس أنه لم يقرأها أو قرأها ولم يُقوِّمها! هذه إمكانات عقله أما أنت فبروفسور، أم أنك نسيت كم كنت تدقق على هذه الكلمة؟ لمَ تنظر دون أن ترد؟ حسناً سأكمل، في كلّ الحالات عليك أنْ تخرج من الغرفة.. هذا اليوم الثالث للاعتكاف، وأعتقد أنه كافٍ وزيادة لأي من الحالتين، الحالة التي أعتبره فيها فضولياً، وحشرياً، ومغفّلاً يكفيها ثلاثة أيام، والحالة التي تعتبره أنت فيها بطلاً، ومقاوماً، وشهيداً أيضاً يكفيها ثلاثة أيام، و آنّ أوان الانتقام له، وعليك أنْ تتفضل إلى السلاح، آ... على سيرة الانتقام هل أبلغك أحد بأنني قتلت الآذن رمياً بالرصاص... صحيحٌ أنني أميل إلى الثورة إلا أنني أكره الخيانة، ولقد سجلت بقتلي له أول حالة انتقام لفارس، ولحصارنا، وعليك أنْ تكمل الطريق.

- دكتور، إنْ كنت تعتبره فضولياً، وحشرياً، ومغفلاً كونه وضع نفسه وسيارته في خدمة الجيش، وهو مدني فلمَ بقاؤك أنت؟

- أنا؟! أنا لأنني المدير، وعليّ أن أسيّر أمور المشفى.

- آ... يبدو أنك نسيت أنك مدير على طاقم مدني، وأنه لا مدنيين الآن حتى تسيِّر أمورهم؟.

- صحيح، ولكني أيضاً مديرٌ للمبنى، وعليّ الاهتمام بشؤونه، من المعيب بحقي أن أتركه، أنا أرؤسه منذ خمس سنوات... من اللحظة التي أقلع العمل فيه فهل أتركه الآن؟ لا تهون العِشرة إلا على أولاد الحرام... كيف سأحتمل عذاب ضميري؟ وبأيّ وجهٍ سوف أقابل فيه أولادي أو أهلي أو إدارة الوزارة التي وضعت كلّ ثقتها بي؟.

- يا سبحان الله، لم تهن عشرتك للمصح فترة خمس السنوات التي ترأسته فيها من غرفة مكتب، وأردت أنْ تهون عند فارس فترة خمس وعشرين سنة عاشها على أرض هذا البلد، خمس منها قضاها في هذا المصح... قضاها متوائماً مع هذا المصح ليله ونهاره، شرابه وطعامه، مجانينه وأطبائه، ثمّ أنّ فارس ليس مغفلاً، وهو قارئٌ جيدٌ، ويعرف أنّ ثوارك أكثر عدداً، وربما -بحكم من يدعمهم- أكثر عتاداً، ولكنه أكثر إرادةً، وأكثر تحدياً، وأكثر إيماناً، ولولا هذه الصفات الموجودة

به لما كنت أنت وأنا والعناصر على قيد الحياة، لقد اكتسى عقله فكرة المثابرة، واكتست روحه ثوب العزيمة، وإنْ بقيتَ هنا خجلاً من وزيرك، فلقد بقي هنا خجلاً من ربه، ومن وطنه، وشتان شتان بين خجلك وخجله، وأنا أؤكد لك أنه سينتصر فكراً، ونهجاً، وإيماناً، وإنْ كنت تعتبر أنّ موته نهاية فلقد أعتبرهُ هو بداية، أليس هذا قانون الكون في الدوران؟ لقد عاش بطلاً، ومات بطلاً، أما غيره فلقد أتاهَ نفسه في كثرة الطرق التي عليه أنْ يختار واحداً منها، ولا أظنه يخطو على واحدٍ منها، وقبل أنْ تأخذ الباب بطريقك، اسمع هذه الكلمات: إنْ كان أحدهم قد أرسلك إلي، فأخبره بأنه أرسل الرجل الخطأ، وإن كنت جئت بمحض إرادتك، فلقد جئت إلى الحالة الخطأ، وبما أنّ المصح قد أصبح مقراً عسكرياً، وأنا فيه برتبة ضابط، وأنت مدني، فأنت أمام حلين لا ثالث لهما أما أنْ تشترك في المناوبات كأيّ عنصرٍ موجود معنا أو ترحل من هنا غير مأسوفٍ عليك، أو على إدارتك التي تأكل وتشرب ولا تفعل شيئاً، وخصوصاً أنّ آذنك قد قتل، وبيدك مع أني لم أعرف السبب لمقتله حتى الآن! انصرف.

وبأعلى صوتي صرخت: انصرف.

لم يُشفِ غليلي البكاء، ولم يُنه اعتكافي ما سمعته إلى أنْ جاء اليوم الرابع، وفيه استأذن حيّان الدخول ومعه صينية طعام وضعها على الطاولة، وبدأ بتصفح الأضابير المنسية بصمت، لم يتكلم، ولم ينظر صوبي، مسحت دمعي الذي انهمر بمجرد رؤيته، وخاطبته:

- أعتقد أنك جئت لتتكلم! فلمَ الصمت؟

- وهل أنا مضطر لإجابتك؟ هل يُشترط أنْ يكون لكلّ سؤالٍ جواب؟ مثلاً لو سألتك لمَ أنت موجودٌ هنا ونحن في حالة حرب، أتجيبني؟ لو قلت لي: لتحارب، سأسألك: إذا لمَ أنت هنا في الغرفة؟ ولو أجبتني: لتعتكف حزناً، سأقول ليست هذه بالغرفة المناسبة للاعتكاف، وليس استشهاد فارس بالمناسبة التي يُعتكف من أجلها، ثمّ أنك تمارس أبشع أنواع الحزن، وهو الحزن اعتكافاً، ثمّ أنّ الاعتكاف لغةً هو الحبس والإقبال عليه ونصره، وأنت لم تحبس الحزن بل حبسك! ولم تقبل عليه بل أقبل عليك وأقتحمك! ولم تنصره بل خذلته! أنا لم آتِك من أول يوم... تركتك تحزن على راحتك... فارس

رجل يُحزن عليه، ولكنه بنفس الوقت من الرجال الذين لم يرضوا أن يكونوا يوماً عالة على أحد.. لم يرضَ ذلك في حياته، فهل يرضى أنْ يكون كذلك في مماته؟ أو أنْ يتسبب لأحد بحالة ما تحوله من مساندٍ أساسي وداعم كبير إلى عالة؟.

عاد إلى صمته، وإلى تصفحه عارفاً في قرارة نفسه إيّ أثرٍ مؤلمٍ تركه في نفسي.

- لمَ ضربت الآذن هذا الضرب المبرح، وطرحته أرضاً؟ ولمَ قتله المدير؟ لقد أخبرني البارحة، ولم أفهم ما عناه بالانتقام!.

- لا أعرف من أين أبدأ لك بالحديث، من خيانة الآذن أم من سفالة المدير، لقد ضبط العناصر المكلفون بمراقبة الآذن وهو يستخدم جهاز موبايل بنفس الوقت الذي اتصلت به اللجان الشعبية مع العقيد لتخبره عن استشهاد فارس، وأنت تعرف الآذن أخرس وأصم، فلمَ استخدامه للموبايل وعلى الفور أمرت باعتقاله، ومصادرة جواله، وكانت الصدمة (رسائل كثيرة تُعلم رقماً للمسلحين بتواقيت خروج فارس، ورسالة واردة من هذا الرقم يُخبر فيها بنجاح عملية الاغتيال

ويتشكره داعياً إياه بالمجاهد الكبير، أما لمَ قتله المدير؟ فكان عليك أنْ تسأله ليجيبك كذباً: بآن دمه لم يحتمل رؤية خائنٍ بيننا، وكونه من رجاله وتابعيه بشكلٍ من الأشكال فهو الأولى بقتله، أنا من ناحيتي لم استنظف هذا التصرّف، ولن يستطيع مهما فعل أمامي تلميع صورته هو كما قال الإمام علي (ع): الكذاب يُقرّب عليك البعيد ويُبعد عنك القريب، وأنا لست بالأحمق الغبي حتى أظن أنه تحول بلحظة من شيطانٍ إلى ملاك! ومن جبانٍ رعديد إلى بطل صنديد، لقد أطلق النار عليه بشكلٍ مفاجئ ولو أني قدرّتُ ذلك لمنعته! أنا متأكدٌ أنّ فعلته تلك كانت لغير غاية الانتقام، وإلا لصبر حتى نعرف إلى أيّ مدى وصلت خيانته؟ وأيّة معلومات أوصلها للمسلحين؟ وراء رصاصته سر، وأعتقد أنه قذرٌ مثله، على كلّ حال ليس لهذا جئتك، وإنما لأقول لك كلمتين: الأولى هي أنّ الحزن والدموع الكثيرة لن يعيدا فارس كما لم يعيدا أخاك من قبل، والثانية هي أنّ حيّان الذي هو أنا سيعتبر نفسه فاقدا لأخين أحدهما مات شهيداً ولم نعثر على جثمانه، وجميعنا حزنا عليه، والثاني مات اكتئاباً، جسده ما زال حياً وأعظم أحلامه وطموحاته أن يبقى قادراً على البكاء.

أنهى كلامه، ثمّ استدار لجهة الباب، توقف لحظة، وكأنه استذكر شيئاً، فاستدار ليقوله:

- كنت آمل أنْ نتعشى سوياً، ولكن للأسف أدركني الوقت وحان موعد المناوبة، على فكرة منذ اعتكفتَ في غرفتك وأنا أضع اسمك معي في المناوبة الليلية، وأتحمل السهر طوال الليل وحدي كيلا يُقال عنك أنك عالة، وداعا.

- انتظر، بإمكانك أن تأخذ الطعام معك إلى المناوبة ريثما ارتدي ثيابي واتبعك.

- حقاً تفعل؟

- ليس مثلي من يُخجلك، وليس مثلك من يُخجلْ.

بعد أسبوعٍ كامل من فك الاعتكاف لم نصل إلى أيّة خطة لتعويض ما يصرف من مؤونة، وذخيرة، على الرغم من المحاولات الكثيرة من المدنيين لإنقاذنا بنقل ما يلزم بسيارتهم إلا أنّ جميع محاولاتهم باءت بالفشل، وذلك نتيجةً لاقتراب الإرهابيين إلى خطوطٍ جعلت من الطريق مرصودة بشكلٍ كامل، كان علينا التقتير والتقشف إلى مرحلةٍ فظيعةٍ تقارب

الصيام، وأكبر من وجع الجوع كان وجعنا على الجرحى الذين لم نستطع أنْ نقدم لهم أكثر من حبوب السيتامول أو مضادات الالتهاب، وعلى الرغم من ذلك لم يفرط عقد تماسكنا إلا بالحادثة التي أدت إلى استشهاد العقيد بعد إصابته إصابةً بالغة بُترت على أثرها قدمه، كانت أول حالةٍ تواجهني بهذه الصعوبة إذ تعلقت الساق ببقايا من اللحم، الدماء تنزف من كِلا القطعتين، صرخ في وجهي كأيّ قائدٍ عسكري حازمٍ:

- دكتور، ماذا تفعل؟ لمَ تنظر إليَّ هكذا؟ هذه حرب ستذهب فيه ألاف الرؤوس والأطراف... ابترها.

جاءتني رغبة في البكاء، بقيت مذهولاً مصدوماً بقوة النزف، وسؤالٌ واحدٌ تسأله نفسي: ألهذه الدرجة وصلنا؟ كيف تدحرجت هذه الكرة الإرهابية إلى هذا المصح؟ أنا بلدي سورية؟ ليت السماء تطبق على الأرض وتُبيد الحياة منها، رددت جملةً لم أذكر أين قرأتها: (يا إله السماء ماذا يحدث على أرضك) وعلى الرغم من إصابته قدّرَ ذهولي! وصرخ في وجه حيان:

- حيّان انقلني إلى المستودع... لا أريد لأحدٍ من العناصر أنْ يراني على هذا الوضع.

لم أعتدْ على رؤية جرحٍ كبيرٍ وضخمٍ بهذا المستوى، أنا أولاً وأخيراً بروفسوراً أخصائي في الطب النفسي، في طب الأمراض التي لا تراها العيون، أعالج الجروح التي لا تنزف دماً، ملعونة تلك الظروف التي جعلتني أمسك مبضعاً أو مشرطاً أو مقصاً لأقطع زوائد لحمٍ بشرية، ملعونةٌ تلك الظروف التي وضعت بين أصابعي إبرةً طبية لأخيط بها جروحاً مفتوحة، رجفت يداي وأنا أقص له آخر ما تبقى من الزوائد اللحمية، شعرت بدوارٍ وتراخٍ، إلا أنّ صراخه الذي رجّ المستودع منع إغمائي! لم تستطع كثرة المخثرات، والشراشف المستخدمة إيقاف النزيف! تحول لون سحنته إلى الأصفر، همد صراخه تدريجياً، وصار يطلق ألمه على شكل تنهيدات قوية وسريعة، أشار لنا بالاقتراب من وجهه، وبصوتٍ خافتٍ بدأ كلامه معنا:

- أنا سأموت، هذا المصح وعناصره أمانة عندكم، رجلي المقطوعة ستقودني إلى الموت.

- أرجوك، أنسَ أمرها وفكر بأنك موجود، لقد بترتها لك وانتهى الأمر، لقد تجاوزت المرحلة الأصعب، لا تفكر بما فقدت كيلا تفقد ما هو موجود.

- مفقودٌ أو موجود لا فرق، الموت سيجعلنا جميعاً مفقودين... اسمعا، لا أريد لأحدٍ أنْ يعرف بموتي... ادفناني ليلاً خلف المصح، وأنت يا دكتور، اشع بين العناصر أنّ صحتي تتحسن... جميعهم يعيشون على الأمل... حربكما الآن ضد اليأس، حيّان حيّان... أنت القائد بعدي، وإنْ كان لابد من السقوط فلا تسقطوا إلا وأنتم واقفون، وأنت يا دكتور، إذا حصل ووصلت إلى بر الأمان، فاسأل عن عائلتي (بكى وأبكانا معه) أخبر ولدي بما كان، أخبره بأنّ والده وقف وقفة العز التي يجب أنْ يقفها... هو مجتهد جداً، وأريده أن يكون طبيباً مثلك، أرجوك احرص على ذلك، أرجوك احرص على ذلك... ثمّ سلم روحه شهيداً لنتابع تنفيذ ما أمكن من وصيته.

صباح اليوم التالي كانت البداية لقيادةٍ جديدةٍ في المصح... قيادة من النوع الحازم جداً، وضعت الجميع أمام أحد الخيارين أما الخروج من المصح إلى أيّة نقطة يشاؤونها أو القتال بلا هوادة وبلا سؤال، وأمام الجميع أصطف الضباط الثلاثة مؤدين تحية الولاء لحيّان بصفته القائد الأعلى لعناصر المصح... وجّه كلامه مباشرةً للمدير وبلا خجلٍ منه أو من

منصبه: أنت منذ الآن وصاعداً سيكون لك نوبتا حراسة نهارية وليلية، وفي أي وقتٍ لا أجدك حاضراً سأزج بك في السجن.

- ليس من حقك أن تفعل ذلك، أنا لست عسكرياً عندك أو عند غيرك.

- كلامك صحيح، وعلى هذا المبدأ ومراعاةً لكونك مديراً سابقاً أما أنْ ترحل أو يُمنع عنك الطعام والشراب، انتهى الاجتماع.

بهذه الجملة أنهى القائد الجديد خطابه القيادي، وتوجه إلى غرفة العقيد ليجري الاتصالات اللازمة، وكان في المساء لي معه لقاء سريع ومقتضب.

- ألا تظن أنك قسوت على المدير؟

- أبداً، آنّ الأوان ليفيق على وضعه الجديد، بقاؤه هنا لا ينفع إنْ لم يحمل السلاح... لن يلومه أحد إذا ما خرج... ليس على رأسه ريشة، ولا تقل لي: (ارحم عزيز قومٍ ذل) إنْ لم نتعاون جميعنا مع بعض سنُذل دون تفرقة، بمعنى إنْ وصل

الإرهابيون إلى هنا ستكون رقبته مع رقبتي للذبح، فلمَ أضطر أنا لحمايته وحماية راحته في ظرفٍ لا يسمح لنا بأن نُبذر بكسرة خبزٍ صغيرة؟ ما لدينا يا صديقي يكفي لأسبوعين أو ثلاثة على أبعد حد، ولقد وصلني خبران حينما كنت اتصل أولهما سيء جداً، وهو استحالة إيصال أيّة معونة أو ذخيرة وحتى بطريقة الإنزال مستحيل نظراً لضيق المساحة الأرضية، وصعوبة الأحوال الجوية، وتملّك المسلحين لصواريخ تمنع انخفاض الحوامات تحت ارتفاع أربعة كيلو مترات، والخبر الثاني وهو الخبر السار إنْ حدث فهو أنّ القيادة وضعت في حسبانها تحرير المشفى أو تأمين خروج الحامية على أقل تقدير، والزمن ليس في صالحنا أبداً... أنا لا أنتقم يا دكتور، وليس بواردي هذا الفعل أبداً... لست من أتباع العين بالعين والسن بالسن وإلا لأكلت قلبه، شعاري واحد (الحرب على الجميع وعلى الجميع القتال) وبعد أنْ تنتهي الحرب نتفرغ لحساباتنا الشخصية.

- لم أجد بُداً من أنْ أبث ايفا حزني على من فقدت من أصدقاء وعلى أصدقاء قد أفقدهم في أية لحظة غدرٍ من لحظات غدر المسلحين المعتادة:

- لقد أغلقتْ جميع المنافذ يا ايفا... أنا لست حزيناً على نفسي... الموت سهل، هذا ما شعرت به من الموت الذي داهم أصدقائي! ولكن الفراق صعب، وهذا ما شعرت به في قلبي... ايفا، أنا لا أصدق ما يجري!! وهل يستطيع أحدٌ أنْ يصدق أنّ ثلة من الرجال فتحت لهم الحياة منذ مدة ذراعيها لاحتضانهم فرفضوا وأغلقوا مصاريع الموت على أنفسهم حباً بالكرامة، وتمسكاً بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم بخدمة هذا الوطن حتى أخر نقطة من دمائهم رافعين شعارهم الوحيد (وطن... شرف... إخلاص)؟ ايفا، لن تستطيع كلماتي إخفاء حزني مهما حاولتُ ذلك، ولكن صدقيني أنا أمتلك الآن شعوراً أقوى من الحزن بل هو الأقوى من كلّ ما يدهمني من شعورٍ عاطفي أنه الفخر يا ايفا! الفخر بوجود أناسٍ يطلبون الحياة لغيرهم ويدافعون عنها في ذات الوقت الذي يطلبهم فيه الموت ويسرع خطاه حثيثاً قافزاً فوق الطرق التقليدية للموت... ربما يا ايفا أقول ربما سيأتي يومٌ ويتناقل العالم صوراً لهياكل عظمية بوضعياتٍ مختلفة ترتدي ألبسة عسكرية... هذه ستكون هياكلنا... نحن سنموت جوعاً يا ايفا، وهذا ما يحزُّ في

خاطري... وداعاً يا ايفا... ربما يكون هذا التواصل الأخير بيننا... فأنا أتوقع أنْ يتسلل الموت في أيّة لحظة... أريد أنْ اعتذر منك على ما تسببته لك في الأسبوع المشؤوم سلمي على أهلي وأخوتي وعائلاتهم، وقبّلي مارينا قدر ما تستطيعين عني وعن روحي، والسلام.

التقطت أذني نحيبها، وحركة أصابعها وهي تحاول إغلاق منفذ الصوت، أعرف عادتها وهي تستجمع قواها، وأعرف كم سيكون لردها النكهة الروحانية، ومن النَفس العنفواني الرهيب، سمعت تنهيدة ما قبل الكلام، وقالت:

- كم ايفا محظوظة!؟ إذ أختارها الله من بين كل بنات ألمانيا لترتبط بشابٍ فيه من الصفات ما يجعلني أشعر بمحبة الرب لي، أنت حبيبي وكيفما دارت الظروف ستبقى حبيبي الدكتور والبطل والصامد، أغلق سماعة الهاتف يا حبيبي واذهب إلى سلاحك، وسأتجه أنا إلى الصلاة لأدعو لك ولرفاقك بالنصر القريب... سأكتب اليوم لكلّ العالم أنّ البطل في سورية هو الحب! لأنها البلد الوحيد الذي خُلقَ من الحب وعاش بالحب ولن يموت لأن الحب لا يموت... وداعاً لك ولرفاقك

وسنلتقي يوماً... للحب آهاته المؤلمة، وللحب أيضاً نهاياته الجميلة المفرحة... وداعاً يا بطلي يا حبيبي.

بالفعل أنا اتجهت إلى نوبتي التي استمرت إلى ما بعد منتصف الليل وعندما عدت التقيتُ مصادفةً بالمدير وهو يصعد من الطابق السفلي حيث مستودعات الطعام والسلاح... ألقيت عليه تحيتي المسائية سلاماً إلا أنه لم يرد، نظر إليّ بريبةٍ مذكراً إيّاي بما أغدقه عليّ من كرمٍ في بداية دخولي الوظيفي إلى المصح، لم يتقيد بأمر حيّان، واستمر على قناعته بعدم المشاركة في القتال، وبمطالبته بمخصصاته اليومية من الطعام، وأعتقد أنّ الأجواء بدأت تتوتر، وصبر حيّان بدأ بالنفاذ، وفي اليوم الخامس حدث أنْ اتصل بي مندوب الأمم المتحدة ليخبرني بما ظنه بشرى سارة بأنهم وبعد جهدٍ جهيد توصلوا إلى متزعم الجماعات الإرهابية التي تسيطر على الطريق، وأنهم اتفقوا معه على خطةٍ تضمن الإفراج عني مقابل شحنة واحدة من الأدوية والمعدات الطبية، وأنهم بصدد وضع الرتوش الأخيرة لتكون الخطة قيد التطبيق، طبعاً أنا ذكرت هذا الحدث التقني لأخبركم أنني اتجهت يومها وعلى الفور إلى حيّان الذي أصبح

بنظري قائداً أكثر منه صديقاً ومن واجبي كمرؤوسٍ إخبار رئيسي عن كلّ معلومةٍ تحصل معي أو أشعر بقربها من سياق العمل، قطعت شوطاً لابأس به من كلامي إلا أنني توقفت بعدما لاحظت إنشغاله بموضوعٍ أخر، عيناه كانتا تراقبان شيئاً متحركاً في الحديقة، وهزة رأسه تدل قطعاً على أنه يتوعد المتحرك بمصيرٍ لا يحسد عليه، اقتربت من النافذة وعندما رأيت المدير... رّبت على كتفه:

- حيّان، دعه بحاله لابد وأنّ تحسره بالبقاء هنا سيقتله من تلقاء نفسه.

- إن لم يقتله، فسأقتله أنا.

- حيّان، هل من جديد؟

- نعم، سمعت من مراقبيه أنه يحرّض العناصر ضدي بجملٍ قاسية... أتعرف ما يقوله لهم؟ كيف تسمحون لأنفسكم أن تكونوا تحت إمرة مجنون؟ ولا تلوموا أحداً إذا ما أوصلكم هذا المجنون إلى نهاية مأساوية بل لوموا أنفسكم التي خضعت للروح الشيطانية التي تسكن جسده، ولو كان فيه

خير لما رماه الطير هنا، كان حيّان ضابطاً وهو الآن رجلٌ مُسرحٌ من الجيش لعدم صلاحيته، وأهليته الجسدية والعقلية، وأنتم تنقادون له بشكلٍ أعمى! فاقد الشيء لا يعطيه، استيقظوا يا جماعة، المجنون لا يستطيع قيادة نفسه حتى يستطيع قيادتكم!

- صبراً يا حيان... أيّ تصرفٍ تتصرفه الآن سيجعل منه بطلاً ويجعلك ديكتاتورياً، ستنتصر عليه من كل بد، ولكن ستصنع له الهزيمة مجداً لن يستطيع انتصارك الوصول إليه، حاول تقييد رغبتك بلجمهِ حتى ولو طالبتك ذاتك بتحقيق هذه الرغبة، سيكون لانتصارك عليه صدىً أقوى وأبلغ من الصدى الذي ستحدثه ممارسة القوة ضده.

- دكتور، الأحكام المنطقية لا وجود لها في ظروفٍ غير منطقية، وإنْ وجدتْ فلا تأثير لها، سأمنحه المهلة الأخيرة أما أن يلجم لسانه، ويُنفذ ما آمره به حرفياً أو يغادر مصحنا، وإنْ رفض الاثنين فأقسم بالله بأني سأزجه في المستودع حتى نتخلص من هذه الأزمة وهذا المآزق... أنا أسف ما الذي كنت تقوله؟ لم يكن عقلي معي!؟.

- كنت أحدثك عن المندوب الأممي... لقد أتم اتصالاته لتخليصي من المصح.

- وطبعاً أنت كعادتك رفضت؟

- وهل تريدني أنْ أرضى؟

- نعم، لا تستغرب هذا البلد بحاجتك بروفسوراً أكثر منك مقاتلاً، وخصوصاً بعد الأزمة، فإن لم يكن لدينا أمثالك فنحن سنخرج من أزمة لندخل أزمةً ربما تكون الأصعب... لقد دخلنا في مرحلة حرجةٍ من أوضاعٍ نفسيةٍ متعبة، وكئيبة، وشبه هامدة... ومع أنني لا أريد خسرانك إلا أنّ البلد أحوج مني إليك... أنت العَالِمُ الذي ستتحمل المسؤولية الكبرى لقيامة هذا البلد مما هو فيه... يومٌ لك فيه بعد الأزمة أفضل من جميع أيامنا فيه.. أليس لكلّ زمانٍ رجاله... اليوم لنا وغداً لك ولذلك أرجوك أنْ تتجاوب مع الاتصال... هذا أفضل لك وللبلد... لم يُعجبك حديثي!؟ ما رأيك لو نتفقد أحوال الشباب؟ .

الظاهر أنّ المدير أفرغ سموم لسانه في الأذان، فلقد تغيرت تصرفات الاحترام، وقلت نظرات الوقار والتبجيل، ولقد وصلت الأمور إلى حدٍ لا يُطاق طرقت فيه بعض التعليقات

المسموعة أذاننا! ساهم ضبط أعصابنا بتهدئة ما كان يجب أنْ يحصل بعد سماعها، وفي الصباح الباكر طلب حيّان من جميع الضباط، ورؤساء نوبات الحراسة، الاجتماع في الغرفة التي أصبحت مقراً للقيادة، وأعلن أمام الجميع منح المدير المهلة الأخيرة لانضباطه أو لمغادرته، وإلا فالسجن بانتظاره، وبالفعل فلقد اختار المدير سراً تنفيذ أمر المغادرة، لم يره أحدٌ، ولم يعرف أحدٌ كيفية خروجه! أصلاً لم نكتشف ذلك إلا بعد اكتشافنا لمصائبٍ حدثت، هي بالمصادفة! هي مقصودة! الله أعلم، لم نتهم أحداً أو نتهمه ولكن هناك علاقة وثيقة بين ما حدث وغيابه أو مغادرته أو الله أعلم بما جرى له؟ المهم أنّ المسؤول عن توزيع الفطور أقتحم مكتب حيّان في الصباح الباكر! ليخبره بأن أحداً ما فتح صنبور الماء على كيس البرغل الوحيد، وعلى أكياس الخبز!.

كان المنظر مبكياً، فلقد نفشت حبات البرغل، وسبحت أكياس الخبز، تسارع استرجاع الصور في رأسي لتحدي المدير ولرؤيته، وهو يصعد الدرج فاستدرت باتجاه المجتمعين موجهاً سؤالاً واحداً:

- أين المدير؟ أين المدير؟

ومن دون أنْ يلتفت، أجابني حيان:

- لا تتعب نفسك، لن تعثر له على أثرٍ، لقد غادر.

وبعدها أسرع برفع طبقة صوته موجهاً كلامه للجميع:

- ماذا تنتظرون؟ سارعوا بإخراج ما تبقى من الكيس، وجميع أكياس الخبز... هيا.

انتظرنا مجيء الكهرباء، ليطبخ كلّ فريقٍ ما وُزع له من كيس البرغل أو لتحميص الخبز المفروش على جانبي الممر ولكن الكهرباء التي انقطعت لأول مرة عن المصح! تابعت انقطاعها ولم تأبه لانتظارنا، لقد فعلها المسلحون، قطعوا كافة الأسلاك الواردة إليه ولا من سبيلٍ بعد اليوم للطهي أو للتدفئة الكهربائية... سحبت جميع كميات البنزين من السيارات العسكرية المركونة دون حراك لتشغيل مولدة الكهرباء بهدف الحصول على الإضاءة، وعلى استمرارية شبكة الانترنيت التي قرأت من خلالها أخر مقالٍ أرسلته ايفا إلى الصحيفة في هذه المرحلة، وعنوانه الثانوي (إلى متى الانتظار؟ لا تجعلوا خطوات

الموت أسرع من خطواتكم) أيها الجمهور الألماني العزيز القارئ للصحيفة، لابد وأنكم سمعتم من قبل ومن خلال هذا العمود الصحفي المبوب (يحدث في سورية) بوجود مصحٍ عقلي في منطقة تدعى بـ (سهل الغاب) يعمل داخله طبيبٌ ألماني يحمل درجة (البروفسور) شغلته الأعمال الإنسانية داخل المصح عن كلّ ما هو خارجه، لم يكن مضطراً لمتابعة مجريات الحرب التي أحاطت بالمصح من كلّ حدب وصوب، وبدل أنْ يكون مصدراً لعناية الإله بذوي الإعاقات النفسية المحتاجين كلّ الحاجة لعلمه ولحكمته، أصبح الآن هو المحتاج كلّ الحاجة لمن ينقذ هذا العلم وهذه الحكمة من سكين الإرهاب التي لا تميز بين سوري عسكري أو مدني أو بين سوري وألماني... أحبُّ أنْ أذكركم بثلاثة أشياء قبل أن أنهي كلامي، أولها اعتزازنا بقوميتنا الألمانية التي تسمح لنا كشعبٍ كامل بالدفاع عن أيّ مواطن ألماني أحاط به الضيق في هذا العالم، وثانيها بما قاله رئيس وزراء بريطانيا أيام حربنا معه عندما سُئل: (ماذا لو خُيّرّتَ بين الحفاظ على أراضي المملكة التي لا تغيب عنها الشمس أو الحفاظ على شكسبير؟) فأجاب

بسرعة: (طبعاً اختار شكسبير) وثالثها أنّ التغاضي عن أمثال هؤلاء الإرهابيين في سورية هو بمثابة دعم غير مباشر لوحشٍ لن ينتظر كثيراً حتى يلتهمنا، على كلّ حال لا تجعلوا خطوات الموت باتجاه البروفسور الذي تفاخرتم به كثيراً أسرع من خطواتكم لإنقاذه.

دمعت عيناي احتراماً لهذه المرأة العظيمة، ولقلبها الماسي الصافي المُحبْ.

طلع الصبح عليّ ولم أذق طعم النوم والراحة، وبتثاقلٍ كبير نزلت الدرج دون تحديد وجهةٍ معينة، وقعت عيناي على لوحةٍ برونزية كُتبَ عليها (مكتب المدير) وبعفويةٍ تامة فتحت الباب ودخلت، جلست خلف المكتب على الكرسي المتحرك، أسندت رأسي إلى الخلف، و دخلت في حالةٍ من النقاش مُبهمة الأسئلة وبلا إجابات أو إجابات تبحث عن أسئلة!.

- هل هرب المدير حقاً أم أنّ حادثة ما حدثت معه وأخفته؟ لماذا الآن وفي هذا الظرف مع وجود إمكانية لخروجه بسهولة مكرماً قبل هذا الحصار؟ أيمكن أنْ يكون هو خلف خيانة الآذن ولذلك سارع بقتله بمجرد انفضاح عمالته؟ من خلف

جريمة الماء المفتوح على ما تبقى من الطعام؟ المصادفة أم المدير أم خائنٌ جديد لم نعثر عليه بعد؟؟ كيف أيقن حيّان بعدم عودته لمجرد اختفائه بعد حادثة الماء؟ أهو حدسه العسكري المتمرس والصائب دائما أم أنّ حيّان ارتكب حماقة ما بقتله وكان سابقاً قد توعده لرفضه أداء واجباته ولتحريضه الجنود على التمرد؟ ما علاقة انقطاع الكهرباء بغيابه؟ والسؤال الأهم لماذا رضي بالبقاء ورفض القتال إلى جانب العناصر؟ عبثت بالأدوات الموجودة على الطاولة، ثمّ انسلت يداي إلى الأدراج المتتالية فإذا بها تكشف من أسرار المصح (فواتير للصيانة بأرقامٍ خيالية وسجل شبه خالٍ من الهبات المادية، وصور كثيرة لعقود عملٍ تخص الشهيد فارس وغيره من الأسماء التي لا أعرف أصحابها، وأعتقد أنها أما مزيفة أو وهمية تقاضى عنها رواتب شهرية دون علم أصحابها، والكثير من الأضابير لمرضى أذكر أنّ للبعض منهم أضابير على طاولتي وهذه مخالفة طبية غايتها واضحة وصريحة، نسختان لمريض واحد! يعني نسخة نظامية معتمدة للرقابة والتفتيش، ونسخة يعلم الله لأيّة غاية كان يستخدمها؟ المفاجأة كانت في الدرج الأخير المقفل، والذي اضطرني إلى خلعه لعدم عثوري على مفتاحه أخرجت

مفكرةً سوداء مؤرخة ومسجلا فيها ما هو غير متوقعٍ أبداً، حملت المفكرة واتجهت لغرفة القيادة رميتها على الطاولة أمام حيّان، وقلت:

- إذا عُرف السبب بطل العجب.

- ما في هذه المفكرة السوداء؟

- أشياء وأحداث على لونها! أتذكر يوم أُطلِقتْ النيران على نافذتي؟ لم تكن بالمصادفة!! صديقنا المدير هو من اختارها كهدفٍ مأجور! والآذن أيضاً كان عبداً مأجوراً! وهناك الكثير من الأحداث التي تثبت تورطه في التواصل مع متزعمي الجماعات الإرهابية التي تحاصرنا، الاسم موجود والتسعيرة أيضاً!

- ولو فتشت في قلب صفحاته لوجدت كم قبض على كلّ واحد من المرضى، واسم كلّ موظف له قيود نظامية هنا، ولكن لا يعرف المصح إلا على الخريطة، على كلّ حال هذا أخر همي، لقد أخبرني قائد حملة الجيش المتجهة صوبنا أنهم بحاجة إلى أسبوعٍ أو عشرة أيام للوصول، وأنا انتظر مشاهدة الويلات جراء الجوع والعمل المتواصلين، وما أصعبه من انتظار! وحده

قد يقتلني، فما بالك إذا ما اجتمع مع البرد والخوف من مداهمة اليأس للنفوس الأبية؟ الموت يبحث عنا، إنه في حالة عشقٍ مستعصية، ولا أظنه يطيق الانتظار، لن يوقفه شيء، قدرته هائلة في تحويل الزمن إلى اللا زمن! والمعنى إلى اللا معنى! لن نستطيع الاختباء عنه أكثر من يومين أو ثلاثة أيام على أبعد حد، سيعثر علينا، سيعثر علينا لا احتمالات، هو يتجه صوبنا ونحن نسارع لملاقاته وما أسرع اللقاء، دكتور ماذا لو طلبت منك أنْ تجتمع معهم للمرة الأخيرة، وترفع من معنوياتهم و تحضهم على الصوم أو على نسيان الطعام أو على اقتلاع أمعائهم... لا أعرف ماذا عليّ أن أقوله لك، حاول أنْ... أنْ.

في هذه اللحظة، أصدر جوالي المُلقى على الطاولة نغمةً، وأعلمتني الشاشة أنّ المندوب الأممي يتصل، وددت لو أكسره وقبل أن أقول «ألو» خطرت في بالي فكرة مذهلة حسمتها فوراً لصالحنا:

- ألو أهلاً وسهلاً

- ألو يا دكتور، إنها البشرى، سننطلق اليوم من دمشق باتجاهك لقد توصلنا إلى اتفاقٍ نهائي.

- لا أعتقد ذلك، سيرفض القائد هنا تسليمي، ولقد أعطى أمراً عسكرياً بقتلي في حال تصرفت أيّ تصرفٍ من تلقاء نفسي.

- لا تقلق معنا أمرٌ من قيادته العسكرية للسماح لك بالخروج، ألم أقل لك اتفاقاً نهائياً؟

- أنت لا تفهم عليّ، لن تستطيع القيادة العسكرية أمره بشيء، أنت تتكلم عن قائد الحامية السابق (قائد كتيبة المدفعية) وهذا الشخص استشهد، القائد الحالي لا يقع تحت سلطة القيادة العسكرية فهو ضابطٌ مسرح، ولا توجد أصلاً أية قيادة في العالم تستطيع إجباره على فعل شيء! أتعرف لماذا؟ لأنه مجنون!! نعم صدّقني لم يغادر مع المرضى، وآثر البقاء هنا، وبصفته ضابطاً طيّاراً برتبة مقدم، فلقد استلم بموافقة الجميع زمام القيادة بعد استشهاد العقيد!.

- ماذا تقصد؟ لقد أعطينا وعداً بتحريرك، وإرسالك غداً إلى ذويك في ألمانيا.

- تستطيع فعل ذلك، طلبه ليس كبيراً، أتمنى أن تفاوضه ليشعر بقيمته أولاً، وليُخبركم بطلباته ثانياً، أفعل ذلك أرجوك،

لا فرصة أمامي إلا عن طريقه، الجميع هنا خاتمٌ بأصبعه، وبإشارةٍ صغيرة سينسف جنوده سياراتكم، وسيجعلون من جسدي دريئة لرصاصهم.

- ماذا لو لم يوافق؟ سيكون الأمر إحراجاً كبيراً لمكتبنا الأمني في دمشق.

- أعتقده سيرضى، هو من النوع الصعب قيادياً، ولكنه من النوع السهل والمستحب من ناحية التعامل الإنساني.

- حسناً، أرسل لي رقمه علّنا ننجز معه اتفاقاً سريعاً يحفظ ماء وجهنا بعد أن أعطينا وعداً بذلك.

- أنا أثق بكم، ولذلك سأوضب حقائبي للخروج معكم مساءً... لحظات وسأرسل رقمه إليك... وداعاً

- ما هذا الاتصال يا دكتور!؟ ألهذه الدرجة أنا ديكتاتوري في قيادتي؟ ثمّ أنت... أنت الذي تعرف عني وعن قصتي كلّ شيء تنعتني -وعلى مسمع الأمم المتحدة- بالمجنون! بسيطة.

ضحكتُ من قلبي، وسايرني بابتسامةٍ جميلةٍ وجذابة.

- ستتركنا يا دكتور؟

- نعم، ولكن لن أترككم لموت الانتظار المُر، سيتصلون بك بعد قليل، أطلب ما تشاءه... لا تخجل ولا تَسْتَحِ كن مثلهم... أدرس حاجات المصح من الطعام والشراب والغاز والأدوية الإسعافية لمدة أسبوعين أو أكثر، وأنجز معهم الاتفاق، ولا تنسَ إخراج الجرحى... اتفقنا؟.

حين خرجت إلى الحديقة رفعت رأسي إلى السماء المتلبدة، ابتسمت حتى وصلت ابتسامتي مرحلة الضحكة السعيدة، تعالت يداي كطيرٍ يطير بانسيابيةٍ هادئةٍ، وصرخت بملء فمي أو ربما بملء قلبي، قائلاً:

- شكراً لك يا رب البرد، ويا رب الغيم، شكراً لك يا رب الشهداء، ويا رب الجرحى، ويا رب كلّ محاصرٍ، شكراً لك يا قوي وقوتك فوق كلّ قوي، شكراً لك يا رب من ليس له رب، شكراً لك يا من فتح سُبل الحياة لنا رغم أنوف كارهيها، شكراً لك يا شاعراً بأحاسيسنا، شكراً لك يا سامع دعائنا ودعاء ذوينا، شكراً لك يا رب العقيد وفارس وحيّان وربي، شكراً لك يا صاحب الاسم الأعظم، يا الله.

تأجل موعد قدومهم (أربعاً وعشرين) ساعة، وذلك لأنّ إدخال قافلة غذائيةٍ ودوائيةٍ للمصح ظل موضوع أخذٍ وجذب بين الجماعات المسلحة حتى المساء، وفي النهاية اكتشفوا أنهم مجرد عبيدٍ لا يقدمون شيئاً ولا يؤخرونه، تأتيهم الأمور معلبةً، وعليهم تنفيذه بقوة الحذاء ومهما كانت آراؤهم.

ولأول مرة منذ استشهد فارس تُفتح البوابة لدخول القافلة المكونة من سيارتين، واحدة تحمل الأغذية والأدوية، وسيارة صغيرة تشبه سيارة فارس على متنها براميل المازوت والبنزين وعبوات الغاز.

انطبعت السعادة على وجوه الجميع باستثناء حيّان الذي قطع الكلام، وتحجرت نظراته، استقبل المندوب في غرفة القيادة، تناقشا قليلاً ثم سمحا لي بالدخول، فدخلت ومعي حقيبةٌ كبيرةٌ، تصافحنا وتبادلنا كلمات التهنئة والشكر.

- أحسنت يا دكتور، إذ أنك وضبطت حقيبة المغادرة، فالهدنة الممنوحة ليست أكثر من ثلاث ساعات.

- قدّرتُ ذلك، وهي على هذا الوضع منذ البارحة.

- حسناً، نستطيع الوقوف والمغادرة الآن؟

- طبعاً تستطيع، وهل من أحدٍ يمنعك؟

- ما الذي تقصده يا دكتور؟ أنا لم أفهم عليك؟

- أقصد تستطيعون، أنت وفريقك وحقيبتي الموضبة.

- وأنتَ؟

- أنا!! من قال لك أنني سأغادر معكم؟ أنا اشكر اهتمامك، واهتمام الخارجية الألمانية، والشعب الألماني، وأقدّر تعبكم جميعاً، ولكنني لن أغادر.

- ولمَ جئنا إلى هنا إذاً؟

- جئتم بصفتكم مندوب الأمم المتحدة وليس السفير الألماني... أنت مسؤولٌ عن كلّ الناس وليس عني فقط... أنا واحدٌ منهم فأما أنْ نغادر جميعاً وأما أبقى معهم... أنا هنا دكتور يعني طبيب ولا يجوز إنسانياً ترك أيّ جندي في ظروفٍ حربيةٍ بلا طبيب هذا أولاً، أما ثانياً وهو الأهم أنا سوري وسوريتي بالولادة بالأرض بالتاريخ، وأنت أتيت لجنسيتي، وتستطيع اصطحاب كلّ ما هو ألماني (حقيبتي، وألبستي وأغراضي وهويتي الألمانية) وكلهم من ألمانيا... رافقتك السلامة

فالهدنة قاربت من الانتهاء، لقد نجحت بمهمتك نجاحاً مبهراً مبروك... لنتصافح الآن... أنا أشكرك... وداعاً.

استدرت بكلّ هدوءٍ وأنا متأكدٌ من انقلاب صورتهما، وددت لو أستدير لأرى انفراج سرائر حيّان، وتحجر نظرات المندوب ولكنني قدّرت أنّ ذلك عيب، فتابعت سيري باتجاه الغرفة الطبية لأتفقد المواد الطبية الجديدة، راقبت خروج القافلة وهي تجرّ ذيول الخيبة، وما هي إلا دقائق حتى دخل حيّان الغرفة واحتضنني بقوة، صارخاً:

- أنت بطل المصح، أنت بطل المصح.

ثم دخل العناصر، حملوني وصرخوا:

- بالدم بالروح نفديك سورية... بالدم بالروح نفديك سورية.

عقدنا اجتماعاً موسعاً في غرفة المدير، ضم كلّ من يستطيع الوقوف إضافةً لمن حجز كرسيه، تناقشنا كثيراً حول التحصينات الواجب تدعيمها، وحول المنحة الإلهية الواجب تحفيظها، واستهلاكها بنظام وعدالة.

النتائج كانت مبهرة بتجميع الآراء واختيار الأفضل، أذنا حيّان كانتا تلتقطان كل الآراء، ولسانه كان يأمر بالرأي الأصح، لم يستثنِ أحداً، سُمح للجميع بمن فيهم المجندين بالمناقشة والمعارضة حتى أنه أصدر أمراً بتنفيذ ما أدلى به مجندٌ من حلب حول تخزين المواد الجديدة:

- سيدي، لدينا في حلب يتبع أصحاب معامل النسيج سياسةً ربما تعجبكم، يخزنون بضائعهم في أماكن متفرقة، وبعيداً جدا عن بعضها، حتى معاملهم يقسمونها إلى عدة معامل كلّ قسم في مكان تجنباً لحدوث حريقٍ ما قد يلتهم المعمل بأكمله، وهي خطة ناجحة، وأكبر دليلٍ على كلامي أنّ أكبر معملٍ متكاملٍ للنسيج في الشرق الأوسط حرقه سافل من المعارضة الحاقدة بضرب كبريت واحد، ومن شدة حسرة صاحبه الذي خرج عن هذه السياسة أصابته **(سكتة قلبية)** مات على أثرها.

- أحسنت، سيتم توزيع المواد على أكبر قدر ممكن من الغرف تحت أشراف سجلاتٍ موثقة ومرقمة تجنباً لأيّة قذيفةٍ

أو ظرف غير محسوب يطيح بهذه المنحة الإلهية، اسمعوا أيها الرفاق، الدكتور يريد أن يقول لكم كلمة، فلتسمعوه:

- اسمعوا يا رفاق، لا أريد لأحدٍ أنْ ينظر إليّ على أنني رجلٌ خارق أو منقذٌ إلهي، أنا لست هذا ولا ذاك، أنا أقلكم شجاعةً وإيماناً، ولئن ساهم ظرفٌ ما بإبرازي على هذا النحو فما كان ليتحقق لولا صمودكم في وجه هذه الموجة الإرهابية القذرة ولولا إيمانكم بالنصر... كنتم مع الله فكان الله معكم (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) محمد٧، لقد قهرتم شهواتكم فانتصرت حياتكم على موتكم، لم تتجاوزوا عوائق الحياة فحسب بل استطعتم بفضل صبركم وحكمتكم تحويلها إلى عوامل نجاح، لقد أنضجتكم هذه الفترة لمرحلةٍ أصبحتم بها قادة! والحق أقوله لكم: إنّ تشديدكم الطوعي على مفهوم الواجب نسف لديّ أهم نظرية في علم النفس وهي نظرية (القانون) الذي يحتاج إلى عباقرة لسن مواده وأحكامه، ويحتاج إلى رجال دين لإيضاح ثوابه، ويحتاج إلى رجال بوليس (شرطة) لمراقبة تنفيذه، ويحتاج إلى رجالٍ قضاة لتقويمه، ويحتاج إلى رجالٍ قساة لتطبيقه، وأنتم

كنتم كلّ هؤلاء! كلّ واحدٍ فيكم حمل عقلاً مفكراً، وقلباً مؤمناً، وضميراً يقظاً، وزنوداً سمراء قادرة، وأصابع مستعدةً على الزناد حذرة، قبلتم على أنفسكم الموت جوعاً فأشبعكم الله، ورفضتم الاسترزاق بالدين فثبت الله قلوبكم، وأبعدتم عن عقولكم خرافات الفتاوي الحاقدة بجواز القتل الأعمى، والخرافات التي تُجمّل الشيطان وأعماله، والخرافات التي تجعل من طريق الجماجم طريقاً إلى الحور العين، أنتم الثوار الحقيقيون وهم الخونة بائعو الوطن، أنتم المجاهدون المؤمنون وهم الكفرة عابدو المال والشيطان... سنصبر حتى يأخذنا الصبر قدوةً له، ولن نقبل على أنفسنا أنْ ندوس على السنابل لنقطف شقائق النعمان، بل سنحمي السنابل وسنقطف الشقائق، وسننعم بالحياة، ولن يكون لدينا فرقٌ بين الحياة الأبدية أو الحياة العزيزة، سيحمي الله من يحميه، وسيعز من يعزه، لنا الله ولنا هذا الوطن، ولهم شيطانهم ومالهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل له الأولى والآخرة... الله أكبر الله أكبر.

سارت الأمور كما خططنا لها تماماً، صحيحٌ أننا عُزلنا عن العالم الخارجي تماماً لأن الإرهابيين فجروا مقسم الخطوط

الأرضية، ومحطة البث الخليوية، إلا أننا كنا نستبين تقهقر المسلحين يوماً بعد يوم من تحركاتهم المتوترة ومن محاولاتهم اليائسة بالضغط على المصح سواء بالسيارات المفخخة التي تحاول الوصول إلى البوابة أو بالصليات الصاروخية على مبناه، صحيحٌ أنّ عدد الجرحى في زيادة مستمرة، وكل يوم ندفن شهيداً أو اثنين إلا أنّ ذلك كان يزيدنا تصميماً على الصمود، وزعت الكثير من المناشير المكتوبة بخط اليد والموقعة بأسماء الجرحى والشهداء، كتبت عليها الكثير من آيات الله التي تحض على القتال والدفاع والكثير من الجمل المؤثرة من أمثال **(**نموت ولا نخون شهداءنا، سمعة الجيش العربي السوري منقوشةٌ على فوهات بنادقكم ومدافعكم، أنتم على حق وهم على باطل وهذا يومنا لنزهق الباطل بحقنا إنّ الباطل كان زهوقا، يا رجال الله أما يكفيكم فخراً أن تكونوا رجاله، حماة أرضه ورسالاته، الله الله هذه الجنة تهفهف بروائحها العطرة حولنا فإلى الشهادة لننالها أو إلى النصر لنحتفظ بثوابها**)**.

صار عددنا ثمانية وعشرين جندياً، وأصبحنا قادرين على رؤية جحافل الجيش العربي السوري القادمة لتحريرنا وتحرير

المصح، أيامٌ قليلةٌ أو ساعات تفصلنا عن نصر الحرية، ولتغطية جميع النقاط كان علينا ألا ننام، ومن ينام بعد أنْ شرّعَ أبواب قلبه للفرح العارم؟.

بهذا الفرح، وبالثقة الموكلة لجيشنا الباسل الأبي تابعنا قتالنا، هي الساعات الأخيرة ليظهر الفجر، ولاستقبالها ضمدنا الجراح، وتقاسمنا الفضاء مع مئات القذائف ومع الشجر الواقف بكل كبرياء، أنا شخصياً كنتُ أكبر من آهاتي المحبوسة في تلك اللحظات التي وجدت فيها حيّان منقولاً على حمالةٍ إسعافيةٍ إلى الغرفة الطبية، لا أنكر أنني جمدتُ كتمثالٍ عندما لمحتْ عيناي جسده النازف، وسمعت أذناي تنهيداته السريعة، صرخ أحدهم بأعلى صوته: (دكتور) صرخةٌ واحدة كانت كفيلة بإعادتي الوعي إلى وضعه الطبيعي، فأسرعت قدر المستطاع، فتح عينيه بهدوءٍ وكأنه طفلٌ يقاوم النعاس، بحثت أصابعه عن وجهي وعن أصابعي، تلمسني، ابتسم ليهدأ روعي، وليسكن حيرتي الباحثة عن أخطر بقعة (فمه، أنفه، رقبته، خاصرته).

- اسمع يا دكتور، لم يبقَ وقتٌ للعلاج.

- لا تقلق يا حيان... اهدأ قليلاً.

كانت نظراتي تستفسر من أحد العناصر عمّا جرى بينما أصابعه تستجديني حتى أسمعه، وأنا استمع للممرض:

- أصابه عيارٌ ناري في أعلى كتفه الأيسر، وخرج من خاصرته، ومن لحظة إصابته وهو ينادي: دكتور دكتور

- دكتور، اسمعني.

هززت رأسي بالموافقة على سماعه بينما كانت يداي وذاكرتي الطبية تعملان بشكلٍ أوتوماتيكي (آلي)

- دكتور أنت الصديق الأحب إلى قلبي، أنت العظيم الذي كنت أشعر في حضرته بأني عظيمٌ مثله... هذا أيضاً كان قول فارس... أرجوك أنت تعرف أين دفنا العقيد، إنْ حدث شيء ادفني إلى جانبه، وحاول بعد خروجك من هنا الوصول إلى أخوتي، أرجوك أخبرهم بوصيتي.

- لمَ توصيني أنت لن تموت لو أرادت الرصاصة قتلك لما أعطتك فرصةً لتسمع صوتها

تابع حديثه، وكأني لم أقاطعه أبداً:

- أنا أهبُ ثمن بيتي وأرضي لصالح عوائل الشهداء في قريتنا... أرجوك لا تَنْسَ... أرجوك لا لا لا...

وهمد كلّ شيء، الصوتُ والتنهيدة والدم، رفعت رأسه بكفيّ وصرخت مواجهاً لوجهه:

ـ أنت لن تموت... لن أسمح لك أن تموت... خضتَ حرباً كاملة لم تمت بها! فلمَ تموت الآن؟... تكلم أرجوك... كلمةٌ واحدة، حرفاً واحداً، أرجوك أرجوك.

وأجهشت بالبكاء، تقدم العنصر قليلاً، وأنزل الرأس من يديّ وأغمض عينيه ثمّ بدأ بمسح شعر الرأس، وأنا أحتضن يده وأبكي عليها، بدوت كطفلٍ صغيرٍ يحاول أحدهم تهدئته وإبعاده عن يد أبيه المتوفي، ربع ساعة ثمّ وقفتُ أمسح دموعي.

- عليك أنْ تحمل معي الجثمان لنخرجه بسرعة دون أنْ يرانا أحد إلى الحديقة الخلفية، سندفنه هناك.

ولمّ نخاطر؟ سيرانا أحدهم مهما فعلنا، الأفضل أنْ ننزله إلى القبو، ونخرجه من باب النجاة إلى الحديقة الخلفية.

- وهل هناك بابٌ في القبو يوصل إلى الحديقة؟

- نعم إنه بابٌ للطوارئ.

- أم م م الآن عرفت كيف خرج المدير، حسنا لنفعل.

بزغ الفجر بعد طول انتظار ليُحملني مسؤولية كبيرة على مقاسي، ولأنه الظرف الاستثنائي فلقد قبلت أنْ أكون ناطقاً باسم القيادة، وباسم الشهيد الذي بقي استشهاده سراً حتى على الضباط صغيري الرتبة.

كان عليّ تنفيذ أحد أمرين أما أنْ أطلب من كلّ مجموعة مندوباً ليستلم تعييناتها أو تكليف نفسي بهذه المهمة، وهو الأفضل والأسلم، ولذلك بدأت بملء أكياس النايلون من كل غرفة بما يلزم من الماء والخبز والمعلبات، وبدأت بالتوزيع وأنا متخوفٌ من سؤالهم عن القائد، سؤالٌ واحدٌ كان له القدرة على ابكائي: (هل استشهد القائد؟) إلا أنّ قوة الانفجارات التي كانت تحدث شغلتهم عن السؤال، واكتفوا بسؤالي هل هو بخير؟ وهل الإصابة حرجة وعميقة؟ فأجيبهم: هو بخير، وأصابته سطحية، وهو موجود في غرفته لمن يود زيارته، وطبعاً أجبت بلغة الواثق من كلامه ومن صدق كلامه، لأنني متأكدٌ ألّا أحد يستطيع أن يترك موقعه باستثنائي أنا المجنون الوحيد.

عند المساء، بدأنا نسمع صوت قائد الحملة عبر مكبرات الصوت الضخمة، وهو يُبشرنا بقرب انتهاء الحصار المشؤوم خلال ساعات قليلة، وليته لم يخبرنا ولم يُبشرنا، فلقد تعاظم أثر الانتظار ومرارته وسؤالٌ واحدٌ خالج النفوس جميعاً، هل سيسبق قائد الحملة الموت المحمول على قذائفَ حولت حديقة المصح إلى ساحة للقيامة أم أنّ الموت هو من سيعلن نهاية دورة حياتنا وبأنه المنتصر الوحيد في هذه الدنيا؟.

ساعة منتصف الليل كانت الأعنف بين كلّ الساعات التي عشناها في المصح، أدركت مع قلة خبرتي العسكرية أنّ المسلحين اتخذوا قراراً بأن يكون الموت عليهم وعلى أعدائهم، ولذلك أفرغوا جام غضبهم وكلّ ما لديهم من ذخيرة وقذائف في تلك الساعة، وبعدها بدأ الهدوء يسود ويفرض حضوره المحبب، لا ينازعه في ذلك سوى بعض العيارات لقناصٍ ما هنا أو هناك، وفُتحت البوابة لأقمار الجيش العربي السوري مُكللين بالنصر، ترأست وفد الضباط المستقبلين، بحثتْ عينا القائد عن الرتبة العليا فأديت له التحية وبدأت بتعريفه على جميع الصامدين، وهو يحني رأسه إجلالاً لهيبتهم بغض النظر

عن الأسماء، استضفته في غرفة المدير مع أعوانه ومساعديه، وبدأت أشرح له صعوبة الأيام الأخيرة، وعظمة ما قدمه أبطالنا وشهداؤنا، وفي النهاية خرجنا متجهين إلى الحديقة الخلفية، قرأنا الفاتحة بصمتٍ وبدأنا بالتجهيز للمغادرة، أحضِرتْ سيارات لنقل الجثامين، ألقيتُ نظرة الوداع على قلعتنا الأبية، قلعتنا التي دخلتها طبيباً للمجانين، وخرجت منها عسكرياً، دخلتها بنظرياتٍ مثالية، وخرجت بحقائق واقعية مناقضة لكلّ ما تعلمته، دخلتها وفي رأسي أحلام فرحة، وخرجت بمشاهداتٍ محزنة، دخلتها وكلّ ظني أنني رجلٌ كاملٌ، وخرجت وكليّ يقينٌ بأنني رجلٌ في طوره البدائي، وينقص رجولتي الكثير من حكمة وشجاعة وحب الرجال الحقيقيين الذين يُطوعون الأرض كيفما شاؤوا بأصلهم المتوارث جيلاً بعد جيل وبقدرتهم الإعجازية على تحدي المستقبل وتخطيط معالمه، جاورت تابوت حيّان في سيارة الإسعاف، وسار موكب النصر ببطءٍ شديدٍ لازدحام الطريق بالمدرعات والمركبات العسكرية، تسللت يداي لتزحفا ملامستين غطاء التابوت، وأغمضت عينيّ متخيلاً طيفه وهو

يحاورني، أود لو يسمعني وأنا اعترف له بأنني تعلمت منه وفي فترةٍ وجيزة بأنّ علم النفس والفلسفة ليس نظريات تحفظها في الجامعة أو تفسرها كما يروق لك في المحاضرات وإنما هو التطبيق الفعلي وهو الممارسة وهو النشاط الذي تقوم به بمحض إرادتك ووازع ضميرك، تذكرت تلك اللحظات التي أسرّ بكل مكنوناته وآلأمه لي ولفارس، أحنيت رأسي حتى لامستْ جبهتي غطاء التابوت الخشبي علّه يسمع صوتي:

- هل تذكر يوم قلت لك إنّ أمراً ما بالغ الأهمية بانتظارك ولأجل بلوغه أبقاك الله حياً؟ وأيدّني حينها فارس بقول الله سبحانه وتعالى: (لا تدري لعلّ الله يُحدث بعد ذلك أمراً) (الطلاق١) هذا هو يا صديقي... هذا هو الأمر البالغ الأهمية أن تكون قائداً في وقتٍ حرجٍ يحتاج لمقررٍ حكيمٍ ولحزمٍ متسلطٍ ولشجاعة أسد ولحنان أب ولنشاط ولد... أنجزتَ مهمتك وترّجلت إلى مكانك اللائق، أوصلتني إلى بر الأمان، وسافرت لتلحق بفارس، أهكذا تواعدنا؟ يترك الصديقان صديقهما ويرحلان!؟ ياللأسف! كيف أواري حزني المفرح؟ الفراق صعب يا أخوة الروح، وألمه كسا وجهي وقلبي، الجنان مفرحة

يا أصدقائي ويقيني بوجودكما هناك يدفعني لمواكبة الأمل حتى الوصول إلى اللانهاية.

مذ قطعنا المتر الأول خارج البوابة وأصوات العيارات النارية لم تهدأ فرحاً وابتهاجاً بهذا النصر! كنت ألمح من نافذة السيارة المستطيلة عناصر الهندسة يفككون ما زُرع من عبواتٍ ناسفة وألغام وصدقَ المثل القائل: (الله يستر من الآخرة) إذ انفجر شيءٌ لا أعرف ما هو! أذكر أنني أفقت للحظة أو أقل، شعرت بها بتقوقعٍ جسدّيّ فظيع ومؤلم وبأن الدنيا انقلبت رأساً على عقب، فجعلت التابوت فوقي، وجعلتني فوق الأدوات الطبية ثمّ أفقت في المشفى العسكري باللاذقية ولقد اجتمع حولي من عددُهم أوجع رأسي المُثقل بالتخدير فعدتُ إلى نومٍ غير حقيقي (نومٌ عيني فقط) بينما حاولت ذاكرتي استيعاب ما جرى معي، ومحاولة التمييز بين الحلم والحقيقة، رغبتي في تكذيب الأحداث قهرت قوة التخدير وأول ما لمحته عيناي كان وجه ايفا... يا الله ما أجمله وجهك يا ايفا! أنا أريد أن أثبت لنفسي أنني معك على الأرض، ووجهك الملائكي يُوهمني بأنني في السماء!!؟.

- هل متُ يا ايفا؟ هل أنا في السماء؟

- لا يا حبيبي أنت على الأرض... افتح عيونك جيداً لترى العائلة بالكامل

- أشارت للحاضرين بالتقدم للتعريف على أنفسهم فظهرت صورة أبي ثم أخوتي، ازدحمت الصور في عيني كما ازدحمت الكلمات في أذني، عدت إلى الإغماض لأفكر قليلاً... الحمد لله أنا هنا بين أهلي وناسي، كان حلماً ما مررت به، حلمٌ تمنيته حقيقةً بالتعرّف على فارس وحيّان والعقيد وكان كابوساً فقدانهم، يا الله في الكوابيس نحزن على من نفارقهم بهذا القدر... الحمد لله أني أفقت من هذا الكابوس، كدت أفتح التابوت لأرى وجه حيّان لولا الانفجار الذي حدث.

انفجار... انفجار صرخت بأعلى صوتي: انفجار... انفجار فضمتني ايفا إلى صدرها، وهي تبكي وتحاول بالألمانية تهدئتي، وأنا أحاول إفهامها من صراخي وهزة رأسي أنها لم تفهم ما معنى انفجار، فأبعدها أخوتي ووالدي قليلاً عني.

- اهدأ اهدأ لقد انتهى الانفجار، وأنت بخير ونحن معك، وبعد قليل ستصل مارينا، ألا تودّ رؤية مارينا؟

- انفجار... انفجار

اقترب الطبيب مني، فأعاد محاولة من سبقه في تهدئتي.

- قل لي كذباً، أنا لم يحدث معي انفجار... أنا لم أكن مع تابوت صديقي حيان... أنا كنت أعيش مع كابوس... فارس وحيّان مجرد أوهام، مجرد أحلام سعيدة.

وتراخت أعصابي، فعدت إلى الاستلقاء الطبيعي، ونمت مكسور القلب والخاطر، وعندما أفقت ثانيةً رحل عني تأثير التخدير بنسبةٍ عالية، واستطعت التعرّف بسهولة على كل الموجودين:

- أين الدكتور يا ايفا؟ ألسنا في مشفى؟ أبي لمَ نحن هنا؟

- لقد انفجرت عبوة ناسفة في الجهة المقابلة لجلوسك، والحمد لله فلقد حمى التابوت الذي كان أمامك الساقين والقدمين، ولكن الركبتين تأذتا ولقد أجرِّيتْ لك عملية صعبة في الركبة اليمنى.

- آه... يعني أنا لم أكن أحلم؟ وحلمي الطويل كان واقعاً عشته بدمي ولحمي ونفسي! يا ويلي من الحزن القادم! كيف لي أن أهرب بعد أنْ التقطني بشباكه المنصوبة على ماضٍ عشته وعلى ذاكرةٍ مستقبلية سأحيا معها طوال العمر... حسبنا الله ونعم الوكيل... أرجوكم أحضروا لي طبيباً ليُفهمني الحالة الجديدة لركبتي.

مؤسفٌ ومؤلمٌ كلّ ما سمعته عنها، قد لا أستطيع طي ركبتي إلى الخلف، ستبقى رجلي مستقيمة وبحركةٍ أمامية فقط، وبصيص الأمل الوحيد لا تتجاوز احتمالات الشفاء به واحد بالمئة هو (إجراء عملية زرع ركبة) في ألمانيا تحديداً... لم يتسنَّ لي مناقشته أكثر، وذلك لأن وفداً من محطة تلفزيونية نصبوا عدتهم لتصوير لقاءٍ صغيرٍ معي وبصفتي قائداً للحامية المحررة من مشفى المجانين، سمحوا لي بقول ما أشاء! ولذلك قلت:

- لست أنا من يستحق التصوير والشكر! ولا حتى كل الجنود المُحررين، لقد صمدنا جميعاً، ولكننا تحررنا بفضل دماءٍ طاهرةٍ نزفت على هذه الأرض لشهداءٍ قد تُسجل أسماءهم

وتدفن جثامينهم، ولشهداءَ لم تربطهم بهذه الحرب أية علاقة، لم يكونوا جنوداً ولم يكونوا مستفيدين أو عاملين لدى هذه الدولة، كانوا من مُحبيّ هذه الأرض فقط، وكان لشرف هذه الأرض المرتبة الأولى في حياتهم، شكراً لك يا فارس لولاك ما وصلنا إلى هنا، وشكراً لك يا حيّان أيها المجنون المؤمن العاقل، وشكراً لكم يا شهداء بلادي.

لم تطل فترة إقامتي في المشفى، فلقد آثرت متابعة العلاج في البيت لقدرتي المادية أولاً ولاستخدام شبكة الانترنيت في البحث عن طبيبٍ سوري قادرٍ على إجراء عمليتي الصعبة، ومن فضل الله وكرمه مُنحت على إصابتي التسريح والإعفاء الكامل والتام من جميع الخدمات العسكرية والمدنية، وصار بإمكاني السفر إلى أيّة محافظة في الوقت الذي أشاء، وخصوصاً بعد أنْ مرّ على إصابتي فترة ستة أشهرٍ، وأنا الآن أستطيع المشي على عكازٍ جميل.

كنت مصمماً على البقاء في سورية حتى انتهاء هذه الأزمة وإن لم أعثر على طبيبٍ سوري يجري عمليتي، فستكون سفرتي إلى ألمانيا سفرةً طبية علاجية فقط.

وضّبنا أمتعتنا ليس من أجل السفر إلى ألمانيا! وإنما هو سفر الوصايا، أحببت أن أصل به إلى حيث أوصاني أصدقائي، وبناء عليه فلقد انطلقنا إلى حيث تقع قرية الطيّار.

رأيت صورته مع بعض صور شهداء قريته، طلبت من زوجتي التوقف، ترجلت من السيارة، شعرت بترحيبه وبحرارة وجهه عندما لمست أصابعي خدّيه، بكيت حتى شبعت عيناي وعندما استأذنتني زوجتي في العودة لإكمال المهمة قلت لها:

- هذا من غيّر مفاهيم علم النفس عندي، وهذا من علمني الصمود، وهذا من وهب لي القوة لأتابع مكانه، وهذا من حمى ساقيّ من البتر، ظلت عيناه تراقبني حتى اختفينا بين الشوارع نسأل المّارة إلى أن وصلنا إلى بيت العائلة، عرّفتهم على نفسي وعلى زوجتي وابنتي، تفاءلت كثيراً باستقبالهم لنا وعندما أخبرتهم بوصية أخيهم تغيرت سحنتهم إلى درجةٍ مازحتهم فيها:

- ما بكم يا جماعة؟ لقد أوصى حيّان بتركته إلى عوائل الشهداء، وليس لي!

فأجابني أحدهم جواباً دبلوماسياً وأظنه الأصغر صاحب السيارة الفارهة التي في الخارج:

- نفعل إنْ شاء الله، كان عليك أنْ تخبرنا من قبل لقد تصرّفنا بماله ووزعناه على الجميع، وسنحاول لمَّ ما أمكن منه والتبرع به لما ذكرت من أسر الشهداء.

- أظنه أمراً سهلاً، فأنتم أخوة ويسهل التعامل ما بين الأخوة!.

ردّ عليّ أحدهم صاحب الشعر الأبيض وأظنه كبيرهم:

- لقد أبلغتنا الوصية، وما على الرسول إلا البلاغ المبين... شكراً لك تستطيع زوجتك التقاط ما تشاء من الصور على الطريق الخارجة من القرية... ظنناكَ مُكرِّماً فإذا بك سائحاً... وداعاً.

تذّمر أخوته من تصرفه الغبي المتعنت، ولكنهم شكروه في سرهم بعد أنْ وقفنا لنُودّع وننصرف.

تابعنا رحلة الوصايا بحثاً عن أهل فارس، ولكن لم نعثر لهم على أثر بين القرى المجاورة لقريتهم، وكان قرارنا بعد ثلاثة

أيام من البحث أن نترك لهم عنواننا وأرقام هواتفنا عند مختار كلّ قرية مع وعدهم بمكافأة مالية مجزية إذا ما تمّ العثور على أحدٍ من عائلة فارس أو أحدٍ يوصلنا إليهم، وعدنا باتجاه بيت العقيد **(**قائد كتيبة المدفعية**)** قضينا يوماً رائعاً في ضيافتهم نحاول فيه إقناع ولده بالسفر إلى ألمانيا ليتابع رغبة أبيه في دراسة الطب البشري، ولكننا فشلنا فشلاً ذريعاً**!** أولاً لأنه يحب الهندسة المعمارية حبّاً جمّاً، وثانياً لأنه يرفض ترك أخوته وأمه بلا رجلٍ يستعينون به على غدر الزمان، وفي لحظة الوداع وقف قربي، وقال لي**:**

- اعذرني يا دكتور، لأنني لم أقبل السفر معك، أنا لن أترك أمي هذه المرأة كانت رفيقة دربه وحبيبة قلبه، كانت حاضره ومستقبله وكلّ وطنه، وإنْ كان واجباً تنفيذ وصيته فالأجدر العناية بأحبابه وإنْ كان يرغب بدراستي للطب فأنا أقدر على ذلك، ولكن ما نفع العلم الذي تأخذه جامداً، وتتعامل معه بكلّ جمود ودون أنْ تُطور به شيئاً لصالح البلد، أنا في الهندسة المعمارية أنفع مني كطبيب بشري، صدّقني يا دكتور، يعزُّ عليّ

إخجال والدي وهو في قبره، ولكنني أظنه يريدني هكذا رجل قرارات لا رجل توصيات وتعليمات، ستأتي يوماً لزيارتنا بكلّ تأكيد وسترى هنا لافتة كبيرة باسمي أنا وبصفتي أشهر مهندسٍ معماري في البلد... رافقتكم السلامة يا دكتور حاول أن نبقى على تواصل.

عدْنا بخُفي حنين من كلّ جولتنا، لقد فشلت في تحقيق الوصايا ومع ذلك فما تزال هنا فسحةٌ سماوية للأمل، فلقد تمّ إعلامنا عن دكتورٍ للجراحة العظمية يستطيع إجراء هذه العملية بسهولة، وبسرعة البرق قادت ايفا السيارة إلى دمشق حيث تقع عيادته، ولكننا فؤجئنا بأنه ترك العيادة وسافر إلى أوربا! وعندما سألنا عن السبب أجابتنا واحدة من سكرتيرات العيادات المجاورة لعيادته المغلقة: بأنه رفض الخضوع لقوانين المدير الجديد للمشفى، ولذلك قدّم استقالته خائباً بعد أنْ لاحقه بأضابير فسادٍ لا علاقة له فيها، وتكلمت أخرى فقالت: يا حرام فوق الموت عصة القبر لم يُسلموه إدارة المشفى وجاؤوا بطبيبٍ ليس له علاقة بمعالجة العظام وجراحتها، حاول

مساومته على دوامه! ولمّا استقال حاول مساومته على أمورٍ كان بعيداً عنها كلّ البعد، فما كان منه إلا أنْ حمل شهادته وسافر إلى أوربا تاركاً للمدير الجديد الجمل بما حمل.

استنفذت كل الفرص الممنوحة لي من قبل ايفا والعائلة وآن أوان الانصياع أو اختراع حجةٍ جديدة للتنصل من السفر وبقيت على ذلك أكثر من شهر فيه ما فيه من المداولات والسجالات إلى أن أعلن التلفاز بمحطته الوطنية الرئيسة عن إجراء مقابلة مع نائب وزير الصحة لاطلاع الناس عن الواقع الصحي، وتأثير الأزمة عليه فبدأ مُقدِّم اللقاء بتعريفه للجمهور المشاهد:

- الدكتور(...) نائب وزير الصحة خريج جامعة دمشق أخصائي في الطب النفسي، ومدير مشفى (سهل الغاب) للأمراض النفسية، وأحد أبطاله أيام الحصار المشهور، مدير مشفى دمشق للجراحة العظمية، وحالياً نائباً لوزير الصحة في سورية أهلاً وسهلاً.

- أي والله أهلاً وسهلاً**!!** من مرتشٍ فاسد إلى طبيبٍ جبان إلى فارٍ خائن إلى مدير مشفى الجراحة العظمية**!!** إلى نائب وزير الصحة في سورية**!!** هزل وضع الصحة إذاً**!.**

ايفا اتصلي بأمك واخبريها أننا بانتظار أول طائرة من بيروت إلى ألمانيا**.**

أوصيت براتبي لأولاد أخي الشهيد، ووضبت أمتعة السفر تاركاً بيتي وسيارتي بأمانة وتصرف والدي وإلى ألمانيا**...** وداعاً يا حبيبتي يا سورية، لم يسمحوا لي بتغييرهم ولذلك اكتفيت بتغيير نفسي بما يلائم وطنيتي وحبي لك، لا غرور ولا تعالياً، لقد صقل هذا المصح إنسانيتي وعلمني أنك فوق كل ما حصلت عليه من علمٍ ومالٍ وشهرة، ستبقين في الذاكرة وهي بدورها ستسجنني فيك وستسجنك بي، سأنقلك أينما رحلت وسافرت في ضميري، وستكونين أول الكلام على لساني وخاتمته في أيّ حديث أتحدثه، وسأحملك حباً في قلبي يدفنني أو أدفنه، وكما كانت حروفك جينات وراثيةً ورثتها أباً عن جد

كذلك سأورثها، تبقين يا سورية يا حبيبتي ملهمتي الأولى، وسأحاول قدر ما يستطيعه علمي وتعليمي نقل صورتك البهية إلى عقول من عرفك عبر شاشات الحرب والدمار وعبر ألسنة التزييف والكذب، علّهم يدركون أيّ خطأٍ ارتكبوه حين أنصتوا لنعيق ساستهم، سأحارب بمعرفتي عنك وعن تاريخك المكتوب بأولِ حرفٍ أبجديٍ عرفته البشرية، صحيحٌ أني مسافر ولكنه سفرٌ على حب على ألم وعلى انتظارٍ أحر من الجمر، لتحل لعنة سمائك وأرضك وتاريخك ومستقبلك على كلّ من وسوست له نفسه بارتكاب الخطيئة بحقك، أنا مسافرٌ على وعد المستقبل الجميل القادم حتماً من إرادة شعبك الصامد الأبي... فليقل الأعداء ما يشاؤن وليصمت الأصدقاء إلى الوقت الذي يشاؤونه، فالكلّ له موعد سواء بالسيف أو بالقلب... لك قدرة شعبية يا سورية أنْ تدفني كلّ من أراد بك شراً ولك قدرةٌ إلهية أنْ تُخرجي من قلوبهم المدفونة أحلى الزهور ليشمها الخيّرون... سلامٌ على بلدي يوم خلقه الله بأجمل هيئة

وسلامٌ عليه منذ اليوم الثاني لولادته وهو يقاوم حسد الحاسدين وحقد الحاقدين ودسائس المارقين وسلامٌ عليه يوم لا موت له وسلامٌ عليه يوم القيامة يوم **(**إلا الذين آمنوا وعملوا الصّالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلموا وسيعلم الذين ظلموا أيّ مُنقلبٍ ينقلبون**)** الشعراء ٢٢٧ .

* * *

صفوان محمود إبراهيم

- ولدَ في اللاذقية، سنجوان ١/١/١٩٧٨م.
- درسَ الثانوية العامة الفرع العلمي في مدارس القرية.
- انتسبَ إلى الكلية الجوية، وتخرَّجَ ضابطاً طيّاراً عام ١٩٩٩م.
- بدأَ الكتابةَ عام ٢٠١٣م وذلك بعد استشهاد أخيه حيان في محافظة الرقة.
- نالَ جائزة وزارة الأوقاف، مسابقة نبي الرحمة.

صدر له عن الهيئة العامة السورية للكتاب:

- رواية «طابقان في عدرا العمالية» عام ٢٠١٧م.

الطبعة الأولى / ٢٠١٨م

كلمة الغلاف

«الحرب غيرت مفاهيمَ كثيرة! ولكن صدّقني نحو الأسوأ، أنا لا أعرف كيف! لقد سمعت وقرأت الكثير عن أنّ الحروب تُنقي النفوس إلا أنّ ما حدث هنا كان أغرب من الخيال! ربما لأنها حربٌ غريبة عن طبيعة الحروب...»